أدب الجاحظ

تأليف

حسن السندوبي



ابو عثمان عمرو الجاحظ

ولد بالبصرة سنة ١٥٠ — وتوفى ببغداد سنة ٢٥٥ هـ

» » » ٧٦٧ — » » » ٨٦٨ م

أدب الجاحظ

بحث تحليلي في حياة الجاحظ وسيرته ،
ودرس مستفيض في أدبه وعلمه وفلسفته
وبيان خصائصه ومميزاته ، ووصف
مصنفاته ، وعرض نوادره وفكاهاته

تأليف

حسن السندوبي

مؤلف كتاب «أعيان البيان» و «الشعراء الثلاثة» و «ديوان امرىء القيس»
وشارح كتاب « البيان والتبيين » و « المفضليات » و « المقابسات »

الطبعة الأولى

القاهرة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتب الله لك السعاده وأمدك منه بالحسنى وزياده ، وجنبك أسباب الشقاء ، وكفاك مكايد الأعداء ، وأرشدك إلى ما فيه الخير ، ومهد لك سبل الاحسان والبر ، وملأ قلبك باليقين ، وحال بينك و بين الضالين والمعاندين ؛ وجعل الحق شعارك ، والصدق دثارك ، وباعد بينك و بين الخطل ، وأقالك من مهاوى الزلل ، حتى لاتنطق إلا بالصواب ، ولا تصدر إلا بالحكمة وفصل الخطاب . كان لنا منذ عهد الطلب ولع شديد بكتاب « البيان والتبيين » ، وكنا لانعرف من أمر الجاحظ إلا أنه من العلماء الذين يُنْدَبُ الترضى عنهم والترحم عليهم . فلما أتيح لنا الإطلاع على ما ترجم له من سيرة انفتح لنا خَصَاصٌ من النور كان على ضئولته مغرياً لنا بالاستزادة منه . فطلبناه فى مظانه من كتب السير وأسفار الأخبار ودواوين التاريخ ، فكنا كلما أمعنا فى التتبع استنار لنا الطريق ، واتسعت الرغبة ، وما كنا نعثر من ذلك إلا على النبذة تتلوها النبذة ، لاتبرد غُلة ، ولا تشفى علة ، ولا تنقع بلة . غير أننى كنت أجمع من ذلك ما تفرق ، وأولف بين حزائق ما تمزق ، وأضم الإلف إلى إلْفه ، والشِّبه إلى شِبهه ، إلى أن صار لدىّ من أحوال أبى عثمان الجاحظ وأخباره الشىء الكثير . فلما كانت سنة ١٩٢٦ وقام فى نفسى أن أضع على كتاب « البيان

والتبيين » تعليقات وحواشي تبين بعض غوامضه ، وأخذت فى تصحيحه وضبطه لنشره بالطبع ، رأيت أن أصدره بخلاصة فى ترجمة الجاحظ ، ولكن المقام لم يكن إذ ذاك مقام بسط و إيضاح ، فجاءت على غير مايجب من حق الجاحظ ، أوما يشبع نهمة الأديب الفائق ، ويملأ نفس الأريب الحاذق ، و إن كانت فوق كفاية المتأدب الشادى . ألممت فيها إلماماً ، ولم استقص فيها استقصاء .

ولما انتهيت من كتاب البيان والتبيين ، وظهر بالطبع فى ذلك الحين إتسع أمامى المجال ، وعثرت على مواد جديدة لم تكن فى متناول يدى من قبل : فرأيت حقاً علىّ — وللجاحظ عندى حقوق — أن أفرد له كتاباً خاصاً أبسط القول فيه، وأتناول كل ناحية من نواحيه ، وأبين ما له وما عليه وأوضح مسائله ، وأحل مشاكله ، وأدفع عنه غوائل خصومه ، وأُحِقّ من قولهم فيه الحق وأبطل الباطل ، وأفصل منهجه فى الأدب ، كما أعرف مذهبه فى الاعتزال ، ومسلكه فى العلم والفلسفة، وأطلق القلم فى وصف خصائصه ومميزاته ، ولا أزال أتتبع حياته حتى النهاية .

على أنه لم يقف بى الأمر من ذلك عند هذا الحد ، بل رأيت اختيار طائفة ممتازة من رسائله ومقالاته ، وآرائه ومروياته ، المنبثة فى مؤلفاته المنشورة بالطبع ، أو فى مصنفات غيره مما هو من شأنه ومما يدور حوله ، فأثبتها فصلا قائماً برأسه فى نهاية هذا الكتاب حتى لا أترك لباحث أمنية ، ولا لأديب بغية ، ولا لأريب مطلباً ، ولا لمنقب مأرباً ، إلا جئت من ذلك بالقدر الذى سمح به الوقت وواتت به الحال .

وكان من حسن معونة الله وجميل رعايته ، أن وفقني إلى العثور على طائفة صالحة من آثاره التي لم يسبق لها عهد بالنشر والذيوع بالطبع ، فأعملت فيها العقل والقلم ، مصححاً فاسدها ، مقوما معوجها ، محرراً ما شاع فيها من تصحيف النساخ ، وتحريف المساخ .

ولم أر الاستئثار بهذه الآثار ، أو الضن بها على أهل الأدب في الأمصار ، بل آثرت ، خدمة للعلم والأدب ، أن أذيل هذا الكتاب بما رأيته صالحاً منها.

وفوق هذا فلم أترك علما من الأعلام التي ورد لها ذكر في هذا الكتاب إلا عرفت به ، مترجماً إياه على مقتضى المقام ، متحرياً ما استطعت تاريخ ميلاده ، مثبتاً وقت وفاته . وناهيك بذلك كله من عمل شاق ، وجهد ممض .

وقد أسميته « أدب الجاحظ » ليجمع بين المعنيين : معنى الاسلوب الذي تثقف به ، ومعنى الثقافة التي اختص بها واستقل بأعبائها

والله أسأل دوام التوفيق إلى كل عمل صالح وصنيع مفيد ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

حسن السندوبي

القاهرة في { ٤ صفر ١٣٥٠ هـ
٢٠ يونيه ١٩٣١ م

تمهيد
فى
مناهج الكتاب فى تراجم الرجال

لِكُتَّاب الإفرنج فى تدوين تراجم رجالهم ، وتحرير حياة نوابغهم ، وتحليل سير أفرادهم ، وتخليد ذكرى أبطالهم ؛ أسلوب خاص تفردوا به ، والتزموا السير على منهاجه ، والضرب فى أنحائه وفجاجه ، قل أن يُعنى به كاتب من كتاب العربية ، وشذ أن يُلم بما فيه من دقائق ، ونَدَّ أن يحوم حول ما تضمنه من غوامض . وذلك أننا نرى الكاتب الأوربىّ يحاول فيما يتناوله من شؤون نابغه الذى يعرض للكلام عليه — سواء أكان ذلك النابغ فيلسوفا ، أم كان عالما ، أم كاتبا ، أم شاعرا ، أم كان بطلا من أبطال الحرب ، أم رجلا ممتازا بضرب من ضروب الحياة — أن ينتزع مما صار إليه شأن مترجمه فى شيخوخته وفى مبدإ اكتمال أيامه ، صورةً مما كان عليه فى طالعة أمره ، ومستهل نشأته ، ومبدأ طفولته . فيحمل نفسه فى هذا السبيل من صنوف العنت فى التمحل ، وألوان الإحتيال فى الاختلاق ، ما كان فى غنى عن كثير من أمثاله . إذ تراه لأقل ملابسة ولأدنى خاطرة ، يُنشئ فى وهمه خيالا يُلبسه ألوانا من دلائل طفولته ، ويَعرضه فى أطوارٍ لا عهد له بها ، متنقلا به من الطفولة إلى اليُفوعة ، ومن المُراهقة إلى الفُتوة ، ومن الشُّبوبة إلى الشيخوخة . مسترسلا فيما كانت تدل عليه حركاته فى هاته الأطوار ، وما كانت تشير إليه تقلباته وتُنتجه سكناته فى أثنائها ، من حدة فى الذكاء ، أو خمود

فى القريحة ، أو توسط فى الفطنة، أو بلوغ الغاية فى طبقات الألمعية . ثم يرسل على هذه التحولات التى تخيلها أشعةً من أوهام فِراسته ، مُلحاً فى أن يبسط عليك إرادته ليقنعك ما استطاع ، بأن بُداءة أمر مترجمه كانت تدل بكل معانى الدلالة على ما انتهى إليه شأنه من بُعد الصيت وذُيوع الذكر ، وما احتازه من النبوغ والتفوق فيما انتحاه من أعمال الحياة

هؤلاء الكتاب وأمثالهم ومن يحذون حذوهم ، ويضربون على أوتارهم، لا أستطيع أن أُومن بكثير مما يعرضونه على قرائهم ، من التغلغل فى خفايا هذا الشان ، وأحسبه من موارد خيالاتهم ومنتجات أوهامهم ، إذا أرادوا به أن يصوروه فى صورة الحقائق الثابتة . أما اذا قصدوا به التسلية والتلهية ، أو العبرة والعظة ، فلا ضير فى ذلك ولا تثريب . وقد ألتمس لهم شيئاً من العذر فى هذا المنحى لافتقارهم إلى ما غَنِيَ به كتاب العربية من الرواية والسند . وعلى الخصوص قبل أن توضع للتربية أصول وقواعد ، وقبل أن تصير مراقبة الطفل منذ عهده بالميلاد فنا منظما من الفنون ذات الشأن والخطر

أما كتَّاب العربيـة ، فهم على الرغم من استغنائهم بالرواية المسندة ، واحتفال موادهم بالحديث المسلسل ، قلما حفلوا من أمر رجالهم الذين يعنون بترجمتهم إلا بما قد يكون عرف عنهم من تقدم أو تخلف ، ومن تفوق أو توسط ، فيما انتحاه كل منهم من مناحى الحياة ومراشدها ، سواء أكانت علمية أم فنية أم صناعية ولا يكون ذلك إلا بعد الاستحكام وعض الناجذ . وإلا بعد أن تتكوّن الملكة ، وتقوى المُنَّة ، وتظهر الموهبة فهم فى غالب شأنهم ، لا يعرضون لشئ من ماضى نوابغهم الذين ينتوون التعريف بهم إلا بسند متصل ، أو رواية مأثورة ، أو حديث مدوّن . فهذا ما مضى عليه أولهم وتابعهم عليه آخرهم

أما المنهج الذى وضعته نصب عينى فى دراسة الجاحظ ، وفيما أثبته ههنا من شأنه ، فهو الاعتماد على المصادر المذكورة فى آخر هذا الكتاب، وعلى غيرها من المطالعات فى شتى الأسفار . مما شذ عن الذاكرة إحصاؤه ،ونبا عنها استقصاؤه . وعلى ما استنتجته من مؤلفات الجاحظ ، وانتزعته من دلائل أغراضها ومعانيها . وبهذا أود أن أكون فى مقام وسط بين عُدّة كُتَّاب العربية ، وبين تزيد كُتَّاب الفرنجة . فلا أدعى أننى أعرض مالم يكن ، فى معرض ما يكون ، ولا أحاول النفوذ إلى علم الغيب أستخرج منه المستور وأكشف المكنون ، ولكنى سأكون فى هذا الكتاب مؤرخاً نَظَّاراً ، وباحثا نَقَّاباً . أبهرج الزائف وأظهره على حقيقته ، وأؤيد الصحيح وأقره فى منزلته ، مادام ذلك كله لا يخرج عن حد العقل ونطاق الإمكان .

الفصل الأول

فى

أصل الجاحظ ونسبه وجنسه ولقبه

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة ، الليثى الكنانى ، وقد زعم بعض الرواة أنه كان مولى لأبى القَلَمَّسِ عمرو بن قِلَع الفُقَيْمِي النَّسَّاء . وكان إلى هذه الأسرة نسء الشهور فى الجاهلية (١) وكان القلمس

(١) كان أول من نسأ الشهور على العرب فى الجاهلية ، فأحل لهم منها ما أحل، وحرم عليهم منها ما حرم « القلمس » وهو حذيفة بن عبد بن فقيم الكنانى . ثم قام من بعده على ذلك ولده « عباد » بن حذيفة . ثم قام على أثره ولده « قلع » بن عباد ، ثم « أمية » بن قلع ،ولعله هو المسمى فى الأصل عمرو بن قلع وكان يكنى بأبى القلمس . ثم « عوف » بن أمية . ثم « أبو ثمامة جنادة » بن عوف . وهو آخرهم فى هذا الشأن، وعليه قام الاسلام . ويروى أن أبا ثمامة جنادة بن عوف أسلم وحضر الحج فى زمن عمر فرأى الناس يزدحمون على الحجر الأسود فنادى : أيها الناس إنى قد أجرته منكم ! فخفقه عمر بالدرة وقال له : ويحك ، إن الله قد أبطل أمر الجاهلية ؟ . وكان الواحد من هؤلاء النسأة يقف فى الموسم قبل الاسلام عند جمرة العقبة وحوله قبائل العرب ويقول : اللهم إنى ناسىء الشهور وواضعها مواضعها . لا أعاب ولا أحاب ، اللهم إنى قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر (يعنى محرم وصفر) وكذلك فى الرجبين (يعنى رجب وشعبان) إنفروا على اسم الله. وقد أشير إلى هذا الحدث فى القرآن الكريم « إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما » والنسيء فى اللغة التأخير

من حكام العرب وذوى الرأى فيهم والرُّجحان عندهم . وكان يحلل من الشهور ما يشاء فتحِل ، ويحرم منها ما يريد فتحرم . كذلك كان بنوه من بعده . وما كان فى العرب من يقف لأحد منهم فى هذا الشأن ، أو يخالفه فيه .

ففى هذه الأسرة الماجدة نشأ أصل الجاحظ وتوشجت أعراقه ، و إليها كان انتماؤه وانتماء آبائه وأجداده . ولعل أول من عرف منهم فزارة الذى قيل إنه كان جمالا لأحد رؤسها . قال يَمُوتُ بنُ الْمزَرَّعِ [1] — وكان الجاحظ خال أمه ، لا كما قيل من أنه كان خاله — : كان فزارة جد الجاحظ أسود ، وكان جمالا لعمرو بن قِلَع الكنانى .

ومن هنا قد يتطرق الشك إلى الأذهان فى عربية الجاحظ وأسرته — وخصوصاً لما زعمه بعض الرواة من ولائه لأبى القلمس الكنانى — و يفتح باب التظنى فى جنسيته ، فيلجه عليه الشُّعوبىُّ ومقلده ممن لا يرون للعرب فضيلة يمتازون بها على غيرهم من الأمم . وقد يَعرض هذا السؤال : هل كانت أسرة الجاحظ عربية سامية ، أم كانت من العناصر الأفريقية التى تداخلت فى العنصر العربى بعامل الجوار وما يستتبعه ؟ وهل وقع على أحد من أسلافها الرق أو الإسار ، أم تناسلت على الحرية السليمة من الشوائب والأكدار ؟

أما جوابى على هذا فهو : إن السواد لا يصح أن يؤخذ دليلا على نفى العروبة فقد كان هذا اللون شائعاً فى العرب. بل ربما عد مما كانت تفخر به ،

(١) هو أبو بكر محمد بن موسى بن سيار العبقسى البصرى . غلب عليه اسم « يموت بن الزرع » و بهذا الاسم اشتهر . كان الجاحظ خال أمه . وكان من مشايخ العلم والأدب، قيما بالأخبار، حسن الشعر . أخذ عن الجاحظ وأبى عثمان المازنى وغيرهما . دخل بغداد ثم قدم مصر سنة ٣٠٣ هـ ثم ذهب إلى دمشق و بها كانت وفاته سنة ٣٠٤ هـ

وكثيراً ما كانت تُعجَب به وتؤثره على غيره من الألوان الأخر ، وتصفه بالخضرة، وتنعت الخضرة به . ومن مذكورى السود فيهم ، الأغربة ، وهم : عَنْتَرَةُ (١) وخُفَافُ بنُ نُدْبَةٍ (٢) وأبو عُمير بن الحُباب (٣) والسُّلَيْكُ ابن السُّلَكَة (٤) وهِشامُ بن عُقْبَةَ (٥) وعبد الله بن خازِم (٦) وعُمير ابن أبى عُمير ، وهمَّامُ بن مُطَرِّفٍ (٧) ومُنْتَشِرُ بنُ وَهْبٍ (٨)

(١) هو عنترة بن شداد العبسى الفارس الشاعر المشهور ، كانت أمه أمة حبشية تدعى زبيبة مات سنة ٦١٥ م

(٢) هو أبو خراشة خفاف بن عمير السلمى . كانت أمه ندبة عربية إلا إنها كانت سبية ، وإليها كان ينسب . وكان فارسا شاعرا بعيد الذكر . أسلم وشهد حنينا والفتح وكان إليه لواء بنى سليم . وهو من خيار الصحابة . مات فى خلافة عمر

(٣) هو أبو عمير بن الحباب . كان فارسا مغوارا وشاعرا فحلا . وكان من رجال مصعب بن الزبير . أغار على قبائل كلب وأنكى فيها ثم قتلته تغلب وثأر له زفر بن الحارث

(٤) هو السليك بن السلكة . كان من مغاوير الشجعان ومن فحول العدائين الذين يسبقون الخيل عدوا . قتله أنس بن مدرك الخثعمى

(٥) هو هشام بن عقبة بن أبى معيط . ولاه عمر بن عبد العزيز على أعمال قنسرين

(٦) هو أبو صالح الأمير عبد الله بن خازم السلمى . كان من الأبطال الشجعان . فتح الفتوحات الجليلة وولى الأعمال العظيمة لبنى أمية . ولى خراسان عشر سنين وفتح الطبسين ثم ثار به جند خراسان من العرب بقيادة وكيع ابن الدورقية فخر صريعا فى المعركة سنة ٥٦ هـ ٦٧٥ م

(٧) هو همام بن مطرف العقيلى . كان على صدقات بنى عامر أيام كان مروان بن الحكم واليا على المدينة من قبل معاوية

(٨) هو منتشر بن وهب أخو أعشى باهلة . كان فارسا شجاعا صاحب غارات فى الجاهلية . قتله هند بن أسماء الفزارى . وللأعشى فيه مرثية من أبلغ المراثى

ومَطَرُ بن أوْفى (١) وتأبَّط شراً (٢) والشَّنْفَرَى (٣) وحاجزُ (٤) — وإنما لقبوا بالأغربة لأن أمهاتهم كُنَّ إماء — فسواد فزارة جد الجاحظ لا يعد دليلا على نفى العروبة عنه. وأما الرق فلم يرد عن أحد من الرواة والنسابين وأصحاب الأخبار أنه وقع على أحد من أجداده. وكذلك الإسار، فانه لم يُصِبْ أحدا منهم. ولا عبرة بوصفهم بالولاء لآل فقيم، فليس الوصف بالولاء مما ينفى الحرية، فالولى عند العرب: المحب، والصديق، والنصير، والمولى، والعبد، والمعتِق، والمعتَق، والصاحب، والقريب — كالعم، وابن العم، والإبن، وابن الأخت — والحليف، والنزيل، والشريك، والولى، والرب، والناصر، والمنعِم، والمنعَم عليه، والتابع، والصهر. وقد تكون قبيلة عربية صريحة النسب مولاةً لقبيلة أخرى عربية

وأما قيام فزارة على إبل عمرو بن قِلع، فهذا إن دل على شئ فليس يدل إلا على أنه كان يحسن القيام عليها، ولهذا استكفاه مولاه عظيما من أمره. نعم إن الجاحظ قد ذكر فى كتابه «الحيوان ١٣٤ ج ٣» أن أصحاب الإبل يرغبون فى اتخاذ النوبة والبربر والروم للابل، يرون أنهم يصلحون على معايشها وتصلح على قيامهم عليها. ولكن ذلك لم يكن عاماً فى سائر

---

(١) هو مطر بن أوفى. كان شجاعا أيدا ذا بأس وقوة

(٢) هو ثابت بن جابر. تأبط شرا. كان من أشجع العدائين صاحب غارات ونكايات فى أحياء العرب. وكان أبو كبير الهذلى زوج أمه وله فيه شعر

(٣) هو الشنفرى الأزدى. كان شجاعا بطلا ذا غارات. وكان من أشهر العدائين، وهو شاعر مشهور له لامية العرب

(٤) هو حاجز بن عوف الأزدى. شاعر جاهلى مقل. وهو أحد العدائين المغاوير

العرب ، وما هى إلا رغبة إن حصل عليها بعضهم ، فليس فى الإمكان أن يبلغها كلهم . وقد كان فى مقدور الجاحظ أن يشير فى هذا المقام إلى عنصر جده، إن كان به دم يمت بشبهة نسب إلى أحد هاتيك العناصر الثلاثة . والجاحظ أحكم من أن يبرأ من أصله، وأعقل من أن يغمر جنسه . وأخرى فلو كان فى دم الجاحظ شئ ، قليل أو كثير، من دم الأجناس غير العربية لرأيناه فى رأس الشعوبية الذين لا يرون للعرب شيئاً ولا يعترفون لهم بفضل ، وهاهو أستاذه أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى [١] كان رأساً فى الشعوبية. ولكنا نرى الجاحظ فى كتبه وفى كل ماروى عنه ، شديد العصبية للعرب، لا يرى فضيلة فى أمة إلا ويروى أكبر منها لهم . لا بل هو لا يرى أمة من أمم الأرض تَفْضُلُ الأمة العربية بأي خَصلة من خِصال الخير والنُّبل ، وما من مزية من مزايا الانسانية، إلا والعرب أسبق الأمم إليها وأخصهم بها

ومع هذا كله فقد قطع المحققون بأن الجاحظ كان كنانيا صليبة ، يعنى أنه كان خالص النسب ، عريق الأصل فى العرب . وممن قرر ذلك أبو القاسم البلخى [٢] وابن حزم [٣] إذاً فهو عربى ، من سلالة عربية ، نشأ فى بيت

---

(١) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى : كان مولى لتيم قريش. وكان عظيم الدراية واسع الرواية إخباريا نسابا عالما بأحوال العرب . وكان شعوبيا وضع كتابا فى مثالب العرب . وكان يرى رأى الخوارج . عاش حوالى مائتى عام فيما قيل. ومات سنة ٢١١ هـ

(٢) هو أبو القاسم عبد الله بن احمد بن محمود الكعبى البلخى . كان من أكابر المتكلمين ومن رؤس المعتزلة . انفرد بمقالات خاصة تابعه عليها قوم فلقبوا بالكعبية ، وله كتاب فى تاريخ المعتزلة . توفى سنة ٣١٧ هـ

(٣) هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم . فارسى الأصل أندلسى الميلاد والنشأة .صاحب التصانيف الكثيرة فى الحديث والفقه والجدل. ومن أشهر مصنفاته كتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ولد بقرطبة فى رمضان سنة ٣٨٤ وتوفى سنة ٤٥٦ هـ

من أجل بيوتات العرب ومن أعرقها فى المجد والشرف .

أما لقبه «الجاحظ» فقد جاءه من قِبَل أنه كان مشوه الخلق، جاحظ العينين. أى بارزهما . وربما لقب «بالحدقى» أيضا ، لأنه كان ناتىء الحدقتين . وليس هذا مما يعيبه مع علمه وفضله وبارع أدبه . فكثير من العظماء كان مثله أو أكثر منه دمامة وتشويها . فهذا سقراط [١] شيخ الفلاسفة الأقدمين ، قد كان مشوه الخلق ، جاحظ العينين ، أفطس الأنف ، ضخم الشفتين . وبالجاحظ بعض هذه العيوب . ومع هذا فقد عُدل به عن اسمه الأصلى «عمرو» وعن كنيته «أبى عثمان» واشتهر بهذا اللقب المنتزع من أقبح شىء فى خَلقه .

والظاهر أن الجاحظ كان لا يعجبه أن يدعى بهذا اللقب ، وكان يتبرم بمن يدعوه به . ولهذا كان يجهد نفسه فى أن يقرر فى أذهان الناس أن اسمه «عمرو» وأنه يحب أن يدعى بهذا الاسم ، وأن اسم «عمرو» أرشق الأسماء وأخفها وأظرفها وأسهلها مخرجا . وكان يسميه «الاسم المظلوم» لأنهم ألزقوا به الواو التى ليست من جنسه ولا فيه دليل عليها ولا إشارة إليها . وكان يقول : إن هذا الاسم لم يقع فى الجاهلية والاسلام إلا على فارس مذكور ، أو ملك

(١) هو سقراط فيلسوف اليونان القدماء كان أبوه نحاتا وأمه قابلة . وكان ذا مواهب فاضلة سمت به إلى ذروة المجد النفسى . لم يؤلف كتابا ولم يضع مصنفا ، بل سرت تعاليمه من نفوس تلاميذه مسرى الكهرباء ، فخلد فيهم مجده ، وعنهم انتشرت فلسفته . ولد بأثينا سنة ٤٦٩ قبل الميلاد ، وكانت وفاته بالسم بحكم القضاء الخاطىء سنة ٣٩٧ قبل الميلاد

مشهور، أو سيد مطاع، أو رئيس متبوع. أمثال: عمرو بن هاشم [١] وعمرو بن سعيد الأكبر [٢] وعمرو بن سعيد الأشدق [٣] وعمرو بن العاص [٤] وعمرو بن حُممة [٥] وعمرو بن يحيى بن قُمْعة، وعمرو بن معديكرب [٦] وعمرو بن عبدود [٧] وعمرو بن الشريد [٨] وعمرو

(١) هو عمرو بن عبد مناف، وهو هاشم جد النبي عليه الصلاة والسلام. وقد مات بغزة من أرض فلسطين حين ورد اليها فى تجارته، وبه سميت غزة هاشم

(٢) هو عمرو بن سعيد بن العاص: كان من أكابر رجالات بنى أمية، وكان من مهاجرة الحبشة. قتل بأجنادين بالشام فى خلافة أبى بكر سنة ١٣ هـ

(٣) هو عمرو بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص. وقد لقبه معاوية بالأشدق حين رآه على صغره فصيحا بينا. كان من فحول بنى أمية وعظمائهم، وكان ينازع عبد الملك بن مروان الخلافة فاغتاله عبد الملك وتخلص منه سنة ٧٠ هـ

(٤) هو الأمير عمرو بن العاص الفاتح العظيم والسياسى المحنك والداهية الدهياء. فتح مصر وقهر جيوش الروم. وعاون معاوية على على فى حروبه. وتوفى بمصر سنة ٥١ هـ ودفن بجبل المقطم فى ناحية الفخ وكانت طريق الناس الى الحجاز

(٥) هو عمرو بن حممة الدوسى. كان فى أول أمره شجاعا باسلا، ثم صار سيد قومه. وهو أحد من كانت تتحاكم إليه العرب. وفى رواية ابن عباس أنه قضى بين العرب ثلاث مائة سنة. وهو أول من حكم فى الخنثى باتباع المبال. وفى بعض الروايات، أنه وفد على النبى صلى الله عليه وسلم. ولما مات رثته الشعراء بمراث جيدة

(٦) هو عمرو بن معدى كرب: البطل المقدام ذو الغارات والمعارك فى الجاهلية والاسلام توفى بعد فتح نهاوند سنة ٢٠ هـ

(٧) هو عمرو بن عبد ود: رأس الأحزاب وقائدها. قتله على بن أبى طالب يوم الخندق

(٨) هو عمرو بن الشريد: والد الخنساء وكان من سادات العرب وشجعانهم الأبطال

ابن الحَمِق[١] وعمرو بن عبيد[٢] وعمرو بن قائد[٣] .

ولعل الجاحظ كان يريد أن يقول فى إثر ذلك : فلم لا يدعونى الناس «عمرو بن بحر» بدل هذا اللقب البغيض ... ؟ وله الحق فى ذلك . فما من انسان كائنا من كان إلا وهو يبغض من يدعوه بلقب ، ولا سيما إذا كان هذا اللقب يشير إلى عيب فى صاحبه إن خَلقا وإن خُلقا

ولو علم الجاحظ أن لقبه هذا سيكون فيما بعد عصره نعتا من أجل النعوت ، وأنه سيكون صفة من أشرف الصفات التى عمل الكثيرون من عظماء الرجال وأكابر الرؤساء ، وخواص أهل الفضل ، على أن يكون لهم شرف الانتساب إليه ، ومجد الاتصاف به — لسره من لقبه أكثر مما أعجبه من إسمه . فقد أصبح هذا اللقب شعار مدرسة جامعة ، ودليلا على التبحر فى العلوم والتوسع فى الآداب والتفوق فى فنون البلاغة وصنوف البيان . فهذا أبو زيد أحمد بن سهل البلخى[٤] ، وناهيك به من فيلسوف حكيم ، كان ينعت « بجاحظ

(١) هو عمرو بن الحمق : من خزاعة ، أسلم بعد الحديبية وله صحبة . وكان من شيعة على ، ذا بأس وشدة . أقام بالشام ثم بالكوفة ثم قدم مصر . جاوز الثمانين من عمره ، ثم قتل يوم الحرة سنة ٦٣ هـ وحمل رأسه الى معاوية وهو أول رأس حمل فى الاسلام من بلد إلى بلد

(٢) هو عمرو بن عبيد بن باب الزاهد العابد الناسك شيخ المعتزلة وامامهم ، وقد كتبنا له ترجمة ملخصة ونشرناها فى جريدة السياسة الأسبوعية وسترى له ترجمة مستفيضة فى كتابنا « شيوخ المعتزلة ومذاهبهم » الذى سننشره بالطبع قريبا . ولد سنة ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٤٤ هـ

(٣) هو أبو على عمرو بن قائد الأسوارى . أخذ عن أبى الهذيل العلاف ثم عن أبى اسحق النظام . وكان رأس فرقة من المعتزلة . وله آراء ومقالات خاصة

(٤) هو أبو زيد البلخى . راجع ما كتبناه عنه فى كتاب المقابسات ص ١٤٨

خراسان » وهذا أبو الفضل ابن العميد [١] ، وشَرْعَكَ من وزير عليم كان يرتاح الى من يصفه « بالجاحظ الثانى » وهذا أبو حيان التوحيدى [٢] ، وهمكَّ من كاتب بليغ ، كان ينازع ابن العميد صفة « الجاحظ الثانى » وهذا محمود بن عزيز [٣] ، وحسبك من عالم جليل ، كان ينعت « بالجاحظ الثانى » . وهذا أبو محمد الحسن بن خلاد القاضى الرامهرمزى [٤] . قال عنه ابن النديم : انه كان حسن التأليف ، مليح التصنيف يسلك طريقة الجاحظ . وذكر له عدة مؤلفات . وهذا أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى [٥] . قال عنه ابن النديم : إنه مليح التصنيف ، جيد التأليف . يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب . وذكر له عدة مصنفات . وهناك غير هؤلاء ممن لم تسع الذاكرة أسماءهم كلهم كان يود بجدع الأنف الانتساب فى المعارف والآداب والبلاغة والبيان إلى الجاحظية الأدبية . فاسم الجاحظ عنوان على مدرسة جامعة فى فنون العلوم وصنوف الآداب وألوان البلاغات

---

(١) هو ابو الفضل بن العميد : راجع ما كتبناه عنه فى كتاب المقابسات ص ٦١ .

(٢) هو ابو حيان التوحيدى : راجع ما كتبناه عنه فى أول كتاب المقابسات .

(٣) هو ابو القاسم شمس المشرق محمود بن عزيز العارضى الخوارزمى . كان من أفاضل الناس فى عصره جمع بين الأدب واللغة والمنطق والفلسفة والفقه والنظر والخلاف والحديث . وكان كاتباً بليغاً ذا افتنان . وكان فى خدمة خوارزم شاه مكرماً مبجلا . ثم فارقه إلى مرو . وكان الزمخشرى من المعجبين بفضله وسعة معارفه وكان يدعوه « الجاحظ الثانى » لكثرة حفظه وفصاحة لفظه . احتقر الدنيا ومل الحياة فذبح نفسه بيده سنة ٥٢١ هـ ووجد بخطه رقعة فيها « هذا ما عملته أيدينا فلا يؤاخذ به غيرنا » .

(٤) هو القاضى أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد . وكان مع قيامه بشؤون القضاء يضرب بسهم نافذ فى الأدب وله شعر حسن ونثر جيد . مات فى حدود سنة ٣٦٠ هـ

(٥) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى صاحب كتاب الموازنة بين الطائيين كان جيد الفهم حسن الدراية بارع الادب . مات سنة ٣٧١ هـ .

الفصل الثانى

فى

تحقيق مولده ومنشائه ، وهل كان محدثا ؟

للرواة والمؤرخين خلاف فى مولد الجاحظ ، فمنهم من زعم أنه ولد فى سنة ١٥٩ هـ ، ومنهم من يرى غير ذلك ، لكن الذى لايصح أن يشك فى صدقه أو يرتاب فى صوابه ، ماقرره هو عن نفسه ، ونقله الينا ياقوت (١) فى معجمه

---

(١) هو شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الرومى . أسر صغيراً من بلاده وابتاعه رجل من تجار بغداد فعلمه وثقفه ورباه ودربه على التجارة فكان كثير الأسفار ، طوافا فى الأمصار ، معنيا بطلب التجارة والكسب وبعد أن مات سيده استقل بالعمل وحده وأضاف الى أعماله الاتجار بالكتب . وكان كثير المطالعة مشغوفا بها . ومن أشهر مؤلفاته كتاب « ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب » المعروف « بمعجم الأدباء » وقد كان مطمورا فى زوايا المكاتب فعثر على بعضه العالم المستشرق الانجليزى الجليل المستر مرجليوث ونشر منه أجزاء بالطبع جزاه الله خيرا . وله كتاب « معجم البلدان » طبع فى أوربا منذ زمن وأعيد طبعه فى مصر سنة ١٩٠٦ وألحقه طابعه أمين أفندى الخانجى بمستدرك أسماه « منجم العمران » . وله غير هذين كتب كثيرة غير معروف إلى الآن عنها شىء . وكان مولده ببلاد الروم سنة ٥٥٥ هـ وتوفى سنة ٦٢٦ هـ

فقد روى أنه قال : أنا أسن من أبى نُوَاسٍ (١) بسنة ، ولدت فى أول سنة ١٥٠ﻫ (٧٦٧ م) وولد فى آخرها . . . وليس بعد هذا نص يعتد به فى هذا الشأن

ومن الغريب أن ابن خلكان (٢) يروى فى كتابه عن أبى بكر الخطيب البغدادى (٣) أنه ذكر أبا نواس فى تاريخه الذى وضعه لبغداد وقال: إن ميلاده (يعنى أبا نواس) كان فى سنة ١٤٦ . وهذا لايصح الأخذ به أو الاعتماد عليه بعد نص الجاحظ عن نفسه وعنه

وقد كان ميلاد الجاحظ بالبصرة فى ذلك التاريخ ، وقد مضى على تأسيسها ١٣٦ سنة ، فقد أسسها الأمير عتبة بن غزوان (٤) بأمر الخليفة عمر

---

(١) هو الحسن بن هانىء الحكمى الشاعر الأشهر المعروف بأبى نواس ولد سنة ١٥٠ وتوفى سنة ١٩٨ وهو أشهر من أن يعرف ههنا

(٢) هو القاضى أبو العباس شمس الدين أحمد بن ابراهيم المعروف بابن خلكان صاحب كتاب « وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان » وهو كتاب شهدت شهادة عدل أن مؤلفه كان من أكابر الأدباء وأفاضل الكتاب وفحول البلغاء ولى التدريس والقضاء بمصر والشام زمنا . وكان على جلالة قدره ميالا إلى اللهو والمجون وكان مولده بمدينة إربل سنة ٦٠٨ ﻫ وتوفى بدمشق ودفن بسفح قاسيون سنة ٦٨١ ﻫ

(٣) هو أبو بكر أحمد بن على البغدادى الخطيب الحافظ المؤرخ الشهير كان من الحفاظ المتفننين والعلماء المتجرين ، وكان واسع الاطلاع إلى الغاية التى لا ترام . وله كتاب تاريخ بغداد وقد شرع فى طبعه بمصر الآن ولد فى بغداد سنة ٣٩٢ ﻫ وتوفى سنة ٤٦٣ ﻫ

(٤) هو عتبة بن غزوان بن الحارث المازنى . صحابى من المهاجرين الأولين هاجر إلى المدينة وهو فى سن الاربعين . وكان رجلا طوالا شجاعا جيد

ابن الخطاب[1] فى سنة ١٤ هـ . وبعد أن مضى على تأسيس الكوفة ١٣٣ سنة ، فقد أسسها الأمير سعد بن أبى وقاص[2] بأمر الخليفة عمر ابن الخطاب فى سنة ١٧ هـ . وبعد أن مضى على إنشاء بغداد أربع سنين ، فقد وضع أبو جعفر المنصور[3] ثانى الخلفاء العباسيين قواعدها فى سنة ١٤٦ هـ

الرماية . شهد بدرا ، وفتح الابلة ، واختط البصرة وبنى مسجدها فى عهد عمر ابن الخطاب . توفى فى طريق مكة سنة ١٧ هـ

(١) هو الامام العظيم عمر بن الخطاب الذى أعز الله به الاسلام، ووفقه الى الفتوحات الجسام ، وشد أركان ملكه بالعدل والانصاف ، وباعد بينه وبين الجور والاعتساف . ولسنا نحاول هنا ترجمته فهذا شىء فوق المرام ، كانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال . طعنه الفاتك فيروز أبو لؤلؤه غلام المغيرة بن شعبة سنة ٢٣ هـ فمات عن خمس وخمسين سنة

(٢) هو القائد الباسل العظيم سعد بن مالك بن أهيب بن أبى وقاص مزلزل أركان دولة الأكاسرة وصاحب الفتوحات العظيمة مات فى قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة وذلك فى سنة ٥٥ هـ وقد ناهز السبعين من عمره

(٣) هو الخليفة عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، أبو جعفر المنصور كان مولده بالشراة سنة ٩٥ هـ وبويع له بالخلافة بالأنبار يوم مات أخوه أبو العباس سنة ١٤٦ هـ وهو الذى مهد الخلافة العباسية بحزمه وعزمه ويقظته . قال محمد بن على العبدى الخراسانى الاخبارى فى وصفه : كان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس بن عبد المطلب وبين آل أبى طالب ، وقد كان قبل ذلك أمرهم واحداً ، وكان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى المنجم وأسلم على يديه — وهو أبو هؤلاء النوبختية — وابراهيم الفزارى المنجم صاحب القصيدة فى النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك ، وعلى بن عيسى الأسطرلابى المنجم . وهو أول خليفة

إذاً ولد الجاحظ والمصران — البصرة والكوفة — يَعُبّان بعمرانهما ، ويزخَران بوسائل الحياة فيهما ، ويتنافسان فى صنوف العلوم وضروب العرفان ، ويتباريان فى ميادين الفنون وحلبات الآداب ، ويدلان على سائر الأمصار الاسلامية بما خرجت حلقاتهما من رجال كانوا عدة اللغة العربية ، وأسناد آدابها ، وينابيع علومها ، ومفاخر فنونها ، وشموس معارفها . أما بغداد فقد كانت إذ ذاك لاتزال فى مهد الطفولة ، ولم يكن عمرانها قد استبحر ولم يكن عرفانها متسع النطاق ممتد الرواق ، إلا أنها كانت ، بعناية مؤسسها وأخلافه العظماء ، سريعة الخطى فى ميدان التقدم ، ناهضة فى معارج الشرف حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من التفوق فى الحضارة والعمران مما لم يجارها فيه أية مدينة أخرى فى العالم القديم

وكانت نشأة الجاحظ بالبصرة ، وظل بها عاكفاً على التعلم والدرس والإطلاع . كما كان مقصود الجانب للاستفادة من مناظراته ، والتفقه بمحاضراته

ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية ، منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند ، وترجمت له كتب أرسطاطاليس من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الأرتماطيقى وكتاب أقليدس وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية وخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا بها . وفى أيامه وضع محمد بن اسحق كتاب المغازى والسير وأخبار المبتدا ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنفة ، وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم فى مهماته وقدمهم على العرب فاتخذ ذلك الخلفاء من بعده من ولده فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها ، وأفضت الخلافة إليه وقد نظر فى العلوم وقرأ المذاهب وارتاض فى الآراء ووقف على النحل وكتب الحديث فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم . توفى سنة ١٥٣ هـ

وكان كثيراً ما يترك البصرة قاصداً غيرها من المدن الاسلامية المعروفة فى ذلك العهد للبحث والاستقراء ولقاء العلماء ثم يعود إليها مفعم الوطاب بصنوف العلوم وضروب الآداب . ولما جاوز الخمسين من عمره عَنَّت له الرحلة إلى بغداد واتخاذها دار إقامة له، وذلك فى عهد المأمون [١] الذى طار بها إلى أوج الرقى والعلاء . وكان دخوله إلى بغداد فى سنة ٢٠٤ ، وفى الوقت الذى قدم إليها المأمون فيه . وما هو أن استقر به المقام فيها حتى تصدر للتعليم والمناظرة والتأديب والمحاضرة ، فقصد إليه العلماء ، وأمه الأدباء ، وأقبل عليه الطلاب من كل صنف ومن كل جنس ، وعلى اختلاف الملل وتباين النحل . وكان

---

(١) هو عبد الله المأمون بن هرون الرشيد . كان من العلم والفضل فى المقام الأسمى ، بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ قال العبدى: ثم أفضى الأمر إلى المأمون فكان فى بدء أمره ــ لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره ــ يستعمل النظر فى أحكام النجوم وقضاياها، وينقاد الى موجباتها، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأزدشير بن بابك ،واجتهد فى قراءة الكتب القديمة وأمعن فى درسها وواظب على قراءتها، فافتن فى فهمها وبلغ درايتها ، فلما كان من الفضل بن سهل ذى الرياستين ما اشتهر، وقدم العراق فانصرف عن ذلك كله وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد (يعنى مذهب الاعتزالا) وجالس المتكلمين وقرب إليه كثيراً من الجدليين والنظارين كأبى الهذيل وأبى اسحق ابراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقهما وخالفهما. وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء، وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق فرغب الناس فى صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ووضع كل فريق منهم كتبا ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله . وكان أكثر الناس عفوا وأشدهم احتمالا وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم للعطايا وأبعدهم من التسفه ، واتبعه وزراؤه

يقول : كان الفراء[١] يجيئنى ويشتهى أن يتعلم شيئاً من علم الكلام فلم يكن له فيه طبع . أى أن الفراء لم يكن لديه استعداد لتفهم علم الكلام

وكان الظن أن الجاحظ لم يعن بعلم الحديث ، ولم يشغل نفسه بروايته وسنده ، ولكن الواقع أن الحديث كان من العلوم التى اضطلع بشأنها ، وتصدر لاقرائها ، والظاهر أن ذلك قد كان وهو بالبصرة وقبل مغادرتها إلى بغداد ، فقد ذكر الخطيب البغدادى فى « تاريخ بغداد » أن ممن أسند عنه الحديث أبا بكر بن أبى داود[٢] . قال ابن أبى داود : كنت بالبصرة فأتيت منزل الجاحظ فاستأذنت عليه فاطلع على من خوخة فقال : من هـذا ؟ فقلت : رجل من أصحاب الحديث ! فقال : ومتى عهدتنى أقول بالحشوية ؟ فقلت : إنى ابن أبى داود . فقال : مرحباً بك وبأبيك . ونزل يفتح لى وقال : أدخل ، إيش تريد ؟ فقلت : حدثنى بحديث ؟ فقال : أكتب . . . عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صلى على طِنْفِسَةٍ . وروى الخطيب عن عبد الله بن سليمان بن الأشعث[٢] قال : دخلت على الجاحظ فقلت له :

وأصحابه فى فعله وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه . وكان مع هذا كثير الغزو والفتوح . توفى سنه ٢١٨ هـ

(١) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمى النحوى الكوفى الشهير بالفراء وهو أحد أئمة العربية الذين يحتج برواياتهم . وكان دينا ورعا يحب الكلام ويميل الى الاعتزال . توفى بطريق مكة سنة ٢٠٧ هـ عن ٦٧ سنة

(٢) هو الامام الحافظ الكبير أبو بكر عبد الله بن أبى داود سليمان ابن الأشعث السجستانى كان عالما محدثا من أكابر العلماء وأهل الحديث سمع ببغداد وخراسان وأصبهان وسجستان وشيراز ، وله عدة مؤلفات فى الفقه والشريعة ونظم القرآن وغير ذلك فى العلوم والآداب . توفى سنة ٣١٦ هـ

حدثني ؟ فقال : أكتب . . . عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة

فأنت ترى أن الجاحظ لم يطعن على أهل الحديث ويصفهم بالحشوية إلا عن خبرة صحيحة ومعرفة تامة بحقيقة شأنهم -- إلا من عصم الله منهم — وقد كان في غمار رجالهم . وليس معنى هذا أنه كان يصف كل محدث بالحشو ولكنه إنما كان يعني بذلك من كان لا يفرق منهم بين الغث والسمين من صحاح الأحاديث ومعتلها ، وإلا فهذه كتبه حافلة بالكثير من الأحاديث المسندة إلى الرسول صلوات الله عليه

الفصل الثالث

فى

اساليب التعليم فى ذلك العهد ، وكيف تعلم الجاحظ

وقبل أن نعرض عليك كيف تعلم الجاحظ ، نأخذ بيدك ونقف بك على نظم التعليم فى تلك العصور وإبان ظهور الجاحظ . فقد رأينا بعد التحرى والتفقد والبحث والاستقراء أن التعليم العام كان متشابه الأعراف ، متماثل الأطراف . فقد كان الرجل يبعث بولده إلى كتاب الحى فيتعلم فيه مبادىء القراءة والكتابة ، ويشدو شيئا من قواعد النحو والصرف ، ويتناول طرفا من أصول الحساب ، ثم يستظهر كتاب الله الكريم استظهارا تاما مُجَوَّداً مرتلا ؛ وهو فى خلال ذلك يتردد مع أترابه على القاص فيسمع منه أحداث الفتوح ، وأنباء المعارك ، وأخبار الأبطال ، ومقاتل الفرسان ، ومفاخرات الشجعان ، وسير الغزاة والفاتحين ، ممزوجا ذلك بالمواعظ والعبر وإيراد أحوال الصالحين وأطوار الزهاد والنساك والمتقين . وبعد أن يأخذ من كل طرف من هذه المعلومات نصيبه الكافى يولى وجهه شطر حلقات الدرس بالمساجد العامة ، والمعاهد الجامعة ، والمدارس الخاصة . فيقوم من حلقة الفقيه إلى حلقة المحدث ، ومن مجلس اللغوى إلى سارية النسابة ، ومن حضرة الإخبارى إلى دارة المتكلم ، ومن معهد المنطقى إلى مجمع الفلسفى ، ومن محفل الأديب إلى قاعة المهندس ، ومن بين يدى المفسر إلى حظيرة الأصولى ، ومن غرفة الراوية إلى بيت

الشاعر ، ومن ديوان الكاتب إلى صاحب النجوم ، ومن الإسطرلابى إلى الجغرافى ، ومن مشهد الموسيقار إلى مقعد المغنى ، ومن عند الزمار إلى دكانة الوتار . الصبيان والبنات فى ذلك سواء ، وإن كانت الغالبية فى الصبيان دون أخواتهم . حتى السجون ، فقد كان لأهلها حظ من التعليم وكان لهم معلمون يدخلون إليهم فى أوقات معينة

وما دام الطالب فى طريق الطلب فقلما يُعنى له بتوجيه أو يعبأ له باعتراض مهما كان خطره فى أى درس من هذه الدروس، او تقيد له ملاحظة أنى علا شأنها فى أحد هاتيك المجالس . إلا من طريق التندر والتفكه ، وإن سلم من التقريع فقلما يسلم من التهكم والتجبية . وهو كلما استحكم له علم أو استوى له فن نال إجازته من شيخه ، ومتى حصل على إجازة حق له التصدر لإقراء علمها على من هم دونه من الطلاب . وكان كثير منهم لا يكتفى بما نال من الاجازات . وما حصل من الشهادات ، بل كانت تتجه به همته نحو الرحلة إلى الآفاق ولقاء الشيوخ والتعرف إلى العلماء وعقد مجالس المناظرة والمجادلة معهم ، وتبادل الإجازات فيما بينهم يشهد كل من المتناظرين فيها لقرنه بما أحكم من أبواب المعارف وفنون الآداب التى وقع النقاش فيها

على هذا النظام ، أو ما يشبهه ، تلقى الجاحظ علومه ومعارفه عن شيوخ المِصْرَيْن وعن أكابر علمائهما وصفوة أهل الفضل من رجالاتهما . وممن أخذ عنهم علومه وتلقى معارفه : أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بنُ المُثَنَّى ، والأَصْمَعِيُّ (١)

---

(١) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى الامام اللغوى الثقة الأديب المتفنن البليغ . قال الشافعى : ما عبر أحد عن العرب بمثل عبارة الأصمعى . قال أبو العيناء : توفى الاصمعى بالبصرة وأنا حاضر فى سنة ٢١٣هـ وقد بلغ ثمان وثمانين سنة

وأَبُو زَيْدٍ الأَنْصَارِيُّ (١)، وَأَبُو الحَسَنِ الأَخْفَشُ (٢)، وكان صديقه. وتخرج فى علوم الكلام ومذاهب الاعتزال على أبى إسْحَقٍ النظَّامِ (٣). ولم يكن يقتصر على مايتلقى عن شيوخه بل كان يذهب إلى مِرْبَدِ البَصْرَةِ فيلتقى بالأعراب الواردين عليه و يتلقف الفصاحة منهم شفاها.

والمِرْبَدُ هذا مكان كان بظاهر البصرة تفد إليه الأعراب من بواديهم بالقفر للاتجار بالابل والماشية وتبادل السلع والعروض، كما يلتقى فيه الخطباء والشعراء والرواة والنسابون والرجازوأر باب البلاغة من مختلف القبائل ومتباعد الأحياء، فيعرضون منتجات قرائحهم، وثمرات فهومهم، من صنوف البيان وألوان التفكير، على أسماع النقاد، وجهابذة الكلام، وصيارفة الألفاظ. فكان هذا المربد فى الاسلام أشبه بسوق عكاظ وغيره من أسواق الجاهلية.

وحدث الجاحظ عن فريق كبير من الثقات وعمد السند، نخص بالذكر منهم القاضى أبَا يُوسُفَ (٤) صاحب أبى حنيفة، وَيَزِيدَ بنَ هَارُونَ (٥)،

---

(١) هو أبو زيد سعيد بن أوس الانصارى الامام الحجة الثقة فيما يروى من اللغة والأدب والاخبار. والاشعار توفى سنة ٢١٥ هـ

(٢) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش المجاشعى بالولاء. من أكابر نحاة البصرة وعلمائها وكان معتزليا. قال البلخى: أصله من خوارزم مات سنة ٢٢١ هـ

(٣) هو أبو اسحق ابراهيم بن سيار بن هانىء النظام. أحد شيوخ المعتزلة وأوحدهم فى الفطنة والذكاء. وكان متكلما شاعرا أديبا بليغ اللسان حاد الذهن. ولد بالبصرة سنة ١٨٥ هـ وتوفى سنة ٢٢١ هـ

(٤) هو قاضى القضاة أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصارى كان فى أول أمره من أهل الحديث ثم صحب أبا حنيفة وهو الذى أشهر مذهبه وقيده وحرره. تولي القضاء ببغداد زمنا ومات سنة ١٨٢ هـ فى خلافة الرشيد

(٥) هو أبو خالد يزيد بن هرون مولى بنى سليم. كان فقيا محدثا توفى بواسط سنة ٣٠٦ هـ

والسَّرِىّ بن عَبْدَوَيْهِ ، والحَجَّاج بن مُحمد بن حماد بن سلمة وغيرهم

وعن الجاحظ أخذ خلق كثير نذكر منهم المُبَرِّد[١] ويموت بن المُزَرَّع ، وأبا بكر بن أبى داود السجستانى المحدث ، ومحمد بن عبد الله بن أبى الدهاب ، وغيرهم ممن يكاد يخطئهم الحصر

---

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الاكبر الثمالى الازدى البصرى المعروف بالمبرد . كان من أئمة اللغة والادب فصيحا بليغا ثقة صاحب أخبار ونوادر وطرائف . صنف كتبا فى الأدب كثيرة ولعل أفضلها كتابه «الكامل» وهو من أمهات كتب الادب التى عليها المعول . وقد شرح هذا الكتاب النفيس معاصرنا الفاضل المرحوم الشيخ سيد بن على المرصفى أحد علماء الازهر شرحا جيدا ، وقد أبدى فيه كثيرا من النقود والملاحظات والفوائد دلت على ذوق حسن واطلاع واسع وطبعه فى عدة أجزاء ودعاه « رغبة الآمل من كتاب الكامل » وكان مولد المبرد سنة ٢١٠ هـ ووفاته سنة ٢٨٥ هـ

الفصل الرابع

فى

موارد رزقه وبسطة جاهه

يظهر من حال أبى عثمان أنه كان فى أول أمره فى ضيق من الرزق وخصاصة من العيش. فقد رُوى أنه وهو فى دور الطلب كان يعانى الاتجار فى الخبز والسمك بسَيْحَانَ (١). وسواء صح هذا الخبر أم لم يصح، فهو دليل على أنه نشأ معنيا بأمر نفسه. وليس فى هذا شىء من الغضاضة عليه. فلما عرف فضله، وانتشرت مصنفاته، وذاع ذكره فى الآفاق أقبلت عليه الدنيا، واتسعت موارد رزقه، وعلا حظه، ونبل جده، وطاب عيشه، ودرت عليه أخلاف النعم، ودرج فى بحبوحة من اليسر والرخاء. ومن هذا الذى نورده عليك تعرف طرفا من موارد رزقه. فقد كان الفتح بن خاقان (٢)

---

(١) سيحان هذا نهر بالبصرة أصلحه البرامكة وأطلقوا عليه هذا الاسم.

(٢) هو الفتح بن خاقان، تركى الأصل من أبناء الملوك. مولى المتوكل ووزيره وموضع نجواه، بل اتخذه المتوكل أخا له وقدمه على أهله، وكان خاصا به حظيا عنده وكانت منزلته من الخليفة فوق كل منزلة. كان كاتبا بليغا وشاعرا فصيحا وخطيبا مفوها. وكان له غرام بالكتب. ولاه المتوكل على الشام وأمره أن يستتيب عنه وكان موصوفا بالشجاعة والرئاسة والكرم والسؤدد، وله فى الجود والوفاء والظرف أخبار حسان. وكان حاد الذكاء قوى الفطنه حاضر البديهة. قيل: دخل الخليفة المعتصم يوما على خاقان يعوده فرأى الفتح ابنه صغيرا لم يثغر فمازحه وقال: أيما أحسن دار الخليفة

وزير الخليفة المتوكل على الله العباسي (١) وصاحب تدبيره ، يعرف للجاحظ حقه ومنزلته ويقدر مكانته وينزله فى الكرامة بالمقام اللائق به .

كتب هذا الوزير من دار الخلافة ببغداد إلى الجاحظ يقول :

« إن أمير المؤمنين يَجِدُ بك . ويهش عند ذكرك . ولولا عظمتك

أم داركم ؟ فقال الفتح : دارنا أحسن إذا كان أمير المؤمنين فيها . فقال المعتصم : والله لا أبرح حتى أنثر عليه مائة ألف درهم. وكان له خزانة كتب جمعها له على بن يحيي المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسنا . وكان يحضر داره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة وزعم بعضهم أنه مع ما كان له من هذه المكانة والمنزلة لم يكن يرجى فضله ولا يخاف شره. ومن شعره قوله:

لست منى ولست منك فدعنى ... وامض عنى مصاحبا بسلام

وإذا ما شكوت ما بى قالت ... قد رأينا خلاف ذا فى المنام

لم تجد علة تجنى بها الذنـــب ... فصارت تعتل بالأحلام

وقوله :

وإنى وإياها لكالخمر والفتى ... متى يستطع منها الزيادة يزدد

إذا ازددت منها ازددت وجدا بقربها ... فكيف احتراسى من هوى يتجدد

وقوله :

أيها العاشق المعذب صبراً ... فخطايا أخى الهوى مغفورة

زفرة فى الهوى أحط لذنب ... من غزاة وحجة مبرورة

وله من المصنفات كتاب « البستان » وكتاب « الصيد والجوارح » . قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ

(١) هو الخليفة جعفر بن المعتصم بن هرون الرشيد. المتوكل على الله العباسى بويع له بالخلافة يوم توفى الواثق سنة ٢٣٢ وأمه أمة يقال لها شجاع. وكان صاحب لهو وشراب وهو أول من جرؤ الاتراك على قتله بتحريض ولده المنتصر ، وكان ذلك أول ما أدخل الوهن على الخلافة العباسية . قتله باغر التركى سنة ٢٤٧ هـ

فى نفسه لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك و بين بعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ، ومتوفر عليه . واقد كان ألقى إلى من هذا عنوانه ، فزدتك فى نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك . فاعرف لى هذه الحال ، واعتقد هذه المنية على كتاب « الرد على النصارى » وافرغ منه ، وعجل به إلى ، وكن ممن جدا به على نفسه ، وتنال مشاهرتك . قد استطلقته لما مضى واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة ، وهذا مالم تحلم به نفسك . وقد قرأت رسالتك فى « بَصِيرَة غنام » ولولا أنى أزيد فى مخيلتك لمعرفتك مايعتريني عند قراءتها والسلام »

فأنت ترى من فحوى هـذا الخطاب أن الجاحظ كانت له وظائف مالية يتقاضاها من دار الخلافة شهريا ، وذلك فضلا عن المنح والعطايا والإدرارات التى كانت تنهال عليه منها للمناسبات . وما كان يتقرب به إليه وزراء الدولة وأصحاب السلطان فيها كالبرامكة (١) والطاهرية (٢) والفتح ابن خاقان وابراهيم ابن العباس الصولى (٣) ومحمد بن عبد الملك

---

(١) البرامكة هم أبناء خالد بن برمك . وهم سلالة بعض عظماء «الفرس» . وكان يضرب بهم المثل فى الفضل والجود والسخاء والكرم والشهامة ومحاسن الشيم وقد أبادهم الرشيد فى خبر طويل . وأمرهم معروف

(٢) الطاهرية فى أبناء طاهر بن الحسين القائد الشهير الذى وطد دعائم دولة المأمون وأزال دولة الامين . هم قادة سراة نبلاء أجواد تولى منهم مصر عبد الله بن طاهر .وخبرهم مشهور

(٣) هو أبو اسحق ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين الصولى أصل جده صول تركى تمجس واتخذ شعار الفرس وكان ملكا على جرجان وأسلم على يد زيد بن المهلب وقاتل بين يديه حتى قتل معه يوم العقر . وكان ابراهيم كاتبا بليغا وشاعرا مجيدا . قال المسعودى لا يعلم فيمن تقدم وتأخر من

الزيات [١] وأحمد بن أبى دؤاد [٢] وأمثالهم من ذوى الكلمة المسموعة. والإرادة المطاعة. سأل ميمونُ بنُ هرونَ [٣] الجاحظَ — ورأى ما هوفيه من النعمة السابغة والجاه العريض — : ألك ضيعة بالبصرة؟ فتبسم الجاحظ وقال: إنما أنا، وجارية لى، وجارية تخدمها، وخادم وحمار؛ أهديت كتاب «الحيوان» إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطانى خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب «البيان والتبيين» إلى احمد بن أبى دؤاد فأعطانى خمسة

---

(١) هو محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الكاتب البليغ. تولى الوزارة للمعتصم والواثق، فلما ولى الخلافة المتوكل كان واجدا عليه فقتله، على ما قيل، فى تنوره الشهير. وكان الجاحظ يميل اليه ويؤثره بوده وإخلاصه. توفى سنة ٢٣٣ ﻫ

(٢) هو القاضى السرى العظيم أبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد الأيادى صاحب السطوة والجاه والنفوذ فى دولة المعتصم والواثق. كان بعيد الهمة واسع المروءة مهيب الجانب مقيل العثرات. وكان الخليفة المعتصم لا يرد له طلبا كائنا ما كان. ولم يكن يطلب شيئا قط لنفسه وإنما كانت همته مصروفة إلى قضاء مصالح الناس والسعى فى خيرهم والعمل على انقاذهم من ورطات الحياة والترفية عنهم وحفظ ماء وجوههم وحقن دمائهم، وله فى أعمال البر وإسداء المعروف أياد لم يلحق شأوه فيها غيره. وله فى ذلك حوادث وأخبار هى منتهى عجب العاجب. وكان المعتصم يقول فيه: هذا والله الذى يتزين بمثله، ويبتهج بقربه، ويعد به ألوف من جنسه. توفى بالفالج سنة ٢٤٠ ﻫ

(٣) هو ميمون بن هرون: الكاتب الأخبارى الراوية

آلاف دينار ، وأهديت كتاب « الزرع والنخل » إلى ابراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار . فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لاتحتاج إلى تجديد ولا تسميد !

و إذا كانت هذه هى حال الجاحظ وهذا مبلغ حظه من أبناء زمنه ، فلا عجب إذا تمكن من أن يملأ طباق الأرض علما ، وأن يعلو على أمثاله فضلا وفهما ، وأن يقدم للغة العربية هذه المصنفات التى وضعها فى كل ضرب من ضروب العلوم وفن من فنون الآداب ، على كثرتها وجليل شأنها ، فإن العطايا واللُّهى تفتح اللَّها ! على شريطة الاستعداد الفطرى والكفاية الظاهرة

ودخل عليه بعض إخوانه فقال له : كيف حالك يا أبا عثمان ؟ فقال الجاحظ : سألتنى عن الجملة فاسمعها منى واحداً واحداً : حالى أن الوزير يتكلم برأيي و ينفذ أمرى ، و يواتر الخليفةُ الصِّلاتَ إلىَّ ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها ، وأجلس على ألين الطبرى ، وأتكىء على هذا الريش ، ثم أسير على هذا حتى يأتى الله بالفرج ؟ فقال الرجل : الفرج ماأنت فيه ! فقال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، و يعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ويختلف إلى ، فهذا هو الفرج !

بهذه العبارة قد وصف الجاحظ حاله و بسطة جاهه . وما ذكره للخلافة إلا أمنية من أمانى النفس التى لاحد لها فى مطامعها . ولعله وهو يقول هذا قد أبدى لسائله إشارة أخرج بها الكلمة مخرج المزاح ، و إلا فمثل هذه العبارة متى خرجت مخرج الجد كانت غير مأمونة العاقبة . والجاحظ أعقل من أن يعرض نفسه للمعاطب ، وهو يعلم أن الملك عقيم

الفصل الخامس

فى

رآسته لديوان الرسائل

كان ديوان الرسائل فى الممالك الإسلامية من أهم ما يدور عليه محور السياسة العامة للدولة. وكان لا يعهد فيه إلا لذوى الشرف والنباهة من الثقات الكُفاة، وكان لا يليه إلا الحذاق الضاربون بالسهام الوافرة فى مختلف العلوم والآداب، وإلا أصحاب السياسة والتدبير، والكياسة والتقدير، على أن يكون القائم باعبائه متفوقا فى صنوف البلاغات وضروب الإبانات. وقد كان ابراهيم بن العباس الصولى ممن ينوبون فيه حتى أوائل عهد المأمون، وكان الجاحظ يخلفه فيه إذا تغيب فى شأن من الشؤون الخاصة أو العامة. ثم أصدر المأمون أمره باسناده الى الجاحظ. فصدع بالأمر على كره منه. ويظهر أن توليه هذا الديوان واقتعاده هذا المنصب الخطير، أثار عليه حفائظ الكتاب، فأخذوا فى دس الدسائس ضده وبث الوشايات به. ولهذا بادر الجاحظ بعد ثلاثة أيام من توليه إلى الاستعفاء معتذرا للخليفة بما فتح الله عليه من الأعذار، فأعفاه. وكان سهل ابن هرون[1] يقول: إن ثبت الجاحظ فى هذا الديوان أفل نجم الكتاب...

---

(١) هو أبو عمرو سهل بن هارون بن راهبون. أصله من دستميسان من بلاد فارس. انتقل الى البصرة ولقى علماءها وأفاد منهم علما وأدبا، ثم اتصل بالمأمون فحظى عنده وتولى له «خزانة الحكمة» وهى دار الكتب. وكان كاتبا بليغا جمع بين الحكمة والأدب. وله شعر جيد. وكان شعوبى المذهب شديد العصبية على العرب، وكان نهاية فى البخل، وله فيه حكايات ونوادر

قال دعبل بن على الخزاعى : كنا عنده يوما فأطلنا القعود حتى كاد يموت جوعا ثم قال لغلامه : ويحك غدنا ! فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ فتأملها ثم قال:أين الرأس ؟ قال:رميت به . فقال : والله إنى لأمقت من يرمى برجليه فكيف برأسه ؟ ولو لم أكره ما صنعت إلا للطيرة والفأل لكرهته ، أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ومنه يصدح الديك ولولا صوته ما أريد وفيه الفرق الذى يتبرك به ، وعينه التى يضرب بها المثل فى الصفاء فيقال : شراب كعين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكلية . ولم نر عظماأهش تحت الأسنان منه ؟ وهل ظننت أنى لا آكله ؟ إن العيال يأكلونه ! وإن كان قد بلغ من نبلك أنك لا تأكله فعندنا من يأكله ، أوما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن رأس العنق ؟ أنظر أين هو ؟ فقال : والله يا سيدى ما أدرى أين هو ولا أين رميت به ؟ فقال : أنا أدرى أين رميت به ! رميت به فى بطنك قاتلك الله . وكتب رسالة فى البخل وبالغ فى مدحه وبعث بها إلى الحسن بن سهل وزير المأمون واستماحه عليها فوقع الحسن على ظهرها بقوله: وصلت رسالتك ، ووقفنا على نصيحتك . وقد مدحت ما ذم الله وحسنت ما قبح ، ومايقوم فساد معناك بصلاح لفظك ، وقد جعلنا ثوابك عليهاقبول قولك والتصديق لك ، فما نعطيك عليها شيئا والسلام . ومن شعره قوله :

تقاسمنى همان قد كسفا بالى ... وقد تركا قلبى محلة بلبال
هما أذريا دمعى ولم تذر عبرتى ... ربيبة خدر ذات قرط وخلخال
ولا قهوة لم يبق منها على المدى ... سوى أن تحاكى النور فى رأس ذبال
ولكننى أبكى بعين سخينة ... على حدث تبكى له عين أمثالى
فراق خليل مثله يبعث الأسى ... وخلة خل لا يقوم لها مالى
فوا أسفا حتى متى القلب موجع ... بفقد خليل أو تعذر إفضال
فما العيش إلى أن تجود بنائل ... وإلا لقاء الاخ ذا الخلق العالى

وله كتب كثيرة وفوائد جمة تدل على فضل كثير وحكمة بالغة . مات فى عهد المأمون

إرادتهم ، فلا يرون الوقوع تحت نير الأعمال السلطانية ، ولا يحبون أن يجعلوا أقلامهم وفق إرادات ذوى السلطان من الخلفاء والملوك والوزراء وأرباب الدولة ؟ أم كان من الذين يرون فى هذه الوظائف وسائل الرفعة الواسعة والجاه العريض ؟ الظاهر أن ميله إلى التحرر من ربقة النظم الديوانية كان أغلب عليه من الوقوع تحت طوائلها . وفى الحقيقة أن الجاحظ كان طلق عنان العقل حاد شبا القلم . وكان أشبه الناس بكتاب الصحف لهذا العهد ، ومن أعلى طبقة فى هذا النوع . وقد بلغ به الأمر فى تحقير الوظائف والموظفين أن دخل يوما ديوان المكاتبات فرأى قوما قد صقلوا ثيابهم ، وصففوا عمائهم ، وَوَشَّوْا طُرُزَهم ، فقال : هؤلاء كما قال الله تعالى : « فأما الزَّبَدُ فيَذْهَبُ جفاءً » ظواهر نظيفة ، و بواطن سخيفة « فوَيْلٌ لهمْ مما كَتَبَتْ أيدِيهمْ وَوَيْلٌ لهمْ مما يَكْسِبُونَ »

على أن الجاحظ لم يترك قولة سهل بن هرون تمر بلا جزاء ، ولم يتسامح معه فيها . ولعل لسهل يدا فى استثارة حميته وخروجه من الديوان . فقد جعل الجاحظ من سهل بن هرون المثل المضروب فى البخل والبخلاء ، لأن سهلا وضع رسالة بليغة فى مدح البخل وذم الكرم جعلت اسمه شنعة فى سائر الأجيال . وما مدح البخل إلا لئيم ، ولا ذم الكرم إلا زنيم . ومن أطرف ما حصل من الجاحظ وهو يتولى ديوان الرسائل نيابة عن الصولى أن أبا العيناء[1]

---

(١) هو أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر اليمامى مولى المنصور عرف بأبى العيناء لكبر حدقتيه مع حول و ضعف بصر. كان شاعرا مجيدا وكاتبا لبيغا . حاضر الجواب قوى البديهة . فصيح اللسان . مخشى الجانب لفضل لسانه . ولما بلغ الأربعين كف بصره. وروى عنه أنه قال : أنا والجاحظ وضعنا حديث فدك وأدخلناه على الشيوخ ببغداد فقبلوه الا ابن شيبة

جاءه فى أمر فلما أراد الانصراف أسر الجاحظ إلى حاجبه أنه إذا وصل إلى الدهليز لا يدعه يخرج ولا يمكنه من الرجوع إليه . فلما خرج أبو العيناء من بين يديه وصار فى الدهليز حجزه الحاجب وضيق عليه . فنادى بأعلى صوته : يا أبا عثمان ، قد أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك؟

ولم يكن ذلك من الجاحظ إلا دعابة ، مع صديقه أبى العيناء صاحب النوادر والملح والفكاهات

العلوى فانه قال : لا يشبه آخر هذا الحديث أوله . وله نوادر وأخبار وطرائف غاية فى الابداع والطيب . ولد بالاهواز سنة ١٩١ هـ وتوفى سنة ٢٨٢ هـ

الفصل السادس

فى

معارفه واحاطته

أتقن الجاحظ علوماً كثيرة ، وتعرف ألواناً من المعارف شتى ، وقرأ كتب الأوائل من فلاسفة اليونان ، وحكماء الهند ، وعلماء الفرس ، وأدباء الرومان ، ونظر فى ثمرات قرائحهم ومنتجات أذهانهم ، حتى لم ينقل كتاب إلى اللغة العربية فى أى علم وفى أى فن إلا قرأه واستظهره وتمثله. قال أبو هفّان[1] : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين (باعة الكتب) يبيت فيها للنظر . . . وكان كثير الحفظ واسع الرواية قوى الحجة ناصع البرهان . وأقرب ما يوصف به أنه كان دائرة معارف أحاطت بمعلومات أهل دهره .

ويؤخذ من مجمل حاله أنه كان يجيد اللغة الفارسية . فإن متصفح رسالته « التربيع والتدوير » وكتاب « الحيوان » و « البيان والتبيين » وغيرها من مصنفاته لايسعه إلا الخروج منها ممتلىء النفس باحسان الجاحظ لهذه اللغة . أجل ليس هناك نص صريح يملأ يد الباحث فى هذا الشأن

---

(١) هو عبد الله بن احمد بن حرب أبو هفان المهزمى البصرى . كان نحويا أديبا راوية صاحب أخبار . وكان ضيق الحال مقتراً عليه فى الرزق كثير التبرم بالعيش

ولـكن هناك من العبارات والألفاظ ما يدفع إلى استنباط هذا الرأى . ومن أقرب الشواهد على ذلك قول الجاحظ :

« واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسوارى ، وكان من أعاجيب الدنيا . كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية . فلا يدرى بأى لسان هو أبين »

هذا شاهد غير أنه على ما أرى ليس بكاف ،لأن قوله « إلا ما ذكروا » جعله رواية منقولة عن قائلين ، وأنه لم يشهد مجالس الاسوارى ، ولكنه حُدث بها فتحدث عنها . وليس معنى تعلمه للغة الفرس هو الذى جعله أديباً مستكمل الآلة كما يريد أن يذهب اليه بعض معاصرينا ممن يبغضون اللغة العربية لجهلهم بها . فاللغة العربية وحدها كافية لتخريج أديب تام الآلة مستكمل الأدوات كالجاحظ وأضرابه

على أنى مهما تعزز النص على معرفة الجاحظ للغة الفرس ، ما أزال أحس وأشعر بأنه كان يعرفها . إذاً : فمسألة عرفان الجاحظ باللغة الفارسية تُستنبط بالقوة من خلال السطور فى كتبه ، ولا تؤخذ بالنص

ومما يدل على سعة معارفة وإحاطته ما قاله أبو بكر أحمد بن على (١) فيما روى عنه أنه قال :

(١) هو أبو بكر أحمد بن على بن أبجور بن الاخشيد . كان والده أحد كبار القواد من الفراغنة ولى الثغور للمعتضد والمكتفى . قال ابن حزم : وكان أبو بكر هذا أحد رؤساء المعتزلة الثلاثة الذين انتهت إليهم الرئاسة –

كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام . وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به و بغيره من علوم الدين والدنيا، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة فى نصرة الدين ، وفى حكاية المخالفين ، و [فى] الآداب والأخلاق ، وفى ضروب من الجد والهزل وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها . و إذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس فى تلقيح العقول ، وشحذ الأذهان ، ومعرفة أصول الكلام وجواهره ، و إيصال خلاف الاسلام ومذاهب الاعتزال الى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدر فى المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال و يميزون الأمور

أظن أنه ليس بعد هذا فى هذا الباب كلام

وافترقت المعتزلة على مذاهبهم ، والثانى أبو هاشم الجبائى ، والثالث عبدالله ابن محمد بن محمود البلخى المعروف بالكعبى وقال ابن النديم : ابن الاخشاد من أفاضل المعتزلة وصلحائهم وزهادهم، وكانت له ضيعة منها مادته وكان ينفق أكثر ما يحمل إليه منها إلى العلم وأهله . وكان فصيحا بينا طلق اللسان قيما بالعربية والفقه وسائر العلوم . وله عدة كتب ، توفى سنة ٣٢٦ هـ

الفصل السابع

فى

وضعه الكتب على ألسنة المتقدمين

ووضع غيره الكتب باسمه

لم يكن الجاحظ فى طالعة أمره ومستهل نشأته سعيد الجد ، ولا نبيل الحظ ، بل قد أصابه من الخمول ، وعدم التقدير ما يصيب أكثر المشتغلين بصناعة القلم فى كل عصر ، وفى كل مصر ؛ حتى يومنا هذا . ويظهر أن تقديس آثار الماضين ، واعتبار أعمال الغابرين ، فكرة عريقة فى القدم لها فى النفوس سلطان ، وفى الصدور تمكين وإمكان ، ولها فى المخيلة منزلة قد لا تزاحمها عليها منزلة أخرى . فقد روى المسعودى (١) فى كتابه « التنبيه والإشراف » أن الجاحظ على جلالة قدره كان يقول :

كنت أؤلف الكتاب الكثير المعانى ، الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسى فلا أرى الأسماع تُصغى إليه ، ولا الإرادات تتيمم نحوه ، ثم أؤلف

---

(١) هو أبو الحسين على بن الحسين بن على المسعودى المؤرخ المشهور ينتهى نسبه إلى عبد الله بن مسعود الصحابى الجليل. وكان من أفاضل المؤرخين علامة إخباريا ذا نوادر وملح وغرائب وتحف ، وكتابه مروج الذهب من أجل كتب التاريخ وأمتعها . وله غيره كتب كثيرة ، ومنها كتاب التنبيه والاشراف . وهو بغدادى الأصل رحل إلى الآفاق ثم أقام بمصر مدة ومات سنة ٣٤٦ ﻫ

ماهو أنقص منه رتبه، وأقل فائدة، وأنحله عبد الله بن المقفع [١] ، أو سهل ابن هرون، أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم فى المصنفين، فيقبلون على كَتْبها، ويسارعون إلى نسخها، لا لشيء إلا لنسبتها للمتقدمين، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو فى عصرهم ومنافسته على المناقب التى عنى بتشييدها

وهذا قول صريح فى أن الجاحظ ألف كتبا ونسبها إلى طائفة من الكتاب والمصنفين ومن بينهم ابن المقفع وسهل بن هرون. ومن الغريب أن يمر على هذا الإعتراف الصريح أحد عشر قرنا ولم يقم من كتاب العربية باحث واحد ينظر فى كتب ابن المقفع ويضع مقارنة بين أسلوبها وأسلوب الجاحظ يبين بها ماقد يكون لغيره منها. ولعل المانع من ذلك قلة مافى اليد من آثار ابن

---

(١) هو عبد الله بن المقفع. قال الجاحظ: «ومن المعلمين ثم من البلغاء والمتأدبين عبد الله بن المقفع، ويكنى أبا عمرو، وكان يتولى لا ل الأهتم وكان مقدما فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السير وكان جوادا فارسا جميلا، وكان إذا شاء أن يقول الشعر قاله، وكان يتعاطى الكلام ولم يكن يحسن منه لا قليلا ولا كثيراً، وكان ضابطا لحكايات المقالات ولا يعرف من أين غر المغتر، ووثق الواثق، وإذا أردت أن تعتبر ذلك إن كنت من خلص المتكلمين ومن النظارين، فاعتبر ذلك بأن تنظر فى آخر رسالته الهاشميه، فانك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم، ردىء المدخل فى مواضع الطعن عليهم. وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم فيظن بنفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شىء إلا بعد به فيه». وقال ابن النديم: اسمه بالفارسية روزبه. وكان يكنى قبل إسلامه أبا عمرو فلما أسلم اكتنى بأبى محمد. وكان يكتب أولا لداود بن عمر بن هبيرة ثم كتب لعيسى بن على. ولد سنة ١٠٦ هـ وقتل سنة ١٤٢ هـ

المقفع التى قد يكون ذهب بجمهورها عادى الدهر كما ذهب بأكثر كتب الجاحظ وبجملة كتب سهل بن هرون

وكما حمل الجاحظ على غيره من الأدباء كتبا ليست لهم ، كذلك حمل عليه الأدباء والمصنفون من بعده الشىء الكثير منها ، ولا يزال ينسب إليه ما ليس له منها إلى الآن. فقد نسب إليه منها قديما : كتاب «الابل» وكتاب « الهدايا » ذكر ذلك ياقوت فى معجمه . كما نسب اليه كتاب « تبيه الملوك والمكايد » أشار الى ذلك أحمد زكى باشا .

ونسبوا إليه كتاب « المحاسن والاضداد » ونسب إليه أحمد زكى باشا كتاب « التاج » كما نسب إليه الفاضل راغب الطباخ كتابا إسمه « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » وطبع هذا الكتاب أخيرا فى حلب . وليس فى أسلوبه ما يدل على أنه للجاحظ أو من بابته

الفصل الثامن
فى
مقامه فى رأى خصومه

للجاحظ، كما لغيره من نوادر الرجال، خصوم ينقبون عن مثالبه ويذيعونها فى الناس، كما له أنصار يعرفون مناقبه ويبشرون بها وينشرونها بين الملأ، وكلا الخصوم والأنصار لا يفترون عن الهجوم والدفاع وعن المجادلة فيه والمجالدة له. شأن كل عظيم له فى الحياة العامة أثر ظاهر وعمل باهر، وقد رأينا أن نلم فى هذا الفصل بما ثلبه به خصومه، وبما رماه به أعداؤه، أو وصفه به أنداده وقرناؤه، لنعرف وزن ما رموه به من المآخذ والمثالب، حتى يمكن زنتها بما عرف له من مناقب. وأول ما نبدأ به مطاعن ابن قتيبة [١] فيه على ما جاء فى كتابه « تأويل مختلف الحديث » قال:

ثم نصير الى الجاحظ، وهو آخر المتكلمين، والمعاير على المتقدمين، وأحسنهم للحجة استثارة، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصغير العظيم

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى. كاتب اديب كثير التصانيف ذا معرفة باللغة والأخبار وأيام الناس. ولى قضاء الدينور قال عنه البيهقى إنه كان كرامياً. وقال الدارقطنى إنه كان يميل إلى التشبيه. قلت هذا صحيح ترى هذا مائلا فى كتابه تأويل مختلف الحديث. وقال الحاكم أجمعت الأمة على أنه كذاب. وحسن الظن فيه بعضهم فنفى عنه ذلك. وله كتب جيدة فى بابها نافعة فى فنونها ولد سنة ٢١٣ ﻫ وتوفى بأكلة هريسة حارة سنة ٢٧٦ ﻫ

حتى يصغر، و يبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، و يحتج لفضل السودان على البيضان، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة، ومرة يفضل عليا رضى الله عنه، ومرة يؤخره. و يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، و يتبعه قال الجماز [١]، وقال اسماعيل بن غزوان.

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمرو الجماز وهو ابن اخت سلم بن عمرو الشاعر المعروف بالخاسر. ولما كانت ترجمة الجماز غير معروفة فقد جهدت فى جمعها وتأليفها من شتى الكتب، ولم أحصل منها على هذا القدر إلا بعد عناء كثير، ولهذا آثرت إثباتها ههنا. زعموا أن أمه كانت نائحة، وكان هو شاعراً هجاء خبيث اللسان داهيا منكراً، وله نوادر وطرائف وملح. وله حوادث واهاج مع عبد الصمد بن المعذل وأبى العتاهية والجاحظ وغيرهم من معاصريه. قال عبد الصمد بن المعذل: هجانى الجماز ببيتين سخيفين فسارا فى أفواه الناس حتى لم يبق خاص ولا عام إلا رواهما وهما قوله:

إبن المعذل من هو ومن أبوه المعذل
سألت وهبان عنه فقال بيض محول

وكان وهبان هذا رجل يبيع الحمام فجمع قوماً من أصحابه وجيرانه وجعل يغشى المجالس ويحلف للناس أنه ماقال إن عبد الصمد بيض محول، ويسألهم أن يعتذروا إليه. وكان هذا منه قد صار بالبصرة طرفة ونادرة. قال أبو شراعة: فجاءنى عبد الصمد يستغيث منه ويقول أنقذنى من الجماز فقلت له: أمثلك يفرق من الجماز؟ فقال: نعم لأنه لا يبالى بالهجاء ولا يفرق منه ولا عرض له، وشعره ينفق على من لايدرى وآفتى منه عظيمة، والله لدوران وهبان على الناس يحلف لهم أنه ما قال أنى بيض محول أشد على من هجائه لى؟! فأصلحت بينه وبين الجماز ثم أرسلت إلى وهبان فأحضرته وقلت له: ياهذا قد علمنا أن الجماز قد كذب عليك وعذرناك فنحب أن لا تتكلف العذر إلى الناس فى أمرنا فانا قد عذرناك. فانصرف وقد لقى عبد الصمد منه بلاء. قال عبد الصمد: وقلت أنا فى الجماز شعرا تركته يتحاجى فيه كل أحد.

كذا وكذا من الفواحش . ويجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن

غير أن الناس لم ترووه لضعة الجماز ، وهو قولى :

نسب الجماز مقصو ر اليه منتهاه
يترا آى نسب النا س فما يخفى سواه
يتحاجى من أبو الجما ز من هو كاتباه
ليس يدرى من أبو الجما ز إلا من رآه

قلت : وهذه الابيات يرويها يموت بن المزرع للجاحظ فى الجماز ، وهى بعبد الصمد أشبه وهو بها أحق . وكتب الجماز إلى صديق له يستميحه ، فاعتذر إليه ، فاجابه : « إن كنت كاذبا فجعلك الله صادقا ، وإن كنت ملوما فجعلك الله معذورا » وكان أبو العتاهية ينشد قثم بن جعفر بن سليمان شعرا والجماز حاضر فأنشأ الجماز يقول :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقا أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف أن تنفد أرزاقه والرزق عند الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من ترى يناله الأبيض والأسود

فالتفت أبو العتاهية وقال : من هذا ؟ قالوا : الجماز ، وهو ابن أخت سلم الخاسر ، اقتص لخاله منك . فأقبل عليه وقال : يا ابن أخى . إنى لم أذهب حيث ظننت ولا ظن خالك ولا أردت أن أهتف به ، وإنما خاطبته كما يخاطب الصديق صديقه ، فالله يغفر لكما . وقد أراد أبو العتاهية بقوله أنه لم يرد أن يهتف بخاله أن قوله فى سلم الخاسر :

تعالى الله ياسلم ابن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

لم يكن من طريق التشنيع عليه أو المواخذة له . وقال الجماز : شممت من دار فلان رائحة قدر أطيب من رائحة العروس الحسناء فى أنف العاشق الشبق . وقال : ثلاث من الطيبات : الوطء فى الحمام ، والبول فى الطشت ، وصفع الاصلع . وكان يتعشق جارية لآل جعفر يقال لها طغيان ، وكان لها خصى يحفظها أنى سارت ، وكان الخصى أشد عشقا لها من الجماز ، فحال بينه وبين كلامها

يذكر فى كتاب ذكرا فيه ، فكيف فى ورقة أو بعد سطر وسطرين؟ ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فاذا صار إلى الرد عليهم تجوّز فى الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على مالا يعرفون، وتشكيك الضَّعَفَةِ من المسلمين . وتجده يقصد فى كتبه المضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ . ويستهزىء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره « كبد الحوت » و « قرن الشيطان » وذكر « الحجر الأسود » وأنه كان أبيض فسوده المشركون ، وكان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا ويذكر « الصحيفة التى كان فيها المنزل فى الرضاع » تحت سرير عائشة (١) فأكلتها الشاة .

وأشياء من أحاديث أهل الكتاب فى « تنادم الديك والغراب » و « دفن الهدهد أمه فى رأسه » و « تسبيح الضفدع » و « طوق الحمامة » وأشباه هذا ، وهو مع هذا من أكذب الأمة ، وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل .

وقبل أن نعرض للبحث فيما ذهب اليه ابن قتيبة من ثلب الجاحظ ورميه بما رماه به نبسط هنا المسائل التى جعلها أساسا للطعن فيه :

والدنو منها ، فقال الجماز فيه أبياتا منها قوله :

ما للنقيت سنان ... وللظباء الملاح

ليس خصى بزان ... غاز بغير سلاح؟

وله غير هذا شعر كثير لا نرى إثباته ههنا . ولم أقف على تاريخ وفاة الجماز ولعله كان فى الثلث الاخير من القرن الثالث

(١) هى أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق ، زوج النبى صلى الله عليه وسلم وقد بسطت ترجمتها بكتاب الاصابة فلا حاجة لتعريف المعرف . توفيت سنة ٥٨ ﻫ

فأما إشارته الى « كبد الحوت » فقد يروى فى بعض الآثار أن أول طعام يقدم لأهل الجنة فى الجنة هو كبد الحوت الذى يزعمون أنه حامل للثور الحامل للأرض على قولهم

وأما إشارته إلى « قرن الشيطان » فهو زعمهم أن الشمس تطلع من بين قرنى شيطان ، ويروون حديثاً ينهى عن الصلاة عند طلوعها تأييداً لهذا الزعم

وأما إشارته إلى « الحجر الأسود » فقد رووا عن ابن عباس[1] أنه قال : ألحجر الأسود من الجنة ، وأنه كان أشد بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك ! ؟.. مع أن ابن الحنفية[2] كان يقول : إن الحجر الأسود من بعض هذه الأودية . وكان الجاحظ يتندر على ما تقولوه على ابن عباس ويقول : إن كان المشركون قد سودوه فقد كان يجب على المسلمين حين أسلموا أن يبيضوه ؟ ! ! . .

وأما إشارته إلى « صحيفة الرضاع » فقد أسندوا كلاماً إلى عائشة تقول فيه : لقد نزلت آية الرجم ورضاع الكبير عشرا فكانت فى صحيفة تحت سريرى عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما توفى وشغلنا به دخلت داجن للحى فأكلت تلك الصحيفة ؟ ! ! . . ومن طرائف ما يروى أن

---

(١) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، حبر الأمة وإمام علمائها وسيد رواتها ومحدثيها . ولد فى الشعب أيام أن حاصرت قريش النبى وبنى هاشم فيه . وتوفى بالطائف سنة ٦٨ هـ

(٢) هو أبو القاسم محمد بن على بن أبى طالب . كان يعرف « بابن الحنفية » وهى أمه . وكان شجاعا باسلا ، شهد مع أبيه مشاهده . وتوفى بالطائف سنة ٨١ هـ

الأحناف يؤيدون الجاحظ فى استنكار هذا الحديث ويتندرون بالشافعية الذين يعتدون به . ففى كتاب « الجواهر المضية » يرى أبوحنيفة أن التحريم بالرضاع يتعلق بالقليل والكثير ، ويرى الشافعى تعلق التحريم بخمس رضعات . ودليل أبى حنيفة قول النبى صلى الله عليه وسلم : الرضاعة من المجاعة . يعنى ما سد الجوعة . ودليل الشافعية ما هو ؟ يقول الأحناف : كان للشافعية دليل فأكلته الشاة . . . !

ومن الغريب أن الجاحظ ، بل والمعتزلة جميعاً ، يدفعون هذا السخف ويبطلون هذا الهراء ، ويقيمون على زيف ذلك الحجة التى لا تدفع ، والبرهان الذى لا يرد ، ويرون هذا الخبر مخالفاً لقوله تعالى « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ » فكيف يكون عزيزاً وقد أكلته شاة وأبطلت فرضه وأسقطت حجته ؟ وأى أحد يعجز عن إبطاله والشاة تبطله ؟ وكيف قال « أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » وقد أرسل عليه ما يأكله ؟ وكيف عرض الوحى لأكل شاة ولم يأمر بإحرازه وصونه ؟ ولم أنزله وهو لا يريد العمل به ؟ !! لكن ابن قتيبة يدفعه حقده على المعتزلة إلى أن يذهب فى تصحيح هذا الخبر الكاذب كل مذهب . وهذا من أغرب ما يروى فى باب التعصب للرأى والحقد على الخصم

وأما إشارته إلى « تنادم الديك والغراب » فقد كان الأعراب فى الجاهلية يزعمون أن الغراب فى ماضى الدهر كان يتألف الديك ، وكان ينادمه ، فاختدع الغراب الديك وتلعب به ورهنه عند الخمار وتركه حتى أغلق عنده ، وتخلص من الغُرم الذى لحق الديك وفاز هو بالغُنم . فضرب به المثل حتى قال أمية بن أبى الصَّلْتِ (١) :

(١) هو أمية بن أبى الصلت ، أحد شعراء ثقيف وفصحاء العرب، وكان

بِآيَةِ قَامَ يَنْطِقُ كلُّ شَيْءٍ وَخَانَ أَمَانَةَ الدِّيكِ الغُرَابُ

وأما إشارته إلى «دفن الهُدهد أمه فى رأسه» فقد زعم أصحاب الأساطير أن الهدهد نتن الريح ، وأن هذا النتن إنما عراه لما دفن أمه فى رأسه حين ماتت ، وأن القُنْزُعَةَ التى فى رأسه إنما هى ثوابه على بره بأمه . ولأمية بن أبى الصلت فى هذا الخبر شعر معروف .

وأما إشارته إلى « تسبيح الضفدع » فقد زعموا أن نقيقها هذا الذى نسمعه حينما تكون فى الماء إنما هو تسبيح. وقد أوردوا على ذلك بعض الآثار

وأما إشارته الى « طوق الحمامة » فقد زعموا أن نوحا لما بعث الحمامة لاستكشاف الأرض ولتنظر هل ترى موضعا منها يصلح مرفأ للسفينة ، فعادت إليه وفى فمها غصن من الزيتون ، فرشاها نوح بهذا الطوق الذى لايزال فى عنقها . وفى ذلك يقول أمية بن أبى الصلت :

وَأُرْسِلَتِ الحَمَامَةُ بَعْدَ سَبْعٍ تَدُلُّ عَلَى المَهَالِكِ لا تَهَابُ
تَجَاءَتْ بَعْدَمَا رَكَضَتْ بِغُصْنٍ عَلَيْهَا الشَّاةُ والطِّينُ الـكُبَابُ
فَلَمَّا فَرَّسُوا الآيَاتِ صَاغُوا لَهَا طَوْقًا كَمَا عُقِدَ السِّخَابُ

هذه هى المسائل التى أشار اليها ابن قتيبة واتخذها وسيلة للطعن فى الجاحظ ، والنيل من عقيدته ، والحط من شأنه . وليس للجاحظ من ذنب عنده إلا أنه أوردها فى بعض كتبه ساخرا منها ، منددا بمن رواها ، مستخفا بسندها . وابن قتيبة من الحشوية الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن كل ما يروى عن أهل الحديث، والذياد عن كل مايسند إليهم من الخرافات

يتأله فى شعره . قرأ الكتب القديمة وعرف أن نبياً سيبعث فى العرب ،فكان يرى نفسه حقيقاً بأن يكونه . فلما بعث النبي حسده وأعان عليه خصومه من قريش . وله مراث فى قتلاهم . مات على غير إيمان سنة ٢ هـ

والأساطير التى لايقرها عقل رجيح ، ولا يسندها نقل صحيح ، وما هى إلا من أسمار الرواة وأحاديث القصاص

ومن أعجب العجب أنى رأيت بعض الأئمة قد خدعوا بابن قتيبة وأنزلوه من المحدثين فى منزلة الجاحظ من المتكلمين؟ وشتان بين من يستعمل ماوهبه الله من عقل ، وبين من يعطل هذه المنة الكبرى مستسلما لعواصف الآراء ، ونوازع الأهواء . ولعل الامام ابن تيمية [١] لم يصل إلى علمه هذا السخف الذى جاء به ابن قتيبة ، ونظر اليه من جهة رآه فيها صالحا فوصفه بما وصفه به .

أما ما تنقص به ابن قتيبة أبا عثمان الجاحظ من أنه كان يعمل الشىء ونقيضه ، فلا أدرى كيف غاب عنه أن هذا من قوة البيان ، وفضل الافتنان ؟ وكيف فاته أن ذلك من معجزات البلاغة التى اختص الله الجاحظ بها ، وألقى إليه بأزمتها ؟ وهل فى الوجود شىء خالص من الشوائب ، أو برىء من المعايب ؟ أم هل هناك خير محض أو شر بحت ؟ الحق أنه لا يوجد فى هذا العالم ماليس فيه وجه للمدح وآخر للقدح . وقد أعطى الجاحظ أكبر قسط من فضل اللَّسَن حتى إنه ما كان يروم وصف شىء كائنا ما كان إلا جلاه عليك فى صورة يعجز غيره من فحول البلاغة وأعيان البيان عن عرضه فى مثلها

ومن المعروف عند أهل الكلام أن المحدث كلما كان أموق كان عند

---

(١) هو الامام أحمد بن عبد الحليم الحرانى المشهور بابن تيمية . كان إمام عصره فى سائر العلوم ، وهو وإن كان حنبلى المذهب إلا أنه كان يرى لنفسه ويعتمد على اجتهاده . وله مصنفات عدة ظاهر فيها التمكن والاجتهاد . ولد بحران سنة ٦٦١ هـ وتوفى سنة ٧٢٨ هـ

العامة وأشباه العامة أنفق ، و إذا كان كثير اللحن والتصحيف كانوا به أوثق ، و إذا ساء خُلقه وكثر غضبه واشتد حدة وعُسرة تهافتوا عليه . وقد كان فى ابن قتيبة شىء من هذا ولا سيما أنه كان به تسرع وتهافت ونهم وجشع ، وكفاك منه أن الرواة أجمعوا على أنه قدمت إليه هريسة ، فلم يصبر عليها حتى تهدأ سخونتها وتتفثأ حرارتها ، بل تناولها وابتلعها فكانت القاضية عليه وذهبت فيها نفسه ، وليس بعد هذا دليل على السخف والرعونة

ونقلوا عن أبى العباس «ثعلب»(١) أنه قال فى بعض مجالسه : أمسكوا عن ذكر الجاحظ فإنه غير ثقة . ولعل من هنا أخذ أبو منصور الأزهرى(٢) قوله : كان الجاحظ روى عن الثقات ماليس من كلامهم ، وكان قد أوتى بسطة فى لسانه ، و بياناً فى خطابه ، ومجالاً واسعاً فى فنونه ، غير أن أهل العلم والمعرفة ذموه ، وعن الصدق دفعوه .

وهذا كلام لا يضير الجاحظ أن يقال فيه مثله ، لأنه لا دليل فيه ولا برهان عليه . وكيف يصح من أبى منصور أن يرسل الكلام هكذا على عواهنه دون أن يشد أركانه بحجة قائمة أو سلطان مبين ؟ !

وهذا البديع الهمذانى(٣) يصف الجاحظ فى إحدى مقاماته بقوله : إن

---

(١) هو أبو العباس احمد بن يحيى ثعلب ، أحد أئمة النحو من الكوفيين وكان عارفا بالشعر والمعانى والغريب . ولد سنة ٢٠٠ هـ وتوفى سنة ٢٩١ هـ

(٢) هو أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى : كان لغوياً أديباً ، أسرته القرامطة فبقى فيهم دهراً ، وهو صاحب كتاب « التهذيب فى اللغة » وكان ثقة فيما يروى من اللغة حجة فيما ينقل فى تهذيبه . ولد سنة ٢٨٢ وتوفى سنة ٣٧٠ هـ

(٣) هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذانى الكاتب الشاعر المشهور . له كتاب المقامات وعلق عليه شرحاً موجزاً الشيخ محمد عبده

الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطف ، وفى الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعراً رائقاً ؟ قلنا : لا . قال : فهلموا إلى كلامه ، فهو بعيد الاشارات ، قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ؛ فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة ؟ أو لفظة غير مصنوعة ؟

وأنا أحتسب قول البديع هذا فى جانب الجاحظ ولا أحسبه عليه ، لأن هذا الوصف قل أن يضطلع به أديب ، أو ينهض به بليغ أريب . ولست أظن فى البديع الجد فى النيل من الجاحظ أو الإفتيات على مقامه فى العلم والأدب ومنزلته فى صنوف البلاغات ، وما أرى ذلك من البديع إلا من باب رياضة اللسان على قوة البيان . وإن كان لم يعد الحق فى وصفه لشعره

ويقول القاضى الباقلانى (١) : قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمت الذى لا يؤخذ فيه ، والباب الذى لا يذهب عنه ، وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريباً ، ومنهاجه معيباً ، ونطاق قوله ضيقاً حتى يستعين بكلام

وكتاب الرسائل وعلق عليه شرحاً الشيخ ابراهيم الأحدب . وديوان شعر صغير . مات سنة ٣٩٨ هـ

(١) هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى البصرى . شيخ من شيوخ العلم والدين نشر بقوة بيانه وفصاحة لسانه وماضى حجته مذهب الأشعرية، وناظر بعض المعتزلة بحضرة عضد الدولة بن بويه الديلمى بشيراز ، ثم أرسله عضد الدولة إلى ملك الروم فى مهم من شؤون الدولة فقام بسفارته خير قيام ، وكان له هناك شأن لفت إليه الأنظار وكان موضع الحفاوة والاكبار، وله مؤلفات عدة أشهرها وأبقاها كتابه « إعجاز القرآن » توفى فى ذى القعدة سنة ٤٠٣ هـ

غيره ، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه من بيت سائر ، وفصل نادر ، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة ، وأما كلامه فى أثناء ذلك فسطور قليلة ، وألفاظ يسيرة ، فإذا أحوج إلى تطويل الكلام خالياً عن شىء يستعين به — فيخلط بقوله من قول غيره — كان كلاماً ككلام غيره . فإن أردت أن تحقق هذا فانظر فى كتبه فى « نظم القرآن » وفى « الرد على النصارى » وفى « خبر الواحد » وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، هل تجد فى ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع أو كلام مليح ؟ على أن متأخرى الكتّاب قد نازعوه فى طريقته ، وجاذبوه على منهجه ، فمنهم من ساواه حين ساماه ، ومنهم من أَبَرَّ عليه إذ باراه . هذا أبو الفضل بن العميد قد سلك مسلكه ، وأخذ طريقه فلم يقصر عنه ، ولعله قد بان تقدمه عليه لأنه يأخذ فى الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه ، ويكملها على شروط صنعته ، ولا يقتصر على أن يأتى بالأسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعله فى كتبه متى ذكر من كلامه سطراً أتبعه من كلام الناس أوراقاً ، وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً ؟

وعبارة الباقلانى كما ترى لا تدل على أنه لا يرى الجاحظ شيئاً وإنما هو بسبيل المقارنة بين كلام الله عز وجل وكلام المخلوقين ، وأى كلام يرتفع على كلام الله سبحانه وتعالى ؟ على أن الباقلانى قد روى عن الجاحظ قول غيره فيه دون أن ينبذه من لدنه بشىء إلا ما قاله عن بعض كتبه الخاصة بما هو معنى به من الكلام على نظم القرآن وإعجازه . وإلا فليس مثل القاضى الباقلانى من تخفى عليه مزايا الجاحظ وخصائصه التى بذّ فيها من تقدمه وأتعب من جرى على أثره ممن تأخر عنه . على أن فى تفضيل الباقلانى لابن

العميد فى بعض ماهو من شأنه على الجاحظ ، مفخرة للجاحظ نفسه، واعترافاً بفضله، وتقديراً لبلاغته، لأن ابن العميد يعد من تلاميذ الجاحظ الذين تخرجوا بكتبه وترسموا خطأه فى بيانه وقوة عارضته وبليغ أسلوبه . ولو كان كتاب الجاحظ فى نظم القرآن بين أيدينا لعرفنا إلى أى مدى كانت استعانة الباقلانى به فى تصنيفه « إعجاز القرآن » لأنه مامن أحد جاء بعد الجاحظ وحاول الكتابة أو التأليف إلا وكان أكثر مادته التى يعتمد عليها إنما هى كتب الجاحظ

الفصل التاسع

في

تخطئته وتصويبه

لم يسلم الجاحظ على سعة علمه ، وبارع فهمه ، وشدة يقظته من الوقوع في الخطأ ، وأي امرئ في الوجود لم يجز عليه السهو ؟ ! قال علي بن يحيى المنجم [١] : قلت للجاحظ : مثلك في علمك ومقدارك في الأدب يقول في كتاب « البيان والتبيين » ويكره للجارية أن تشبه بالرجال في فصاحتها ؟ ألا ترى قول مالك بن أسماء الفزاري [٢] .

أَمُغطى مِنِّى عَلَى بَصَرِي لِلْحُـــبِّ أَمْ أَنْتِ أَكْمَلُ النَّاسِ حُسْنا

وَحَدِيثٍ أَلَذُّهُ هُوَ مِمَّا يَنعَتُ النَّاعِتُونَ يُوزَنُ وَزْنَا

مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَـــانًا وَأَحْلَى الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنَا

---

(١) هو أبو الحسن علي بن يحيى بن منصور ، المنجم النديم . كان من خاصة ندماء المتوكل ومتقدميهم، ثم نادم من بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد . وكان راوية إخباريا شاعراً محسنا ، وله في صنعة الغناء يد طولى ، وكان من حب الخلفاء له وثقتهم به يجلسونه بين يدي أسرتهم ويفضون إليه بأسرارهم ويستودعون صدره أخبارهم ونواياهم . توفي بسر من رأى في آخر أيام المعتمد سنة ٢٧٥ هـ

(٢) هو مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري . وهذه الأسرة من أمجد أسر العرب . وكان مالك من أنبلها : تزوج الحجاج ابن يوسف أخته هند بنت أسماء وولاه أصبهان وله معه حوادث وخطوب . وكان شاعرا بليغا وأميرا سريا غير أنه كان مولعا بالشراب

فتراه من لحن الإعراب ؟ ؟ و إنما وصفها بالظرف والفطنة ، وأنها تلحن أى تُوَرِّى فى لفظها عن أشياء وتتنكب ماقصدت له ؟ !

فقال الجاحظ : فطنت لذلك

فقلت : فغيره

فقال : فكيف لى بما سارت به الركبان ؟

فهو فى كتابه على خطائه .

قال أبو مُحَلِّم (١) تعليقا على هذا : أراد الفزارى بقوله هذا : إن خير الحديث ما أومأت إلىّ به وورت به عن الإفصاح لئلا يعلمه غيرنا . ومثله قول الكِلاَبِي :

وَلَقَدْ لَحَنْت لكُمْ لِكَيما تَفْهَمُوا ... وَوَحَيْتُ وَحياً لَيْسَ بِالْمُرْتاب

ومنه قوله تعالى « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فى لَحْنِ القَوْلِ » أي فيما يتوحونه بينهم من النفاق والطعن

وقد وقفت على قول لأبى حيان التوحيدى يبرر به ماذهب إليه الجاحظ أول مرة قال :

وعندى أن المسألة محتملة للكلام ، لأن مقابل المنطق الصائب المنطق الملحون ، واللحن من الغوانى والفتيات غير منكور ولامكروه، بل يُستحب ، لأنه بالتأنيث أشبه ، وللشهوة أدعى ، ومع الغزل أجرى . والإعراب جد ، وليس الجد من التغزل والتعشق والتشاجى فى شىء . وعلى مذهب على

---

(١) هو أبو محلم محمد بن سعد (وفى اسمه خلاف بين الرواة) السعدى الشيبانى . أصله من الفرس ، ومولده بفارس ثم انتسب إلى بنى سعد . كان من أعلم الناس باللغة والشعر قوى الحافظة شديد الذاكرة ، وكان يغلظ طبعه ويفخم كلامه . توفى سنة ٢٤٨ هـ

ابن يحيي أن المنطق الصائب هو الكلام الصريح، وأن اللحن هو التعريض، وأنها تعرف هذا وهذا ، فهب أن هذا المعنى مقبول ، لم ينبغى أن يكون المعنى الآخر لهوجا ومردوداً ؟ ؟ وقد يجوز أن يكون مراد الشاعر ذاك ، لأن الشاعر يشعر بهذا كما يشعر بهذا .

ولم يصنع أبو حيان بملاحظته هـذه أكثر من أنه صوب الرأيين ، وبرّر المعنيين ، على تكلف فيما جاء به ، دفعه إليه تعصبه للجاحظ ، وافتتانه به ، وغيرته عليه :

وخطأه المسعودى فى الجغرافيا فقال : زعم الجاحظ أن نهر مكران الذى هو نهر السند ، من النيل ؟ ! ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه . فلست أدرى كيف وقع له هـذا الدليل ؟ وذكر ذلك فى كتابه « الأمصار » وهو كتاب فى نهاية الغثاثة ، لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا تعرف المسالك والأقطار ، وإنما هو حاطب ليل ، ينقُل عن كتب الوراقين .

ولا شك فى أن المسعودى مصيب فى هذه المسألة لأنها مما اختص به من العلوم والمعارف ، ولا ضير على الجاحظ من الخطأ فيما ليس من شأنه ، وإن كان تعرضه لما لايحسن غير لائق بمثله . والظاهر أن تعرض المسعودى للجاحظ بهذه الصورة كان قصاصا وقع على الجاحظ لتعرضه للخليل بن أحمد[١] فى شىء من هذا الضرب . فقد كان الجاحظ قال عنه فى كتابه فى تفضيل صنعة الكلام ، وهى الرسالة المعروفة بالهاشمية :

---

(١) هو الخليل بن احمد الأزدى . كان غاية فى الذكاء والفطنة وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعار العرب . وكان زاهداً متورعا وله شعر قليل، وهو أول من وضع كتابا فى اللغة اسمه « العين » مات سنة ١٧٠ هـ

إن الخليل بن احمد من أجل إحسانه فى النحو والعروض ، وضع كتابا فى الايقاع وتراكيب الأصوات ، وهو لم يعالج وتراً قط ، ولا مس بيده قضيبا قط ، ولا كثرت مشاهدته للمغنين . وكتب كتابا فى الكلام، ولو جهد كل بليغ فى الأرض آن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك، ولو ان ممرورا استفرغ قوى مرته فى الهذيان لما تهيأ له مثل ذلك ، ولا يتأتى مثل ذلك لأحد إلا بخذلان من الله الذى لا يقى منه شىء . قال : ولو لا أن أسخف الكتاب وأهجن الرسالة وأخرجها من حد الجد إلى حد الهزل لحكيت صدر كتابه فى التوحيد و بعض ما وضعه فى العدل . قال : ولم يرض بذلك حتى عمد إلى الشطرنج فزاده فى الدولاب حملا فلعبت به أناس من حاشية الشطرنجيين ثم رموا به

والجاحظ فى هذا قد آخذ الخليل بما هو من خاصة معارفه ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بعلم الكلام والتوحيد والعدل . أما ما آخذه به من غير ذلك فهو من عامة معلوماته وفنونه ولكن « الجروح قصاص »

الفصل العاشر
فى
مقامه لدى العارفين بمناقبه

أما مقامه لدى عارفى فضله ، ومنزلته فى نظر أهل التحقيق ، فليس يُعد من المبالغة فى شىء إذا قيل إنه سيد كتّاب العربية بلا منازع ، وشيخ أدباء العرب بلامدافع ، ومن البدائه أن يوصف بأنه إمام ذوى اللسن والبيان ، وعميد أهل الفصاحة والتبيان ، وأنه كان على مناقب قلما جاراه فيها غيره من أهل العلم والأدب وأرباب الحكمة والفلسفة . فقد سمت به همته ، وعلت به معارفه إلى أن صار من مفاخر الاسلام ، بل من محاسن العربية الذين يتنافس أعلام الرجال بالانتساب إليهم . وقد وضع أبو حيان التوحيدى فيه كتابا أسماه « تقريظ الجاحظ » لم نطلع عليه ، ولعله باد فيما باد من كتب القدماء ، غير أن ياقوت قد روى لنا منه هذه الكلمة العجيبة عن أبى حيان قال : حدثنى أبو سعيد السيرافى (١) — وَ هَمُّكَ من رجل ، وناهيك

(١) هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله (بهزاد) السيرافى أحد أكابر الأدباء وأفاضل المتكلمين . قال عنه أبو حيان التوحيدى فى كتابه تقريظ الجاحظ : شيخ الشيوخ وإمام الأئمة معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافى والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة ، أفتى فى جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبى حنيفة فما وجد له خطأ ولا عثر له على زلة ، وقضى ببغداد . هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرزانة ، صام أربعين سنة أو أكثر الدهر . قلت : وقد ناظر متى بن يونس المنطق فى المفاضلة بين النحو والمنطق فأظهر قوة فى الجدل واستثارة

من عالم ، وشَرْعَكَ من صَدُوق ، قال : حدثنا جماعة من الصابئين الكتاب أن ثَابِتَ بْنَ قُرَّةَ قال [١] :

ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس :

أولهم — عمر بن الخطاب فى سياسته ويقظته ، وحذره وتحفظه ، ودينه ويقينه ، وجزالته وبذالته ، وصرامته وشهامته ، وقيامه فى صغير أمره وكبيره بنفسه ، مع قريحة صافية ، وعقل وافر ، ولسان عضب ، وقلب شديد، وطوية مأمونة ، وعزيمة مأمومة ، وصدر منشرح ، وبال منفسح ، وبديهة نضوح ، وروية لقوح ، وسر طاهر ، وتوفيق حاضر ، ورأى مصيب ، وأمر عجيب ، وشأن غريب ، دعم الدين وشيد بنيانه ، وأحكم آساسه ورفع أركانه ، وأوضح حجته وأنار برهانه ، مَلَكٌ فى زِى مِسكين ؛ ماجنح فى أمر إلى وَنَا ، ولا غض طرفه على خنا ، ظِهارته كالبِطانة ، وبطانته كالظهارة ، جرح وأسا ، ولان وقسا ، ومنع وأعطى ، واستخذى وسطا . كل ذلك فى الله ولله . لقد كان من نوادر الرجال

والثانى — الحسن بن أبى الحسن البصرى [٢] ، فلقد كان فى درارى

الحجة وبراعة فى مقارعة الخصم تفوق كل براعة . وقد أتينا عليها فى كتاب المقابسات . ومات سنة ٣٦٨ ﻫ

(١) هو أبو الحسن ثابت بن قرة الصابى الحرانى الشهير : كان طبيباً فيلسوفا ذا فضائل ، وكان فصيحا مبينا ذا حكمة وأدب عالى القدر بعيد الهمة وافر الحرمة سريا نبيلا . ولد سنة ٢٢١ﻫ وتوفى ببغداد سنة ٢٨٨ ﻫ

(٢) هو أبو سعيد الحسن بن أبى الحسن البصرى . وقد أنشأنا له ترجمة نشرنا خلاصتها فى جريدة السياسة الأسبوعية بعددها الصادر فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٨ وسننشرها فى كتابنا «شيوخ المعتزلة ومذاهبهم» الذى سنصدره بعد هذا الكتاب إن شاء الله تعالى

النجوم علما وتقوى ، وزهدا وورعا ، وعفة ورقة ، وتألُّها وتنزها ، وفقها ومعرفة ، وفصاحة ونصاحة ، مواعظه تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول، وما أعرف له ثانيا ، لا قريبا ولا مدانيا . كان منظره وفق مَخبره ، وعلانيته فى وزن سريرته . عاش سبعين سنة لم يُقْرِفْ بمقالة شنعاء ، ولم يُزَنَّ بريبة ولا فحشاء . سليم الدين ، نقىُّ الأديم ، محروس الحريم . يجمع مجلسه ضروبا من الناس ، وأصناف اللباس ، لما يوسعهم من بيانه ، ويفيض عليهم بافتنانه . هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقن منه التأويل ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام ، وهذا يتبع فى كلامه ، وهذا يجرد له المقالة ، وهذا يحكى له الفُتْيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة . وهو فى جميع هذا كالبحر العجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج تألُّقاً ، ولا تنس مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عند الأمراء وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل ، والصدر الرحب ، والوجه الصُّلب ، واللسان العضب ، كالحجاج (١) وفلان وفلان ، مع شارة الدين ، وبهجة العلم ، ورحمة التقَى . لا تثنيه لائمة فى الله ، ولا تُذهله رائعة عن الله . يجلس تحت كرسيه قَتَادَةُ (٢) صاحب التفسير ، وعَمْرُو وَوَاصِل (٣) صاحبا الكلام ،

---

(١) هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفى ، أسد الدولة المروانية وموطد دعائمها ومثبت أركانها ومحكم أساسها ، ولولا مواقفه المشهورة وسياسته الدكتاتورية لاكتسح الخوارج دولة بنى مروان ولأصبحت فى خبر كان . فهو من بناة الدول وله حوادث وأخبار هى مما يزدان به الأدب العربى . مات سنة ٩٥ ﻫ

(٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسى البصرى الأكمه : كان من أفاضل التابعين ، مقصود الجناب يحمل علمه إلى الآفاق ، وكان قدريا على مذهب المعتزلة قيل هو الذى سماهم بهذا الاسم . تصدر فى مجلس الحسن البصرى بعد وفاته وانتهج منهجه وكان على عماه يدور البصرة أعلاها وأسفلها بغير قائد . توفى بواسط سنة ١١٧ ﻫ

(٣) عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء هما زعيما المعتزلة وشيخا أهل الاعتزال .

وابن أبى اسحق [١] صاحب النحو ، وفرقد السبخى [٢] صاحب الرقائق ، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم . فمن ذا مثله ، ومن ذا يجرى مجراه ؟ ؟

والثالث — أبو عثمان الجاحظ ، خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومدره المتقدمين والمتأخرين . إن تكلم حكى سحبان [٣] البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام فى الجدل ، وان جد خرج فى مسك عامر بن عبد قيس [٤] وإن هزل زاد على مزبد [٥] حبيب القلوب ومراح الأرواح . شيخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة . مانازعه منازع الا رشاه آنفا ، ولا تعرض له متعرض إلا قدم له التواضع استبقاء . ألخلفاء

وواضعا مذهب العدل والتوحيد ، ومقررا أصول الاعتزال . وسترى ترجمتهما مستفيضة . فى كتابنا « شيوخ المعتزلة ومذاهبهم » الذى سنصدره بعد هذا الكتاب إن شاء الله تعالى

(١) هو أبو بحر عبد الله بن أبى إسحق الحضرمى بالولاء . كان إماما فى النحو وهو أول من وضع علله وجرد أقيسته . وكان لا يرى التسليم فى كل ما جاء عن العرب . وله مع الفرزدق الشاعر أخبار وحوادث . مات سنة ١١٧ هـ

(٢) هو أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخى . أصله من أرمينية وانتقل إلى البصرة وصاحب الحسن البصرى وأخذ عنه ، وكان من الزهاد المتنسكين مات سنة ١٣١ هـ

(٣) هو سحبان وائل الخطيب العربى المشهور . راجع ترجمته فى شرحنا على كتاب « البيان والتبيين »

(٤) هو عامر بن عبد قيس . كان من بلغاء الزهاد وفصحاء النساك . وكان يغزو متطوعا . وقد ترجمناه فى شرحنا على « البيان والتبيين »

(٥) هو أبو إسحق مزبد المدنى . كان صاحب نوادر وفكاهات ، سريع الخاطر حسن البادرة كثير الدعابة . وقد ترجمناه فى شرحنا على كتاب « المقابسات » وذكرنا له كثيراً من نوادره وفكاهاته

تعرفه ، والأمراء تصفه ، و [الملوك] تنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه . جمع بين اللسان والقلم ، و بين الفطنة والعلم ، و بين الرأى والأدب ، و بين النثر والنظم ، و بين الذكاء والفهم . طال عمره وفشت حكمته ، ووطىء الرجال عقبه ، وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب إليه ، ونجحوا بالاقتداء به . لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب

قال أبو حيان : هذا قول ثابت ، وهو قول صابىء لا يرى للاسلام حرمة ، ولا للمسلمين حقا ، ولا يوجب لأحد منهم ذماما . قد انتقد هذا الانتقاد ، ونظر هذا النظر ، وحكم هذا الحكم ، وأبصر الحق بعين لا غشاوة عليها من الهوى ، ونفس لا لطخ بها من التقليد ، وعقل ما تحيل بالعصبية . ولسنا نجهل مع ذلك فضل غير هؤلاء من السلف الطاهر ، والخلف الصالح . ولكنا عجبنا فضل عجب من رجل ليس منا ، ولا من أهل ملتنا ولغتنا ، ولعله ما خبر عمر بن الخطاب كل الخبرة ، ولا استوعب ما للحسن من المَنْقِبة ، ولا وقف على جميع ما لأبى عثمان من البيان والحكمة . يقول هذا القول ، و يعجب هذا العجب ، ويحسد أمتنا بهم هذا الحسد ، ويختم كلامه بأبى عثمان و يصفه بما يأبى الطاعن عليه أن يكون له شيء منه ، و يغضب إذا ادعى ذلك له ، وأنه للموفر عليه ! ! هل هذا الا الجهل الذى يرحم المبتلى به . . . . ! !

قلت : الظاهر أن أبا حيان بلغه إطراء عن ثابت لهؤلاء الرجال الثلاثة أو قرأ فصلا له فى شىء من مناقبهم ، فتمثل هذا الإطراء وتصور تلك المناقب وصاغها فى هذا الأسلوب البارع ونسبه إلى ذلك الحكيم الصابىء ، ليكون لهذه الكلمة شأنها من المنزلة الرفيعة ومقدارها من المكان الجليل متى نسبت الى رجل من أكابر الصابئة ، لا ينتظر أن يعنى كثيرا بهذه الناحية

من رجال الاسلام . وان كان المعروف عن ثابت أنه كان من خواص أهل الفصاحة والحكمة والبيان

وقال أبو حيان : قلت لأبى محمد الأندلسى [١] — وكان فى عداد أصحاب السيرافى — : قد اختلف أصحابنا ، فى مجلس أبى سعيد السيرافى ، فى بلاغة الجاحظ وأبى حنيفة [٢] صاحب النبات ، ووقع الرضى بحكمك ، فما قولك ؟

فقال : أنا أحقر عن الحكم لهما أو عليهما

فقلت : لا بد من قول !

فقال : أبو حنيفة أكثر نداوة . وأبو عثمان أكثر حلاوة ، ومعانى أبى عثمان لائطة بالنفس ، سهلة فى السمع . ولفظ أبى حنيفة أعذب وأعرب ، وأدخل فى أساليب العرب

قال أبو حيان : والذى أقوله وأعتقده وآخذ به وأستهام عليه ؛ أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان فى تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم ، وعلمهم ، ومصنفاتهم ، ورسائلهم ، مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها ، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم :

هذا الشيخ الذى أنشأنا له هذه الرسالة و بسببه جُشمنا هذه الكلفة ، أعنى أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن حمود الزبيدى الأندلسى . قال الصفدى : كان من فرسان النحو واللغة والشعر ، وكان مغرى بكلام الجاحظ حتى إنه كان يقول : رضيت فى الجنة بكتب الجاحظ عوضا عن نعيمها . وكان من أصحاب أبى سليمان المنطق وأبى سعيد السيرافى

(٢) هو أبو حنيفة احمد بن داود بن وتند الدينورى . كان قيما بعلوم شتى ، وقد نال شهرة واسعة بكتابه الذى ألفه فى النباتات . وكان من نوادر الرجال الذين جمعوا بين آداب العرب ومعارف الأقدمين . مات سنة ٢٨٢ هـ

والثانى — أبو حنيفة الدينورى ، فإنه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة و بيان العرب ، له فى كل فن ساق وقدم ، ورواء وحكم . وهذا كلامه فى « الأنواء » يدل على حظ وافر من علم النجوم وأسرار الفلك . فأما كتابه فى « النبات » فكلامه فيه فى عُروض كلام أبدىٍّ بدوىٍّ ، وعلى طِباع أفصح عربى . ولقد قيل لى : إن له فى « القرآن » كتابا يبلغ ثلاثة عشر مجلدا ، ما رأيته ، وأنه ما سبق إلى ذلك النمط . هذا مع ورعه وزهده وجلالة قدره . وقد وقف الموفق (١) عليه وسأله [فيه] وتحفى به

والثالث — أبو زيد أحمد بن سهل البلخى ، فانه لم يتقدم له شبيه فى الأعصر الأول ، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر . ومن تصفح كلامه فى كتابه « أقسام العلوم » وفى كتابه « أخلاق الأمم » وفى كتابه « نظم القرآن » وفى كتابه « اختيار السيرة » وفى رسائله إلى إخوانه وجوابه يسأل عنه و يبده به ، علم أنه بحر البحور ، وأنه عالم العلماء ، وما رؤى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه . و إن القول فيه لكثير . ولو تناصرت إلينا أخبارهما لكنا نحب أن نفرد لكل واحد منهما تقريظا مقصورا عليه ، وكتابا منسوبا إليه ، كما فعلت بأبى عثمان

وقال ياقوت : كان يقال : إتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمى العالم ثلاثة : الجاحظ ، وعلى بن عبيدة (٢) وأبو زيد البلخى :

(١) هو أبو أحمد الموفق طلحة بن الخليفة جعفر المتوكل العباسى . كان صاحب الشأن الأعلى فى دولة أخيه المعتمد على الله ، وإليه المرجع فى كل الأمور ، ولولاه لاكتسح الزنج دولة آل العباس . مات سنة ٢٧٨ ه

(٢) هو على بن عبيدة الريحانى الكاتب . كان حاد الذكاء قوى الفطنة وكان من خاصة المأمون ، بليغا فصيحا له تآليف على منهج الحكماء .

فمنهم من يزيد لفظه على معناه ، وهو الجاحظ

ومنهم من يزيد معناه على لفظه ، وهو على بن عبيدة

ومنهم من توافق لفظه ومعناه ، وهو أبو زيد

مع أن ياقوت روى أيضا أنه كان يقال لأبى زيد « جاحظ خراسان » وكفى جلالة وفخرا للجاحظ أن ينسب إليه أبو زيد البلخى

وكان الأستاذ الرئيس أبو الفضل ابن العميد من المعجبين بالجاحظ ، المولعين به ولعا شديدا ، المقدرين له تقديرا صحيحا ، المتوفرين على كتبه ومصنفاته ، المغترفين من بحار علومه وآدابه ، الذاهبين مذهبه فى أسلوبه وكتابه ، حتى لقد كان يعجبه أن يلقب « بالجاحظ الثانى » وكان من عظم تقديره له ، وامتلاء صدره بجلالته وفضله ، إذا طرأ عليه أحد من منتحلى العلوم ومصطنعى الآداب وأراد امتحان عقله سأله عن :

(١) بغداد ، فإن فطن لخواصها ، وتنبه لمحاسنها ، وأثنى عليها . جعل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله . ثم سأله عن :

(٢) الجاحظ ، فإن وجد لديه أثرا لمطالعة كتبه ، والاقتباس من نوره ، والاغتراف فى بحره ، وبعض القيام بمسائله ، قضى له بأنه غُرة شادخة فى جبين أهل العلم والأدب . وإن وجده ذاما لبغداد ، غفُلا عما يجب أن يكون موسوما به من الانتساب إلى المعارف التى تخصص بها الجاحظ ، لم ينفعه بعد ذلك شىء من المحاسن

وحدث أبو القاسم السيرافى فقال :

حضرنا مجلس الأستاذ أبى الفضل ابن العميد الوزير ، فجرى ذكر

ورماه بعضهم بالزندقة وليس كذلك بل كان من أفاضل المعتزلة . وقالوا إن له مؤلفات عدة أكثرها فى القصص والنوادر

الجاحظ ، فغض بعض الحاضرين منه وأزرى به ، وسكت الوزير عنه ، فلما خرج الرجل قلت له : سَكَتَّ أيها الأستاذ عن هذا الرجل فى قوله ، مع عادتك فى الرد على أمثاله ؟ ! فقال : لم أجد فى مقابلته أبلغ من تركه على جهله ، ولو واقفته و بينت له لنظر فى كتبه وصار بذلك إنسانا يا أبا القاسم ، فَكُتُبُ الجاحظ تُعلم العقل أولا ، والأدب ثانيا ، ولم أستصلحه لذلك ؟ !

قلت : وهذا تصرف من ابن العميد غريب ، فقد ضن على هذا الرجل بالأرشاد إلى ما يُقوم عقله ويُرهف حد أدبه ! ولست أدرى إذا كان هذا من بواعث الحقد وعوامل الضغن ، أو كان من لؤم الطبع وخسة النحيزه ، أو من حوافز الغيرة على العلم والعمل على صيانته من الابتذال للسفلة والأوغاد !

وقال ابن العميد : ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس :

أما الفقه ، فعلى أبى حنيفة (١) لأنه دَوَّنَ وَخَلَّدَ ما جعل من يتكلم فيه بعده مشيرا إليه ، ومخبرا عنه

وأما الكلام ، فعلى أبى الهذيل العلاف (٢)

وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة ، فعلى أبى عثمان الجاحظ

ومن طريف ما يروى فى هذا الباب ما تحدث به أبو محمد الحسن بن عمرو النجيرمى قال :

---

(١) هو الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت. شيخ العراقيين، وواضع مذهب أهل الرأى ، والداعى إلى القياس فى الشرع . وهو أشهر من أن يعرف . مات سنة ١٥٠ ﻫ

(٢) هو أبو الهذيل العلاف البصرى . كان من أكابر المعتزلة وأفاضل أهل الكلام . صاحب علم ونظر ومقالات وجدل، وواسع الاطلاع على كتب الأقدمين فى المنطق والفلسفة وغيرهما . وقد ترجمناه فى كتابنا «شيوخ المعتزلة ومذاهبهم» الذى سنصدره قريبا إن شاء الله تعالى

كنت بالأندلس ، فقيل لى : إن ههنا تلميذا لأبى عثمان الجاحظ ، يعرف بِسَلَّام بن يزيد ، ويكنى أبا خلفٍ . فأتيته فرأيت شيخاً هِمًّا ، فسألته عن سبب اجتماعه مع أبى عثمان ، ولم يقع أبو عثمان إلى الأندلس ؟ فقال :

كان طالب العلم بالمشرق يَشْرُفُ عند ملوكنا بلقاء أبى عثمان . فوقع إلينا كتاب «التربيع والتدوير» له ، فأشاروا إليه . ثم أردفه عندنا كتاب «البيان والتبيين» له ، فبلغ الرجل الصُّكاك[1] بهذين الكتابين . قال : فخرجت لا أعرج على شىء حتى قصدت بغداد ، فسألت عنه ، فقيل لى : هو بِسُرَّ مَنْ رأى . فأصعدت إليها ، فقيل لى : قد انحدر إلى البصرة . فانحدرت إليها ، وسألت عن منزله فأُرشدت ودخلت إليه ، فإذا هو جالس وحواليه عشرون صبيا ليس فيهم ذو لحية غيره . فَدُهِشْتُ . فقلت : أيكم أبو عثمان ؟ فرفع يده وحركها فى وجهى . وقال:

من أين ؟

قلت : من الأندلس

فقال : طِينَةٌ حمقاء . فما الإسم ؟

قلت : سَلَّام

فقال : إسم كلب القراد . إبن من ؟

فقلت : إبن يزيد

فقال : بحق ماصرت ! أبو من ؟

فقلت : أبو خلف

فقال : كنية قرد زُبَيْدَةَ . ما جئت تطلب ؟

(١) الصكاك : عنان السماء

فقلت : العلم

فقال : إرجع بِوَقْتٍ فإنك لا تُفلح

فقلت له : ما أنصفتنى ! فقد اشتملت على خصال أربع : جفاء البلدية، وبعد الشقة ، وغِرة الحداثة ، ودهشة الداخل

فقال : فترى حولى عشرين صبيا ليس فيهم ذو لحية غيرى ، كان يجب أن تعرفنى بها ! !

قال : فأقمت عليه عشرين سنة

قلت : ولقد أصاب الجاحظ فيما وصف به إقليم الأندلس من أنه طينة حمقاء ، فانه لم يكن له قبل دخول العرب اليه تاريخ يعتد به ويشرف المنتسب إليه ، ولا عرفت له مدنية يصح ذكرها ، ولا حضارة بادٍ أثرها ، وهؤلاء العرب حينما افتتحوه حملوا إليه عقولا وافرة ، وأذهاناً صافية ، وعلوماً صالحة وحضارة نافعة ، وهمة متوثبة . وفى الحق أنهم حملوا إليه جراثيم الحياة وأصول العمران ، ونهضوا به نهوضاً لفت الأنظار إليه . وأمال الأعناق نحوه . وأثّلوا فى ربوعه قواعد المدنية ، وأقروا فى أنحائه أركان الحضارة ومعالم الانسانية . فلما تراخى بهم الزمن ، وتناءت بهم الأيام ، تغلب طبعه عليهم وثارت ثائرة رعونته فيهم ، وحمقه عليهم ، فسلب منهم روح الهمة ، وأضعف فيهم قوة العزيمة ، وأزاح عنهم عوامل النشاط ، وأخذ بخنقهم فأخضعهم لسلطان الضعف والانحلال ، وشاعت فيهم شوائع الحماقة وذرائع الجهالة . وما زالت بواعث الاضمحلال تعمل فيهم حتى جاءهم من هم أشد منهم حمقاً وأعرق منهم رعونة . فانتزعوه منهم رغم أنوفهم .

وهل فى الوجود أشد حُمقاً من الاسبان ؟ ! ها هم فى رقعتهم من الأرض طوال هذا الزمن ، وقد نهضت من حولهم كافة العناصر الأوربية ،

وتحركت سائر الشعوب حتى البربر منها إلى الحياة المرموقة ، والعزة الموموقة ، وهم هم مايزالون من أهل القرون الوسطى فى نوع تعقلهم وطرق تفكيرهم . ولولا أنهم يدينون بما تدين به الممالك الأوربية لسيرت عليهم أساطيلها ، ولجيَّشت نحوهم جيوشها ، ولبعثت فى آفاقهم أسراب طياراتها ، ولا كتسحتهم وألقت بهم فى قاع اليم منددهر . فوصف الجاحظ لإقليم الأندلس بأنه طينة حمقاء ، قد أقره الزمن ، وصدقته الأيام

ومدحه أبو اسحق النظام بقوله[1]:

حُبِّى لِعَمْرٍو جَوْهَرٌ ثابتٌ   وحُبُّهُ لى عَرَضٌ زائلُ
بِهِ جِهاتِى السِّتُّ مشغولةٌ   وَهْوَ إلى غيْرِى بها مائلُ

---

(١) قد سرق هذين البيتين «ابن التلميذ الطبيب» وهو من الاطباء الشعراء البلغاء — وكان خاصا بالخليفة المقتفى . توفى سنة ٥٦٠ هـ — وجعلهما فى ولده سعيد فقال :

حبى سعيد جوهر ثابت   وحبه لى عرض زائل
به جهاتى الست مشغولة   وهو إلى غيرى بها مائل

الفصل الحادي عشر

في

شهرة مصنفاته في الآفاق

لعله لم يُعرف كاتب فى العربية ، لاقت مؤلفاته من واسع الشهرة وفائق الذيوع ، مالاقت كتب الجاحظ ، على كثرتها وتنوع المقاصد والأغراض فيها ، ومن المعروف أنه كان كلما وضع كتابا أو رسالة تهافت الناس على كَتْبِها ونَسخها وتداولها فيما بينهم ، وبادروا إلى الحرص على حفظها واستظهارها كأثمن ما يحرص الانسان عليه من نفائس الأشياء . وكانت مجالس العلماء ومحافل الأدباء ، فى الأقطار العربية ، لاتكاد تخلو من ذكر الجاحظ ومصنفاته ، والنظر فى آرائه ومعانيه وصنوف بلاغاته ، بالأخذ والرد والجذب والدفع . وقلما سقط له كتاب فى بلد أو فى مصر إلا أقبل الناس على دراسته ، وإلا اتخذوا منه مدرسة يتخرجون فيها فى ضروب من الآداب وألوان من الجدل والنظر والكلام .

ومن أكبر الدلائل على ذلك ما رواه أبو حيان التوحيدى قال : ومن عجيب الحديث فى كتبه ما حدثنا به على بن عيسى النحوى [1] الشيخ

---

(١) هو أبو الحسن على بن عيسى بن عبد الله الرمانى . وكان يعرف بالأخشيدى وبالوراق ، لكن الشهرة بالرمانى هى الغالبة . كان أحد مشاهير الأئمة فى مختلف العلوم ، وكان متكلما على مذهب المعتزلة أهل العدل والتوحيد . قال أبو حيان : لم ير مثله قط بلا تقية ولا تحاش ولا اشمئزاز ولا استيحاش علما بالنحو ، وغزارة فى الكلام ، وبصرا بالمقالات ، واستخراجا للعويص ، وإيضاحا للمشكل ، مع تأله وتنزه ودين ويقين وفصاحة وفقاهة

الصالح ، قال سمعت ابن الاخشيد شيخنا أبا بكر يقول :

ذكر أبو عثمان فى أول كتاب « الحيوان » أسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست . ومربى فى جملتها كتاب « الفرق بين النبى والمتنبى » وكتاب « دلائل النبوة » وقد ذكرهما هكذا على التفرقة ، وأعاد ذكر « الفرق » فى الجزء الرابع لشيء دعاه إليه . فأحببت أن أرى الكتابين ، ولم أقدر إلا على واحد منهما ، وهو كتاب « دلائل النبوة » وربما لقب « بالفرق » خطأً . فهمنى ذلك وساءنى سوء ظفرى به . فلما شخصت من مصر ودخلت مكة — حرسها الله تعالى — حاجا أقمت مناديا بعرفات ينادى — والناس حضور من الآفاق على اختلاف بُلدانهم ، وتنازح أوطانهم ، وتباين قبائلهم وأجناسهم ، من المشرق إلى المغرب ، ومن مهب الشمال الى مهب الجنوب ، وهو المنظر الذى لا يشابهه منظر — : رحم الله من دلنا على كتاب « الفرق بين النبى والمتنبى » لأبى عثمان الجاحظ ، على أى وجه كان . قال : فطاف المنادى فى ترابيع عرفات وعاد بالخيبة وقال : حجت الناس مِنًى ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به

قال ابن الأخشيد : و إنما أردت بهذا أن أبلغ نفسى عذرها

وقد علق ياقوت مدون هذا الخبر عليه بقوله : وحسبك بها فضيلة لأبى عثمان أن يكون مثل ابن الأخشيد — وهو هو فى معرفة علوم الحكمة وهو رأس عظيم من رؤوس المعتزلة — يستهام بكتب الجاحظ حتى ينادى عليها بعرفات والبيت الحرام . وهذا الكتاب موجود فى أيدى الناس اليوم لا تكاد تخلو خزانة منه . ولقد رأيت أنا منه نحو مائة نسخة أو أكثر

وعفاف ونظافة . وله ذكر كثير فى كتاب المقابسات . ولد سنة ٢٧٩ وتوفى سنة ٣٨٤ هـ

ومن أشف وأطرف ما روى فى هذا الباب ما تحدث به ابن مِقْسَم (١) قال : قيل لأبى هَفَّان — وقد طال ذكر الجاحظ له — : لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك ؟

فقال : أمثلى يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة !

ومن المفاخر التى استأثر بها الجاحظ فى كتبه ماقرره القاضى الفاضل (٢) فى كلام له حيث قال : أما الجاحظ فما منا معاشر الكتاب إلا من دخل من كتبه الحاره ، وشن [عليها] الغاره ، وخرج على كتفه منها كاره

ومثل القاضى الفاضل لايستهان بقوله . ولا يزرى على اعترافه الصادق وهو سيد كتاب العربية فى عصره ، وشيخ ساسة الدولة الايوبية على عهد صلاح الدين . فهو يقرر أن جمهرة الكتاب من عهد الجاحظ حتى عهده انتفعوا بكتب الجاحظ وتخرجوا بها واستفادوا منها ، وكانت لهم على عباراتها ومعانيها ومختلف أغراضها غارات وسطوات يحلون بأسلابها مايضعون من

(١) هو أبو بكر محمد بن الحسن العطار . عرف « بابن مقسم » كان من القراء والنحاة ، عالما بالعربية حافظا للغة وقد أخذ بالشذوذ فى بعض قراءاته . وقد ذكروا له مصنفات عدة . كان مولده سنة ٢٦٥ ﻫ وتوفى سنة ٣٥٥ ﻫ

(٢) هو أبو على عبد الرحيم القاضى الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبى وصاحب تدبيره ورأس ساسته . وكان أبلغ أهل زمانه قلما ، وأفصحهم لسانا ، وأحدهم ذهنا ، كاتبا بينا ، وشاعرا محسنا ، وسائسا داهيا ، ومدبرا عاقلا ، شد أركان الدولة الايوبية ونهض بأعبائها واضطلع بشؤونها على خير الوجوه . وله أحداث وأخبار ونوادر مما يتزين به الأدب وتلقح به الاذهان . ولد بعسقلان سنة ٥٢٩ ﻫ وتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٦ ﻫ

كتب ، ومايشئون من رسائل ، وما يصنفون من أسفار

قلت : وكان أهل البصرة يفاخرون أهل الكوفة بمؤلفات رجالهم ، وأهل الكوفة يفاخرون أهل البصرة بمالهم فى ذلك أيضا . ففى رواية أبى بكر الخطيب البغدادى أن البصريين فاخروا الكوفيين بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان للجاحظ ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل . وفاخر الكوفيون البصريين بكتاب محمد بن الحسن (صاحب أبى حنيفة) عمله فى سبع وعشرين ألف مسألة قياسية عقلية فى الحلال والحرام لا يسع الناس جهلها ، وكتاب المعانى للفراء ، وكتاب المصادر فى القرآن ، وكتاب الوقف والابتداء فيه ، سوى باقى الحدود . قالوا : ولنا واحد أملى من الأخبار مثل كل كتاب ألف البصريون ، وهو ابن الأعرابى ، وكان أوحد الناس فى اللغة

وقال أبو القاسم الاسكافى : استظهارى على البلاغة بثلاثة : القرآن ، وكلام الجاحظ ، وشعر البحترى [1]

وذكرت متنزهات الدنيا بين يدى ابن دريد [2] فقال : هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : وما هى ؟ قال : كتب الجاحظ ، وأشعار المحدثين ، ونوادر أبى العيناء

وقال أبو محمد الأندلسى : رضيت فى الجنة بكتب الجاحظ عن نعيمها

---

(١) هو أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى الشاعر المشهور الغنى بشهرته وبعد صيته عن الوصف والتعريف . ولد سنة ٢٠٣ هـ وتوفى سنة ٢٨٤ هـ

(٢) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدى عالم الشعراء وشاعر العلماء الأديب الفاضل صاحب التصانيف الفائقة والمؤلفات البارعة فى فنون اللغة والأدب . توفى ببغداد سنة ٣٢١ هـ

الفصل الثاني عشر

فى

تحقيقه للعلم ووفوده على مصر

ما أحسب العالم جديرا بسمة هذا الاسم الشريف إلا إذا قام علمه على أساس متين من البحث والتحقيق، ونهض على دعامة صحيحة من الاستقراء والتمحيص. كذلك لا أرى الأديب حقيقا باسم الأدب إلا إذا شاد أركان أدبه على قواعد من الحفظ وسعة الرواية و بسطة الإطلاع وكثرة الافتنان، وجعل قوامه الذوق السليم. وقد أثبتت الدلائل وقامت البرهانات وتكافأت الحجج التى يخطئها العد على أن الجاحظ كان فرد زمانه فى الأدب، بل كان واحد الدهر فى سائر فنونه ومتنوع ألوانه، غير أنى لم أكد أعثر على كاتب فى قديم الزمن وحديثه ممن عرض لبسط حياته والكتابة عنه قد أشار إلى أنه كان ممن يعنى بالمسائل العلمية على طريق أهل البحث والنظر وعلى سبيل أصحاب الاستقراء وقفو الأثر، أو أنه رحل إلى الآفاق لاجراء تجارب فى علم الحيوان أو غيره من الشؤون التى أرسل قلمه فى بسطها وإيضاحها، وكد ذهنه فى الإبانة عنها والإفصاح عن أسبابها وعللها. وكان المفهوم أنه فى كتابه «الحيوان» قد جعل أكبر اعتماده فى تأليفه على ما كتبه العلماء الأقدمون أمثال أرسطو (١) وغيره، يمازج ذلك بعض ما نقل

---

(١) هو ارسطاليس بن نيقوماخوس. أعظم فلاسفة القدم صاحب الفضل الاكبر على الانسانية فى ضبط علومها وتحرير عقولها. ولد فى إسطاغيرا من بلاد مقدونية سنة ٣٨٤ قبل الميلاد. وتوفى بمدينة خلكس حاضرة جزيرة بوبيا سنة ٣٢٢ قبل الميلاد

من المشاهدات المأثورة عن العرب القدماء ، والتي روى أنهم تناقلوها من قول أو إشارة أو شعر أو مثل أو حكاية أو أسطورة . ولكننى تقريت فيما وقفت عليه من شؤونه وأحواله أنه كان عالما محققا بحاثا منقبا مستقرئا منقرا بكل ماتتسع له هذه الالفاظ من معان وأغراض

فقدوقفت له ، فيما وقفت عليه أثناء مطالعاتى ، على بحث رد فيه نسب النبى صلى الله عليه وسلم إلى الصواب ، وأقره فى نصاب الحق الصراح ، وأزال عنه شبه النسابين الذين شابوا بياضه الناصع بسواد جهالاتهم . ذلك أن الرواة تناقلوا عن الزبير بن بكار (١) أنه كان يزعم أن أم النضر بن كنانة ابن خزيمة إسمها بُرة بنت مر بن أد بن طابخة ، وأن كنانة تزوجها بعدموت أبيه خزيمة فولدت له النضر — على عادة أهل الجاهلية من تزوج الابن الأكبر زوجة أبيه بعد موته إذا كان الولد من غيرها (٢) — أما أبو عثمان

(١) هو أبو عبد الله الزبير بن أبى بكر بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير . له فى الأخبار ورواية الانساب باع طويل. وله شعر جيد ، وكان نبيل القدر ولى قضاء مكة ودخل بغداد مرارا وألف كتبا كثيرة . وتوفى بمكة وهو قاض عليها عن اربع وثمانين من عمره سنة ٢٥٦ ﻫ

(٢) ومن الغريب أن كثيرا من المتسمين بسمة العلم قد خدعوا بهذه الرواية الخاطئة ولم يكلفوا أنفسهم شيئاً من عناء تحقيقها حتى ولا الشك فى صحتها ، ومن هؤلاء أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى الاندلسى صاحب الروض الانف فى شرح السيرة النبوية والمتوفى سنة ٥٨١ ﻫ فانه عند كلامه على قوله تعالى « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » . قال ولذلك لم يستثن الله تعالى غير ذلك من المحرمات بقوله « إلا ماقدسلف » وغير الجمع بين الاختين ، ولم يقل فى الزنا ولا القتل إلا ما قد سلف ،إذ كان الجمع بين الاختين شريعة لمن قبلنا ، ونقل عن أبى بكر بن العربى أنه قال :

الجاحظ فقد دحض هذا الافتراء والقول الهراء فقال : وخاف كنانة بن خزيمة على زوجة أبيه بعد وفاته ، وهى بُرة بنت أد بن طابخة، جد كنانة بن خزيمة، ولم تلد لكنانة ولدا، ذكرا ولا أنثى، ولكن كانت ابنة أخيها بُرة بنت مر بن أد بن طابخة تحت كنانة بن خزيمة فولدت له النضر بن كنانة: قال : وانما غلط كثير من الناس لما سمعوا أن كنانة خلف أباه على زوجته لاتفاق اسمهما وتقارب نسبهما . وهذا هو الصحيح الذى عليه مشايخنا وأهل العلم والنسب . قال : ومعاذ الله أن يكون أصاب نسب النبي صلى الله عليه وسلم نكاح مقت وقد قال صلى الله عليه وسلم : مازلت أخرج من نكاح كنكاح الاسلام حتى خرجت من أبى وأمى . قال الجاحظ : ومن اعتقد غير هذا فقد كفر، والحمد لله الذى نزهه عن كل وصمة وطهره تطهيرا .

قلت : وهذا مما يرجى به المثوبة للجاحظ يوم الجزاء الأكبر

وفى سبيل التحقيق العلمى رحل الجاحظ إلى بعض الأمصار ، فقد وقفت فى كتاب الحيوان على أنه وفد على مصر وأقام بها زمنا وأجرى بها اختبارات فيما عثر عليه من حيوانها ، فقد لاحظت أنه تكلم عن النمس كلام محقق مختبر مشاهد . ومن العجب أن الجلال [1] السيوطى لم يذكره فيمن وفد

وفائدة الاستثناء احترام نسبه عليه الصلاة و السلام إذ ليس فى نسبه الكريم نكاح سفاح .. وقد كنا فى غير حاجة إلى هذا التعليل السخيف والتخريج المتكلف مادام قد ثبت أن شيئاً من ذلك لم يكن كما حققه الجاحظ

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطى الشهير . قال ابن إياس . بلغت مؤلفاته ستمائة مؤلف . توفى بالقاهرة سنة ٩١١ ه فى عهد السلطان الغورى ودفن بحوش قوصون خارج باب القرافة . وقد أزارنى هذا القبر الاستاذ حفنى ناصف بك رحمه الله منذ عشرين سنة

على مصر من صنوف أهل العلم وأرباب المعارف فى كتابه « حسن المحاضرة » ولعل الذى دفعه إلى إغفاله تعصبه على أهل العلم من المعتزلة حتى أنه لم يقرأ من كتب الجاحظ شيئاً ولا عنى بما اختص به من علوم وفنون وآداب ، وإلا لظهر أثر ذلك فيما ألف من كتب وصنف من أسفار

ومن آيات تحقيقه عنايته بالوضع اللغوى وتسمية مالم يكن معروفا عند العرب من الأشياء بأسماء خالصة من الشذوذ ، سليمة من التنافر . فقدعن لى أن أبحث فى القواميس العربية ودواوين اللغة عن اسم لذلك اللحم الذى فى أجواف الأصداف البحرية والمحار فلم أجد له أثراً ولا وقفت له على خبر. وبينا أقلب بين دفتى كتاب « الحيوان » عثرت له على اسم هو من أرق الأسماء وألطفها وأخفها على اللسان . وذلك الاسم هو «أَلَّبَلُ » وإذا كانت القواميس وكتب اللغة قد خلت من هذا الاسم فإن كتب الاشتقاق لم تعرض له طبعا . ولست أدرى إذا كان هذا اللفظ نقل عن اللغات الأجنبية التى كانت معروفة إلى ذلك العهد ، أم أن الجاحظ تلقفه من أفواه البحريين ، أو أنه وضعه من عند نفسه وضعا . وعلى أى حال فالجاحظ فى ذلك الحجة التى لا تدفع والثقة التى لا ترد ، ومن جعل الجاحظ بينه وبين الله فى تحقيق اللغة والأدب وأساليب البلاغة والبيان فقد أمن العثار . وله فى هذا الباب الشىء الكثير اكتفينا منه بهذا النموذج

الفصل الثالث عشر

فى

الترجمة وأساليبها ورأى الجاحظ فيها وفى النقلة

قلت فيما مضى أن الجاحظ لم يترك كتابا نقل إلى العربية حتى عهده، من أى لغة كانت، وفى أى علم أو فن، إلا قرأه واستظهره وتمثله، أو كما يقولون «هضمه» ومن البين أن الكتب المنقولة عن اللغات المعروفة فى ذلك العهد إلى اللغة العربية، كانت تَزْخَرُ بها عواصم الممالك الاسلامية ومدنها فى الشرق والغرب، بالرغم من أنه لم تكن هناك مطابع تقرب إلى الناس تناولها، وتسهل على الطلاب تداولها، بل كان الاعتماد كل الاعتماد فى الحصول عليها، محصوراً فى صناعة النسخ وتحت سلطان الوراقين. وأنت خبير بما يتطلب ذلك من باهظ التكاليف، وما يقتضيه من ارتفاع الأجور وغلاء الأسعار

وقد وقفت للجاحظ، فيما ترجم من كتب العلوم فى عهده إلى العربية، على رأى غاية فى السداد والحكمة، وهو يحل لنا مشكلا حار فيه العلماء والمفكرون عند ماراوا التباين الظاهر الذى وقع فى الشروح والحواشى والتعليقات والتفاسير والتأويلات التى وضعها أهل البحث وأرباب النظر أمثال الفارابى (١)

(١) هو أبو نصر محمد بن طرخان الفارابى. الحكيم المشهور، صاحب التصانيف الفائقة فى المنطق والفلسفة وسائر العلوم القديمة. مات بدمشق سنة ٣٣٩ هـ

وابن سينا[١] وابن رشد[٢] والغزالى[٣] على كتب سقراط، وأفلاطون[٤] وفيثاغورس[٥] وأرسطو، وبقراط[٦] وجالينوس[٧] وغيرهم من كبار الفلاسفة والحكماء الأقدمين، مما جعل علماء هذا العصر يشكُّون فى صحة ترجمة تلك الكتب، ولا يرونها نقلت إلينا علومهم على الصحة والصواب

---

(١) هو الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على ابن سينا. العالم الفيلسوف المنطقى الطبيب اللغوى الأديب المشهور. ولد فى قرية من قرى بخارى تسمى أفشنة سنة ٣٧٥ هـ وتوفى بهمذان سنة ٤٢٨ هـ

(٢) هو أبو الوليد محمد بن احمد بن محمد بن رشد القاضى العالم المعروف. كان واحد زمانه فى الفقه والجدل والخلاف والفلسفة والطب والمنطق، فاضلا فى سائر العلوم. وكان مجلسه بجامع إشبيلية ثم بجامع قرطبة يختلف إليه طلاب العلم من أقاصى البلاد، ومن سائر أرباب الملل والنحل، وتخرج به خلق من اليهود والنصارى فضلا عن المسلمين. وتوفى بمراكش سنة ٥٩٥ هـ

(٣) هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى المعروف بحجة الإسلام. كان علامة زمانه فى الفقه والجدل والمنطق وما إليها، وروى له شعر. ولد سنة ٤٥٠ هـ وتوفى بطوس سنة ٥٠٥ هـ

(٤) هو أفلاطون الفيلسوف اليونانى الشهير. كان من أشهر فلاسفة القدم ومن أكابر أعلام الدهر الأول. وهو من سلالة ملوك أثينا. ولد ببلاد اليونان سنة ٤٢٧ قبل الميلاد، وتوفى سنة ٣٤٦ قبل الميلاد

(٥) هو فيثاغورس الحكيم المشهور أحد أكابر الفلاسفة الأقدمين من اليونان. وهو تلميذ علماء مصر فى الهندسة والطبيعة والآلهيات. ولفيثاغورس وافلاطون وأرسطو شأن كبير فى الفلسفة الاسلامية

(٦) هو بقراط بن هيراكليذس. طبيب طبيعى مشهور وكان يلقب «أبا الطب». وهو من أكابر علماء اليونان وحكمائهم ولد بجزيرة كوس سنة ٤٦٠ قبل الميلاد ومات بمدينة لاريسا فى منتصف القرن الرابع

(٧) هو جالينوس. طبيب طبيعى مشهور. من أكابر علماء اليونان. وحكمائهم. وكان موجودا فى سنة ٢٠٠ ميلادية

وقبل أن نعرض عليك هذا الرأى نقف بك على ما كان متبعاً فى ذلك العهد من طرق الترجمة وأساليب النقل ومناهج النقلة والمترجمين — ملخصاً عن الصلاح الصفدى — فنقول :

كان للنقلة والتراجمة فى ذلك الحين طريقان :

الأول — طريق يوحنا بن البطريق (١) وابن ناعمة الحمصى (٢) وفرقتهما — وذلك أنهم كانوا ينظرون إلى كل لفظة مفردة من الكلمات اليونانية ، أو غيرها من اللغات الأخرى ، وما تدل عليه من معنى، فيأتون بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها فى الدلالة على ذلك المعنى، فيضعونها فى مكانها ، ثم ينتقلون إلى غيرها . وهكذا حتى ينتهى نقل الكتاب على هذه الصورة . ولا شك أن هذه الطريقة عقيمة جداً ، ومن الرداءة فى أقصى حد . لأن الناقل قد يضطره عدم إحاطته باللغة العربية ، وعدم وقوفه على سائر مفرداتها التى تقابل الكلمات الأعجمية ، إلى ترك الكثير من هذه الكلمات كما هى على عُجمتها . وهنا يصبح الكتاب لا هو بالعربى ، ولا هو بالعجمى . وقد وقع من جراء هذه الترجمة خلل كثير فيما ترجم من الكتب على هذه الطريقة ، وظلت فيها أكثر الكلمات اليونانية ، أو الفارسية ، أو الهندية ، أو السريانية ، أو اللاتينية، على حالها . هذا فضلاً عن أن خواص التراكيب والنسب الإسنادية فى أي لغة كثيراً ما لا يتفق مع

---

(١) هو يوحنا أو يحي بن البطريق : كان قيما بلغة الروم اللاتينية ، عاجزا عن معرفة العربية ، وكان فى خاصة الحسن بن سهل

(٢) هو عبد المسيح بن عبد الله الحمصى الناعمى المعروف بابن ناعمه . كان من رجال الترجمة والنقل، متوسط الجودة

مافى أى لغة أخرى من هذه الخواص . بل ما يقع من الخلل عند استعمال المجازات ومرامى الإستعارات

الثانى — طريق حنين بن إسحق [١] والعباس بن سعيد الجوهرى [٢] مولى المأمون ، وغيرهما ممن نحا نحوهما — وذلك أن يقرأ الناقل جملة الكلام فيحصل معناها فى ذهنه و يعبر عنها من اللغة العربية بجملة تطابقها ، سواء ساوت الألفاظ الألفاظ ، أم خالفتها . وهذه الطريقة أجود من غيرها بلا مراء . ولهذا قالوا : إن كتب حنين بن إسحق لم تحتج إلى تهذيب إلا فى العلوم الرياضية ، لأنه لم يكن قيما بها ، بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعى والآلهى ، فإن ما عربه منها لم يحتج إلى إصلاح . أما أقليدس [٣] فقد ذكروا أن ثابت بن قُرَّةَ الحرّانى هذبه ، وكذلك المجسطى والمتوسطات بينهما

---

(١) هو أبو زيد حنين بن إسحق العبادى . كان طبيبا بارعا عالما بعلوم الأوائل . وكان فصيحا لسنا بليغا يقول الشعر إذا شاء . وناهيك بمن يكون أستاذه الخليل بن احمد . وقد نقل الى اللغة العربية كثيرا من الكتب القديمة لأنه كان يجيد اليونانية والسريانية والرومية (اللاتينية) وكان بعض الخلفاء يعطيه أجر النقل زنة الكتاب ذهبا . وخدم المتوكل فى الطب . مات سنة ٢٦٠ هـ

(٢) هو العباس بن سعيد الجوهرى . كان فلكيا منجما عالما بالأرصاد وآلاتها . وكان فى صحبة المأمون وهو مولاه . وهو الذى ندبه المأمون فى جماعة من أصحابه لاجراء الرصد . وله فى ذلك زيج مشهور . وكان من أكابر المهندسين والحساب

(٣) هو اقليدس الصورى . كان أوحد أهل زمانه فى معرفة علم الهندسة والحساب وهو من أكابر الفلسفة الرياضيين . والمقصود هنا اسم كتاب له

هذان هما طريقا النقل والترجمة فى تلك العصور .

أما رأى الجاحظ الذى وعدناك بإيراده فاليك هو . قال أبو عثمان :

إن الترجمان لا يؤدى أبدا ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدى الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على المجرى ، وكيف يقدر على أدائها ، وتسليم معانيها ، والإخبار عنها ، على حقها وصدقها ، إلا أن يكون فى العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب وواضعه ... ! ؟

فمتى كان ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وأبو قُرة [١] وابن فهريز [٢] وابن وهيلى ، وابن المقفع : مثل أرسطو ؟ ومتى كان خالد [٣] مثل أفلاطون ... ! ؟

ولابد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة ، فى وزن علمه فى نفس المعرفة . وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول [عنها] والمنقول إليها حتى يكون فيهما سواء وغاية

---

(١) الظاهر أن المقصود به هو أبو على ابن أبى قرة ، وكان هذا منجما للعلوى البصرى صاحب الزنج الخارج على الدولة العباسية . ثم وقع أسيرا فى يد الموفق فاستبقاه وصار فى جملته وعمل كتابا فى علة كسوف الشمس والقمر

(٢) لعل المقصود هنا هو حبيب بن فهريز ، وكان يلقب عبديشوع ، وكان مطرانا للموصل . عرب كتبا كثيرة للمأمون . وكانت بينه وبين جبرائل ابن بختيشوع صداقة ومودة ، وكان ينقل له الكتب . وقد ذكر الجاحظ ابن فهريز هذا فى كتابه « البيان والتبيين» المطبوع بشرحنا فى ص ٩٦ ج ١ فانظره هناك

(٣) هو خالد بن عبد الملك المروزى . كان من أكابر المنجمين فى عهد المأمون وكان من خاصة منجمي الدولة . وله زيج حاز شهرة واسعة فى العصر الأول

ومتى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها وتعترض عليها . وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعتين فيه، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ؟ وإنما له قوة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات

وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم وأجدر أن يخطىء فيه . ولن تجد البتة مترجما يفي بواحد من هؤلاء العلماء

هذا قولنا فى كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون . فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل بما يجوز عليه مما لا يجوز عليه ، حتى يريد أن يتكلم على صحيح المعانى فى الطبائع ، ويكون ذلك متضمنا بما يجوز على الله تعالى مما لا يجوز ، وبما يجوز على الناس مما لا يجوز . وحتى يعلم مستقر العام والخاص والمقابلات التى تلقى الأخبار العامية المخرج فيجعلها خاصية . وحتى يعرف من الخبر ما يخصه الخبر الذى هو أثر ، مما يخصه الخبر الذى هو قرآن ، وما يخصه العقل مما تخصه العادة، أو الحال الرَّادَّة له على العموم . وحتى يعرف الصدق والكذب ، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع ، وعند فقد أى معنى ينقلب ذلك الاسم . وكذلك معرفة المحال من الصحيح ، وأى شيء تأويل المحال ، وهل يسمى المحال كذبا أم لا يجوز ذلك ؟ وأى القولين أفحش : ألمحال أم الكذب ؟ وفى أى موضع يكون المحال أفظع والكذب أشنع ؟ وحتى يعرف المثل والبديع والوحى والكناية ، وفصل ما بين الخطل والهذر والمقصور والمبسوط والاختصار . وحتى يعرف أبنية الكلام ، وعادات القوم ، وأسباب تفاهمهم.

والذى ذكرنا قليل من كثير ، ومتى لم يعرف ذلك المترجم أخطأ فى تأويل كلام الدين . والخطأ فى الدين أضر من الخطأ فى الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء ، وفى بعض المعيشة التى يعيش بها بنو آدم .

وإذا كان المترجم الذى قد ترجم لا يكمل لذلك أخطأ على قدر نقصانه من الكمال . وما عِلم المترجم بالدليل من شبه الدليل ؟ وما عِلمه بالاخبار النجومية ؟ وما علمه بالحدود الخفية ، وما علمه بإصلاح سقطات الكلام وإسقاط الناسخين للكتب ؟ وما علمه ببعض الخطرفة لبعض المقدمات ؟!

وقد علمنا أن المقدمات لابد أن تكون اضطرارية ، ولابد أن تكون مرتبة وكالخط المندور . وابن البطريق وأبوقرة لايفهمان هذا موصوفا منزلا ومرتبامفصلا ، من معلم رفيق ، ومن حاذق طب ! فكيف بكتاب قد تداولته اللغات ، واختلاف الأقلام ، وأجناس خطوط الملل والأمم ؟ ! ولو كان الحاذق بلسان اليونانيـة يرمى إلى الحاذق بلسان العربية ، ثم كان العربى مقصرا عن مقدار بلاغة اليونانى لم يَجِدُ المعنى . والناقل التقصير ، ولم يجد اليونانى الذى لم يرض بمقدار بلاغته فى لسان العربية بدا من الاغتفار والتجاوز . . . ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً أو كلمة ساقطة فيكون إنشاء عشر ورقات من حُر اللفظ وشريف المعانى أيسر عليه من إتمام ذلك النقص حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام ! فكيف يطيق ذلك المعارض المستأجر والحكيم نفسه قد أعجزه هذا الباب ؟ !

قلت : هذا كلام الجاحظ ، وهذا رأيه فى ترجمة كتب العلوم وأسفار الأديان ، وهذا قوله فى التراجمة والنقلة القدماء ، قد أوضح به السبيل ، وأنار الطريق ، وأرسل به شعاعاً من صادق الرأى ومحكم القول وبارع

النظر وفائق الفكر ، على أمر غبر العالم الاسلامى طوال هذا الدهر على غير بينة منه . فهل فى مقدور القائلين الآن بإمكان ترجمة القرآن الكريم الى اللغات الأوربية، الاستنارة به والاهتداء بهديه ؟ وهل فى استطاعة مخالفيهم والقائلين باستحالة ترجمته أن يستفيدوا مما جاء به من العلل والأسباب والدوافع والموانع ؟ وهل لكلا الفريقين تدبر هذا الكلام على حقه وصدقه ، حتى يمكن الاجماع على رأى حاسم فى هذا الأمر الجليل الشأن الكبير الخطر البعيد الأثر فى أهم شأن يخص العالم الاسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها ؟!

الفصل الرابع عشر

فى

نشوء الاعتزال فى الاسلام

قبل أن نعرض عليك مذهب الجاحظ فى الاعتزال ، نرى لزاماً علينا أن نبسط لك القول فى نشوء الاعتزال ، وأولية المعتزلة ، وكيف كان أصلها ومعناها ، وعلى يد من ثارت ثائرتها . فإن فى بسط هذا الموضوع إبانة لمذهب الجاحظ فيه ، وإيضاحاً لما اعتمده من رأى . ولذلك نقول :

لكل دين من الأديان التى ظهرت على وجه الأرض حالة تعرو القائمين عليه بعد ذهاب مؤسسه إلى حيث تنتهى حياة كل إنسان . فيتناول كل ذى رأى من هؤلاء الخالفين أصول هذا الدين وأسسه ويوجه إليها عنايته ، ويرسل عليها من أشعة عقله ، وبواثق تفكيره سواطع أنوار متدبراً معانيها ، مستشفاً مغازيها ، مفسراً الغوامض من عباراتها ، مقرباً البعيدمن مرامى آياتها ، محاولا إيضاح المشكل من إشاراتها ، مأولا المشتبه من أغراضها ، مبيناً ما دق من ملتبسها . ولا يزال بها حتى يستخرج من خلالها أصولا يبنى عليها فروعا تقوم عنده مقام الدستور الواجب الاحترام . ثم هو لاينفك لهجا بها ، مكبا عليها بين بسط وقبض ، ورفع وخفض ، إلى أن يستوى له منها مذهب يعرف به ، ويدعو إليه ، وينتصر له ، وينزله منه منزلة العين من الإسم ، والذات من الرسم . لايكاد يخلو من هذه الحال دين من الأديان ، أو ينجو منها شرع من الشرائع ، سواء فى ذلك أديان السماء

وشرائع الأرض . ومن هنا كثرت المذاهب فى الأديان ، وتعددت الآراء فى الشرائع ، وتشعبت فيها الملل ، وتفرقت النحل .

ولم يتح للاسلام ، وهو آخر الأديان السماوية ، التخلص من هـذه السنة الطبيعية ، سنة التحول والتطور ، والتشعب والتفرق . وكيف يمكن التخلص منها والانسان هو ذلك المخلوق المكون من مختلف العناصر ومتباين المواد ؟ لذلك أصيب الدين الاسلامى من هذه المذاهب بما ناء به ، وكاد يودى بروائه ، ويذهب ببهائه ، ويخرج به عن قواعده المتمكنة فى السماحة والسهولة ، والتى ما كان فى أجذامها لبس ولا غموض ولا إبهام .

ومن الغريب أن مدونى مذاهبه ، وكاتبى نحله ، حينما أولعوا بتقييد ماجد فيه من تنازع الآراء ، وما اعتوره من تجاذب الاهواء ، وما قام فيه بين أهل البحث والنظر ، وأصحاب السند والأثر ، من المجادلات والمهاترات ، أبو إلا أن يقسموا الأمة حسب آراء بعض الأفراد من هؤلاء الى أقسام ، وأن يشعبوا هذه الأقسام الى فرق تتناحر ، ونحل تتجازر ، وأن يتلمسوا لذلك أصلا يعزونه الى الشارع الأعظم ، فابتدعوا حديثا رووه من طرق شتى زعموا فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار الا واحدة ، وهى ما أنا عليه وأصحابى »

ولو صح هذا الحديث لكان نكبة كبرى على جمهور الأمة الاسلامية إذ يسجل على أغلبيتها الجامعة الخلود فى الجحيم ! ولو صح هذا الحديث لما قام أبو بكر فى وجه مانعى الزكاة معتبرا إياهم فى حالة ردة ، يحاربهم عليها ، ويقاتلهم من أجلها ، ويستحل منهم ما هو محرم من كل مسلم . ومن يدرى !

فلعل أبو بكر لو لم ينهض لقتال أهل الردة لرأينا فى المؤرخين والكتاب من عدهم من الفرق الداخلة فى عداد الثلاث والسبعين فرقة ؟ ولعلهم كانوا سموهم « الزكاتية » لأنهم منعوا الزكاة كما عدوا من قاتلهم على وسموهم « الخوارج المحكمة » لأنهم قالوا « لا حكم إلا لله » ولو صح هذا الحديث لوجب على جمهور المسلمين أن لا يعرضوا بسوء لأى جماعة منهم تحاول التفرد عنهم برأى، والتخصص دونهم بمذهب، وأن لا يناشدوا هذه الجماعة الرجوع إليهم والدخول فى جملتهم ، تصديقاً لهذا الحديث وتعزيزا له حتى يصل عدد الفرق إلى ما حدد لها فيه . ولو صح هذا الحديث لما نجا من الأمة أحد لأنه ما من فرقة من الفرق إلا ويكفر بعضها بعضا ، ولم تسلم فرقة ما من المطاعن والمثالب والرمى بالالحاد فى الدين ، وما من فرقة إلا وهى ترى لنفسها النجاة دون أخواتها . وكل حزب بما لديهم فرحون .

ومن أعجب العجب أن مؤرخى هذه المذاهب ، ومسجلى هاتيك الفرق ممن سلف ، تظالعوا وراء هذا الحديث وأخذ كل منهم يسلسل فرقه على ما يرى ، ويولد بعضها من بعض ليصل بها الى العدد الذى حدد فيه ، غير مكاف نفسه البحث فى صحته أو فساده ، ولا مفكر فى انطباقه على العقل والطبع والنظر ، أو فى زيفه و بعده عن مطابقة الواقع ! وأشد من ذلك عجبا أن أحداً منهم لم يتحر النظر فى سلامة أجزائه ، وفى صحة دعائمه ، كأن يتعرف هل كان اليهود فى ذلك العهد إحدى وسبعين فرقة حقا ، وهل كان النصارى اثنتين وسبعين فرقة ؟ وكأن ينظر فيما سيأتى به الدهر الأطول من ظهور فرق ، ونبوغ مذاهب ، ونشوء فكر ، ونجوم آراء ! وهل هى داخلة فى هذا الحساب أم خارجة عنه ، مستقلة دونه ؟ وما منزلتها من هذه الفرق المحصورة العدد ؟ أم هل خمدت العقول ، ونضبت القرائح ، وتصدع الفلك ، وسلب الله من

سائر خلقه قوة البحث والنظر واعمال الفكر ، مصداقا لهذا القول وتعزيزا لهذا الأثر ؟ ! لا شك أن هذا مالا يقول به عاقل يجل قدرة الله فى أشرف مظاهرها وهو « العقل »

والمعتزلة — أو — القدرية — أو — أهل العدل والتوحيد — طائفة من أجل هذه الطوائف الاسلامية عقولا ، ومن أقواها نفوسا ، ومن أسدها تفكيرا . وكان لشيوخها قوة فى البيان ، و بسطة فى اللسان ، وشدة فى الجنان ، ولهم مواقف مشهورة فى الاسلام ضد مخالفيه يذودون عنه غاراتهم ، و يدفعون فى أقفيتهم بناصع الأدلة وواضح البرهان .

ظهرت هذه الطائفة فى أواخر القرن الأول للهجرة عند ما استفحل أمر « الأزارقة » (١) من الخوارج ، واشتدت شوكتهم بالبصرة والأهواز ، وأصبح أمرهم خطرا و بأسهم شديداً يهدد الدولة ، على عهد عبد الملك بن مروان (٢) وولاية الحجاج بن يوسف العراقين ، ووقع الخلاف فى الناس فى شأن مرتكبي الذنوب ومجترحى الآثام من الأمة الاسلامية · فكل جماعة ارتأت رأيا ،وذهبت مذهبا ، وقالت قولا ، وعرضت بنظر .

(١) هم فرقة من الخوارج ، بل هم أكبر فرقة ظهرت منهم وأكثرها عددا وأشدها بأسا وأقواها منة . وهى تنتسب إلى نافع بن الأزرق الحنفى أحد عظمائهم . وكان ظهورهم فى عهد ابن الزبير فسير عليهم الجيوش فكانوا يهزمونها ثم سار اليهم المهلب بن أبى صفرة فهزمهم بعد خطوب فى وقعة دولاب بالاهواز .وفى هذه الوقعة مات نافع بن الأزرق وهو منهزم

(٢) هو عبد الملك بن مروان أحد أكابر ملوك بنى أمية ومؤسس دولة بنى مروان بالشام ، وكان من أعقل الناس وأحزمهم . وكان عهده كله حروب وفتن وأحداث وخطوب غير انه تغلب على هذا كله بالحزم وقوة البطش والاسراف فى إراقة الدماء إلى أن استقر له الملك. مات بدمشق سنة ٨٦ هـ عن ٦٢ سنة

فرأى « الأزارقة » من الخوارج أن كل مرتكب لذنب، صغيرا كان ذلك الذنب أو كبيرا، فهو مشرك بالله . وعندهم أن أطفال المشركين مشركون . ولذلك استحلوا قتل أطفال مخالفيهم وقتل نسائهم ، سواء أ كانوا من أهل الاسلام أم كانوا من غيرهم .

ووافقهم « الصُّفرية » (١) فى ذلك ، إلا أنهم خالفوهم فى الأطفال .

وذهب « النجدات » (٢) من الخوارج إلى أن مرتكب الكبيرة ، التى أجمعت الأمة على تحريمها، مشرك كافر ، ومرتكب الذنب الذى اختلفت فيه الأمة ، حكمه وقف على اجتهاد أهل الفقه فيه .

ورأت « الأباضية » (٣) من الخوارج أن مرتكب ما فيه الوعيد، مع معرفته بالله تعالى وبما جاء من عنده، كافر كفران نعمة ، وليس بكافر كفر شرك .

وذهب الحسن البصرى وجماعة معه إلى أن مرتكب الكبيرة من هذه الأمة منافق .

وأما الجمهور فيرى أن مرتكب الكبيرة من هذه الأمة، مؤمن . لاعتقاده بأن كل ما جاء من عند الله حق ، ولإيمانه بالرسل والكتب المنزلة ، غير أنه يعد فاسقا بكبيرته التى ارتكبها . على أن وصفه بالفسق ، لا ينفى عنه اسم الايمان والاسلام

و بينا الناس فى أمر من هذا الحال مريج، دخل رجل على الحسن البصرى

---

(١) هم فرقة من الخوارج تنسب إلى زياد بن الاصفر . ويعدون فى فروع الازارقة ، وإن كانوا فارقوهم فى بعض القول .

(٢) هم فرقة من الخوارج تنسب إلى نجدة بن عامر الحنفى ، وكانوا باليمامة ثم إنهم افترقوا فيما بينهم إلى فرق كثيرة تسمى كلها النجدات

(٣) هم فرقة من الخوارج تنسب إلى عبد الله بن إباض وعنها تفرعت عدة فرق

وهو فى مجلسه بمسجد البصرة فقال : يا إمام الدين ، لقد ظهر فى زمامنا هذا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج عن الملة — وهم وَعِيدِيَّةُ الخوارج — وجماعة يُرْجِئُونَ أصحاب الكبائر. بل العمل ، على مذهبهم ، ليس ركنا من الايمان . ويرون أنه لا يضر مع الايمان معصية ، ولا تنفع مع الكفر طاعة — وهم المُرْجِئَةُ(١) — فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً ؟ ففكر الحسن فى هذا السؤال مليا ، وقبل أن يجمع رأيه على قول يجيب به ، بادر واصل بن عطاء بالجواب وقال :

أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو فى « منزلة بين المنزلتين »

فغضب الحسن لتسرعه فى الجواب وجرأته فى الاجابة عنه . فقام واصل فى جماعة معه عن مجلسه وجلس بهم إلى اسطوانة بالمسجد . ثم أخذ يلقى عليهم رأيه ، ويلقنهم أسبابه وعلله ، ويقرر لهم مقدماته ونتائجه . غير أن الحسن لم يرضه مفارقة واصل له ، وكانت له فى نفسه مكانة ، فحاول مرضاته واسترجاعه إلى سابق مودته ، على أن يكون ذلك من طريق الاقناع ، فأرسل اليه للمناظرة فلما حضر فى رهط من صحبه انتدب له عمرو بن عبيد ، وكان من رؤس أصحابه ، وسأل الحسن واصلا أن يكلم عمراً ؟

فقال واصل : لم قلتم : من أتى كبيرة من أهل القبلة استحق اسم النفاق ؟

فقال عمرو : لقول الله تعالى « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا

---

(١) هم قوم كانوا يقولون بالارجاء فى الايمان . وإنما سموا المرجئة لأنهم أرجأوا العمل عن الايمان . والارجاء فى اللغة: التأخير

وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » فكأن كل فاسق منافق ، إذ كانت ألف المعرفة ولامها موجودتين فى الفاسق.

فقال واصل : أليس قد وجدت الله تعالى يقول « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » ؟ وأجمع أهل العلم على أن صاحب الكبيرة من أهل القبلة استحق اسم ظالم كما استحق اسم فاسق ، فألاَّ كفرتم صاحب الكبيرة من أهل القبلة بقوله تعالى « وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » ؟ فعرف بألف ولام التعريف اللتين فى قوله تعالى « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » كما قال فى القاذف « وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » فسميته منافقا لقوله تعالى « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ »...؟! يا أبا عثمان ، أى ما أولى أن تستعمل فى أسماء المُحْدِثِينَ من أمتنا : ما اتفق عليه أهل الفرق من أهل القبلة ، أو ما اختلفوا فيه ؟!

فقال عمرو : بل ما اتفقوا عليه أولى !

فقال واصل : ألست تجد أهل الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقا ويختلفون فيما عدا ذلك من أسمائه ؟ لأن الخوارج تسميه مشركا فاسقا ، والشيعة [1] — الزيدية — تسميه كافر نعمة فاسقا ، والحسن يسميه منافقا فاسقا ، والمرجئة تسميه مؤمنا فاسقا . فاجتمعوا على تسميته بالفسق واختلفوا فيما عدا ذلك من أسمائه ، فالواجب أن يسمى بالاسم الذى اتفق

---

(١) الشيعة من شايعوا على بن أبى طالب وحصروا الفضل والسبق والاولوية فيه . وهم فرق . منهم الزيدية وهؤلاء ينسبون الى زيد بن على زين العابدين ، وهم من أفضل الشيعة وأنظفهم عقيدة حتى انك لاتكاد ترى فرقا بينهم وبين أهل السنة

المختلفون عليه، وهو الفسق . ولا يسمى بما عدا ذلك من الاسماء التى اختلفوا فيها . فهذا أشبه بأهل الدين ؟!

فقال عمرو : ما بينى و بين الحق عداوة ، والقول قولك ، فليشهد علىّ من حضر أنى تارك للمذهب الذى كنت أذهب إليه ، قائل بقول أبى حُذَيفَةَ[١] وأنى قد اعتزلت مذهب الحسن فى هذا الباب

ثم انضم عمرو بن عبيد إلى واصل بن عطاء وأخذا فى تقرير مذهبهما لمن تابعهما من الأصحاب والطلاب والاشياع . وفى الواقع أن واصلا وعمرا لم يقصدا بما ارتأياه من مقالتهما « بالمنزلة بين المنزلتين » إلا التوفيق بين مختلف الآراء ، و إلا التقريب فيما بينها ، أملا فى الوحدة الجامعة ، و إشفاقاً من الفرقة الممزقة ، ولم يكن لهما من وراء ذلك أى مأرب فى خلاف أو تفرد برأى يعرفان به ، لولا غضب الحسن من تسرع واصل فى الجواب . لأن واصلا وعمرا قد كانا من الزهد والورع والنسك والتقوى واستقامة الطريقة إلى الحد الذى ليس وراءه متطلع ، وناهيك برجلين كانا مفخرة أستاذهما أبى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية ؟![٢] فهذا أبو بكر الخوارزمى[٣] كان يقول لمن سأله عن أبى هاشم : أنظر الى أثره على واصل

---

(١) كنية واصل

(٢) هو أبو هاشم عبدالله بن محمد بن على بن أبى طالب . وأبوه المعروف بابن الحنفية . وأبو هاشم هو الذى بشر محمد بن على بن عبد الله بن عباس بمصير الخلافة إلى ولده . ولأبى هاشم أتباع من الشيعة يقولون بامامته وهم من فرقة الكيسانية . وقد كان عظيم القدر جليلا موقرا كثير العلم والفضل والادب

(٣) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى الكاتب المجيد والشاعر البليغ أحد أفراد الأئمة فى اللغة والأدب والانساب . وكان حافظا مجودا . وهو ابن أخت أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى الشهير . وله رسائل جيده وأشعار حسان : توفى سنة ٣٩٣ هـ

ابن عطاء وعمرو بن عبيد : ماذا أقول فى جمر هذا شرره ، وفى سيف هذا أثره ، وفى كريم هذا نتاج سؤدده ، وآثار يده ؟!

وفى تسميتهما وأتباعهما « بالمعتزلة » أقوال : منها أن الحسن البصرى عند ما فارقه واصل قال: إعتزل عنا واصل. ومنها أن الناس قالوا حينئذ : إن واصلا وعمراً اعتزلا قول الأمة. ومنها أن قَتَادَةَ بن دعامة لما جلس فى مجلس الحسن البصرى بعد وفاته ، فارقه عمرو بن عبيد ، فسماه وأتباعه « المعتزلة » وقال وهب بن منبه (١) : إعتزل عمرو بن عبيد وأصحابٌ له الحسنَ فسموا « المعتزلة ».

والذى أميل اليه وأرجحه فى سبب هذه التسمية، ما قيل من أن قتادة ابن دعامة السدوسى ، وكان من أصحاب الحسن ومن أحلاس مجلسه — وكان أكمه ، ومع ذلك فقد كان يسير فى أنحاء البصرة بغير قائد — فدخل المسجد يوماً وإذا به أمام مجلس ظنه فى بادئ الأمر مجلس الحسن، إلا أنه مالبث أن سمع أصواتاً مرتفعة بعبارات لا يعرفها ، وكلاماً لا عهد له بمثله ، فلما عرف أنه مجلس واصل وعمرو قال : أهؤلاء المعتزلة ؟! قال هذا من باب الاستفهام الإنكارى . فسموا من يومئذ بهذا الاسم . وهذا أقرب الأسباب إلى محجة الصواب ، لأن مسحة الطبع غالبة عليه .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن منبه المحدث الاخبارى المشهور . أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى لفتح اليمن وطرد الحبشة منه ورد الملك إلى سيف بن ذى يزن . وكان واسع الاطلاع عارفا بأخبار الأول . مات بصنعاء سنة ١١٠ هـ

وقد روى الإمام أبو الحسن الأشعرى (١) عقيدة المعتزلة فى التوحيد وغيره فقال :

«أجمعت المعتزلة على أن الله واحد ليس كمثله شئ وهو السميع البصير. وليس بجسم ، ولا شبح ، ولا جثة ، ولا صورة ، ولا لحم ، ولا دم ، ولا شخص ، ولا جوهر ، ولا عَرَض ، ولا بذى لون ، ولا طعم ولا رائحة ، ولا مجسة ، ولا بذى حرارة ، ولا برودة ، ولا رطوبة ، ولا يبوسة ، ولا طول ، ولا عُرض ، ولا عمق ، ولا اجتماع ، ولا افتراق ، ولا يتحرك ، ولا يسكن ، ولا يتبعَّض . وليس بذى أبعاض وأجزاء ، وجوارح وأعضاء . وليس بذى جهات ، ولا بذى يمين وشمال ، وأمام وخلف ، وفوق وتحت . ولا يحيط به مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه المُمَاسَّةُ ولا العزلة ، ولا الحلول فى الأماكن . ولا يوصف بشىء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم . ولا يوصف بأنه مُتَنَاهٍ . ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات . وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الأقدار ، ولا تحجبه الأستار ، ولا تدركه الحواس ، ولا يقاس بالناس ، ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولا تجرى عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات . وكل ما خطر بالبال وتصور بالوهم فغير مشبه له . لم يزل أولا سابقاً متقدماً للمحدَثات ، موجودا قبل المخلوقات . ولم يزل عالما قادرا حيا . ولا يزال كذلك . لا تراه العيون ، ولا تدركه الأبصار ، ولا تحيط به الأوهام ، ولا يسمع بالأسماع . شئ لا كالأشياء ،

(١) هو أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى . من سلالة أبى موسى الأشعرى الذى حكم بين معاوية وعلى . وأبو الحسن هذا هو رأس فرقة الأشعرية . وقد كان على مذهب المعتزلة حتى بلغ الأربعين من عمره ثم فارقهم . وكان ربيب أبى على الجبائى أحد أكابر المعتزلة . توفى سنة ٣٢٤ هـ

عالم قادر حى ، لا كالعلماء القادرين الأحياء . وأنه القديم وحده ، ولا قديم غيره ، ولا إله سواه ، ولا شريك له فى ملكه ، ولا وزير له فى سلطانه ، ولا معين على إنشاء ما أنشأ ، وخلق ما خلق . لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شئ بأهون عليه من خلق شئ آخر ، ولا بأصعب عليه منه . لا يجوز عليه اجترار المنافع ، ولا تلحقه المضار ، ولا يناله السرور واللذات ، ولا يصل اليه الأذى والآلام . ليس بذى غاية فيتناهى ، ولا يجوز عليه الفناء ، ولا يلحقه العجز والنقص . تقدس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء »

وقد تواضع فقهاء المعتزلة على أصول خمسة اتخذوها أساساً لمذهب الاعتزال ، واتفقوا على أن من اعتنقها تامة كاملة استحق اسم « المعتزلى » ومن اعتنق بعضها دون البعض . أو زاد عليها ماليس منها فلا يستحق شرف هذه النسبة . وهذه الأصول هى :

(١) ألتوحيد — وهو اعتقاد أن الله تعالى واحد لا شريك له فى وحدانيته وأنه قديم وكل ما سواه محدث . وأنه لا تدركه الحواس فى الدنيا بأى كيفية ، ولا يُرى فى الآخرة بأى صورة . خلق الأشياء وابتدعها على غير مثال ، وتنزه عن الأشباه والأمثال ، لا يحصره مكان ، ولا يحده زمان . ليس بجسم ، ولا عَرَض ، ولا عنصر ، ولا جزء ، ولا جوهر . وهو البارىء لهذا كله . وهو عالم لذاته ، لا بعلم . قادر لذاته ، لا بقدرة . حى لذاته ، لا بحياة . ولكنها صفات قديمة ، ومعان قائمة به ، غير مشاركة له فى القدم الذى هو أخص صفاته الذاتية .

وقد وُضع هذا الأصل رداً لأقوال المُجَسِّمَةِ (١) ودفعاً لمزاعم

(١) هم فرقة قديمة تجعل لله جسما ذا أعضاء كجسم الانسان . تعالى الله

المُشَبِّهَةِ [١] من الرافضة [٢] وغلاة الشيعة. وعلى رأسهم مُقاتلُ بن سليمان [٣]

(٢) العدل — وهو اعتقاد أن الله تعالى حكيم لا يحب الفساد ، ولا يفعل الشر. بل هو لحكمته لا يفعل إلا الخير والصلاح ، ولا يصدر عنه إلا ما فيه رعاية مصلحة العباد . وأن أفعال العباد التى تصدر عنهم من خير وشر وصلاح وفساد، منسوبة إليهم يثابون عليها و يعاقبون بها فى دار الجزاء . لأنهم بقدرة رُكِّبَتْ فيهم قادرون على خلق أفعالهم ، وهو سبحانه المالك لها دونهم ، يسلبهم إياها إذا شاء ، و يبقيها لهم إذا أراد ، ولو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم اضطراريا عن معصيته ، ولكنه لا يفعل . إذ كان فى ذلك رَفْعٌ للمحنة ، وإزالة للبلوى . ولم يكلف عباده ما لا يُطِيقون ، ولا أرادهم على ما لا يقدرون عليه . وأنه تعالى ولى كل حسنة أمر بها ، برىء من كل سيئة نهى عنها . لا يقدر أحد على قبض أو بسط إلا بقدرة التى ركبت فيه.

وقد وُضع هذا الأصل رداً على المُجْبِرَةِ [٤] ، و بعض الرافضة القائلين

---

(١) هم فرقة لها رأيان فى التشبيه: فمن قائل منها بتشبيه ذات البارى بذات غيره من مخلوقاته . ومن قائل بتشبيه صفاته بصفات مستحدثاته

(٢) هم فرقة من الشيعة غالت فى رفض تولى أبى بكر وعمر ، ولها آراء وفكر غريبة

(٣) هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان الخراسانى الأزدى بالولاء ، كان من العلماء الأجلاء اشتهر بتفسير كتاب الله العزيز حتى قال الامام الشافعى: الناس كلهم عيال على ثلاثة : على مقاتل بن سليمان فى التفسير ، وعلى زهير بن أبى سلمى فى الشعر ، وعلى أبى حنيفة فى الكلام. وقوم يوثقونه وقوم يجرحونه ، وكان يرمى بالتشبيه. توفى بالبصرة سنة ١٥٠ هـ

(٤) هم فرقة كانت تقول بأن الانسان مجبر على إحداث أعماله من حسنة وسيئة

بجواز وقوع الظلم من الله تعالى، وعلى رأسهم جَهْمُ بنُ صَفْوَانَ (١)

(٣) ألوعد والوعيد — وهو اعتقاد أن الله تعالى صادق الوعد، نافذ الوعيد، يثيب المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة واستقامة، ولا يغفر لمرتكب الكبائر إذا خرج من الدنيا على غير توبة، وإلا استحق الخلود فى النار. غير أن عقابه يكون أخف من عقاب الكافر. ودركته فوق دركته. لامبدل لكلمات الله.

وقد وُضع هذا الأصل رداً على القائلين بجواز الكذب على الله تعالى فيما وعد به وأوعد.

(٤) ألأسماء والأحكام — أو — المنزلة بين المنزلتين — وهو الإقرار بأن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ولكنه يُعد فى منزلة بين الإيمان والكفر، وهى الفسق.

فاذا خرج من الدنيا وهو مُصِرٌّ على فسقه كان مُخلداً فى النار، ولكن لا على طريق خلود الكافرين فيها.

وهذا الأصل هو منشأ الاعتزال. وما أراد به واصل بن عطاء وعمرو ابن عبيد، حين نهضا به، إلا التآلف والتوافق بين مختلف الآراء، ونفى التَّشَادّ من بين الخوارج وخصومهم. ولأن الإيمان عندهما وعند أصحابهما عبارة عن خصال الخير إذا اجتمعت فى إنسان سمى مؤمناً. وهو اسم مدح. والفاسق لم يستجمع الخير، فهو غير حقيق باسم المدح، وهو إذاً لا يسمى مؤمنا، وليس هو بكافر. لأن الشهادة وما يندرج تحتها من خصال الخير موجودة فيه لا إنكار لها، ولكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير

(١) هو جهم بن صفوان الترمذى. فارسى الأصل وهو رأس الجبرية المخالفة للقدرية. وإليه تنسب فرق الجهمية. مات سنة ١٣١ هـ

توبة، حق عليه الخلود فى النار، إذ ليس فى دار الجزاء إلا « فَرِيقٌ فى الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فى السَّعِير ».

(٥) ألأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — وهو الإقرار بأن أهل الإيمان مكلفون بمراعاة حدود الله وإقامة أحكامه، وأن التكاليف إنما هى ألطاف من الله تعالى امتحن بها عباده بواسطة رسله واختبرهم بأدائها « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَ مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ » وأوجب على كل مؤمن الدعوة إليها والتحذير من مخالفتها.

وقد وُضع هذا الأصل تنفيذا لقوله تعالى « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » وتقييداً للمعتزلة بالقيام عليها، والصدوع بها، والنهوض بحمل أعبائها.

فهذه هى الأصول الخمسة التى وضعها فقهاء المعتزلة عقيدةً لهم يدورون حولها، ويتجهون نحوها، ولا يبغون عنها حولا. مع إجازة البحث فيما يتفرع عنها من الآراء، والنظر فيما يعرض فيها من الفكر.

ولهم غير هذه الأصول رأى فى الإمامة وقول فى الإمام. فهم يرون أن الإمامة اختيار من الأمة، فللأمة الحق المطلق فى اختيار الإمام الذى يستطيع النهوض بأحكام الله تعالى فينفذها على وجهها ويردها إلى الحدود التى وضعتها الشريعة لها، سواء أكان الإمام من قريش، أم كان من غيرها. لأنهم لا يقرون بأن هناك نصاً على رجل بعينه، أو على قبيلة بذاتها. وقد وافقهم على ذلك جماعة من الزيدية. وسائر الخوارج من الأباضية وغيرهم، إلا النجدات من الخوارج. مستدلين فى ذلك بما روى من أن عمر بن الخطاب حينما فوض الأمر إلى أهل الشورى قال: لو كان سالم[1] حياً ما داخلتنى فيه ريبة.

(١) هو سالم بن معقل. أصله من اصطخر. كان مولى أبى حذيفة بن عتبة.

وسالم ، هذا كان مولى لامرأة من الأنصار ، وكان يعرف بسالم مولى أبى حذيفة — فلو لم يكن عُمَرُ على علم من أن الامامة جائزة فى سائر المسلمين لما أطلق هذا القول ، ولما تأسف على موت سالم فى هذا المقام. وقد خالفهم فى ذلك أبو حنيفة ، وأكثر المرجئة وجمهور الزيدية (١) من الجارودية وغيرهم ، وسائر الشيعة ، والرافضة ، والراوندية (٢) فذهب هؤلاء جميعاً إلى أن الامامة لاتجوز إلا فى قريش . مستدلين فى ذلك بما روى من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الامامة فى قريش، قَدِّمُوا قريشاً ولا تَقَدَّمُوهَا .

وقد مضى واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد إلى ربهما قبل أن تذيع فى الناس ترجمة كتب الفلسفة والحكمة والمنطق والطبيعيات والالهيات وغيرها عن اليونان والفرس والروم والهند والسريان . أعنى أنهما تركا المذهب بسيطاً ساذجاً، لم يعتمدا فى إبانته وتثبيت دعائمه، إلا على البلاغة العربية والفصاحة البدوية وإلا على البيان وقوة اللسان . فلما ذاعت هذه العلوم منقولة إلى العربية فى أوائل العصر العباسى أقبل الناس عليها ، وتهافتوا على شرعتها، فنشأ علم الكلام . فكان ممن برع فيه وفى غيره من علوم الأوائل ، زعيمهم المبين وفيلسوفهم الكبير أبو الهذيل العلاف ، ثم ذكيهم الألمعى ، وفطنهم اللوزعى، أبو إسحق ابراهيم بن سيار النظام ، ثم حامل لوائهم والذائد عن حياضهم وخطيب حفلهم ومخلد ذكرهم صاحبنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

وكان على جانب عظيم من التقوى والصلاح واستقامة السيرة . شهد بدرا وآخى رسول الله بينه وبين أبى بكر . واستشهد يوم اليمامة فى حرب مسيلمة الكذاب

(١) هم فرقة من فرق الزيدية تنسب إلى أبى الجارون زياد بن المنذر العبدى، انفردوا برأى فى الامامة وفى شأن الصحابة

(٢) هم فرقة من شيعة بنى العباس . قد غالت فى تشبيهها إلى حد دعا الخليفة المهدى إلى تجريد الجيوش عليها و تشتيت شملها كما أظهرت الخروج فى مذهبها

الفصل الخامس عشر

فى

مذهب الجاحظ فى الاعتزال

عرفت مما بسطناه لك فى الفصل السابق، كيف نشأ الاعتزال فى الاسلام، ووقفنا بك على السبب الذى من أجله فارق واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد رأسا المعتزلة مجلس الحسن البصرى شيخهما ، وعلة تسميتهم بهذا الاسم ، كما عرفت العقيدة التى يدينون الله بها ، ووقفت على أصولهم التى تواضعوا عليها ، وآرائهم التى شعبوها عنها فى مختلف المقاصد التى انتحوها . وأنت ترى معى أن المسألة قد كانت فى بداءة الأمر من المسائل الاجتهادية التى إن أثيب فيها المصيب على إصابته ، لم يأثم فيها المخطىء على خطائه . ومع هذا فقد نشأت عنها أحداثٌ ونجمت غِيَرٌ ، وثارت فيها مناظرات، وقامت عليها سوق الجدل ، وتشعبت أنحاء ، وتفرعت فكر ، وتولدت مذاهب ، وافترقت نحل .

ولما كان الجاحظ من شيوخ المعتزلة ورؤسهم ومن ذوى الرأى الصائب ، والنظر النافذ فيهم ، فقد انفرد من بينهم بآراء خاصة، تابعه عليها قوم منهم تسموا « بالجاحظية » فكان شيخ مذهب فيهم ورأس فرقة منهم . وليس فيما هو متداول من كتبه ما يمكن استخراج مذهبه الاعتزالى منه ، لأن كتبه التى وضعها فى هذا الباب قد بادت مع ما باد من جمهور مؤلفاته . غير أن بعض الرواة والمؤرخين قد رووا له آراء فى المذهب ، ونحلوه أقوالا لا نرى بدا من عرض خلاصتها، ملقين تبعتها عليهم، إن حقاً فحق و إن بطلا فبطل .

ثم نعقب عليها بما قد نراه مما يظهر زيفها من صحيحها . على أنه يجب أن تعرف ، غير شاك ولا مستريب ، أن أكثر هؤلاء الرواة إنما هم من خصوم المعتزلة ، وممن نصبوا أنفسهم للطعن فيهم والنيل منهم .

ناهيك بعداوة ابن الراوندى[١] والبغدادى[٢] وابن حزم، والشهرستانى[٣] فقد زعم هؤلاء أن الجاحظ كان يقول :

(١) إن المعارف كلها ضرورية طِباع ، وليس شىء منها من أفعال العباد ، وإنما وقعت منهم طِباعا ، وليس لهم فيها اختيار على الحقيقة ، وانما تنسب إليهم على أنها وجبت بإرادتهم ، فإنه ليس للعبد كسب سوى الإرادة .

(٢) ليس بجائز أن يبلغ أحد ولا يعرف الله تعالى .

(٣) الكفار بين معاند وبين عارف قد استغرقه حبه لمذهبه ، فهو لا يُشكر بما عنده من المعرفة بخالقه ، وبصدق رسله .

(٤) مُحال أن يُعدم اللهُ الأجسامَ بعد وجودها ، وإن أوجدها بعد عدمها . ولا يمكن البتة إفناؤها إلا أن يُرققها ويفرق أجزاءها فقط . فالأعراض تتبدل ، والجواهر يستحيل عليها الفناء .

---

(١) هو ابو الحسين أحمد بن يحيى الراوندى ، كاتب فيلسوف متردد الرأى كثير التنقل فى المذاهب يرمى بالزندقة . ويروى أنه مات على توبة سنة ٢٩٨ هـ

(٢) هو أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التيمى البغدادى صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » الذى نشره بالطبع صديقنا العلامة الدكتور محمد بدر سنة ١٩١٠ توفى البغدادى سنة ٤٢٩ هـ

(٣) هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى صاحب كتاب « الملل والنحل » عالم فاضل وفقيه محقق ، ومتكلم نظار . ولد بشهرستان سنة ٤٤٩ هـ وتوفى بها سنة ٥٤٨ هـ

(٥) ليس للإرادة أصل، ولكنها جنس من الأعراض إذا انتفى السهو عن الفاعل، وكان عالما بما يفعله، فهو المريد على التحقيق. وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس اليه.

(٦) جائز أن يوصف الله تعالى بأنه مريد، بمعنى أنه لا يصح فى حقه السهو فى أفعاله ولا الجهل بها، ولا يجوز أن يُغلب أو يُقهر.

(٧) إن الله لا يُدخل النار أحداً، وإنما النار هى التى تجذب أهلها إليها بطبيعتها، ثم تمسكهم فيها على الخلود، وليس معنى الخلود أن يُصْلَوْا فيها عذابا أبدا! وإنما هم يصيرون إلى طبيعتها.

(٨) إن للأجسام طبائع وأفعالا مخصوصة بها.

(٩) إن القدَرَ خيره وشره من العبد.

(١٠) إن الخلق كلهم من العقلاء عالمون بأن الله تعالى خالقهم، وعارفون بأنهم محتاجون الى النبى، وهم محجوجون بمعرفتهم. ثم هم صِنفان: عالم بالتوحيد، وجاهل به: فالجاهل معذور، والعالم محجوج.

(١١) إن من دان بالاسلام وجب عليه أن يعتقد أن الله تعالى ليس بجسم، ولا صورة، ولا يُرَى بالأبصار، وأنه عدل لا يجور، وأنه لا يريد المعاصى. فإن أقر بذلك كله — بعد الاعتقاد والتبيين — فهو مسلم حقاً. وإن عرف ذلك كله ثم جحده وأنكره، أو دان بالتشبيه والجبر، فهو مشرك كافر حقا. وإن لم ينظر فى شىء من ذلك واعتقد أن الله تعالى ربه، وأن محمداً رسول الله، فهو مؤمن، لا لوم عليه ولا تكليف غير ذلك.

وقد تَقَوَّلُوا على الجاحظ غير ذلك أقاويل أخر، ردها أنصاره، ودفعها أشياعه. ومن استخف ما تقولوه عليه ما رواه الشهرستانى منسوبا الى ابن

الراوندى ونقله المقريزى[١] عن الشهرستانى ، أنه كان يقول : إن القرآن المنزل من قبيل الأجساد ، ويمكن أن يصير مرة رجلا ، ومرة حيوانا ...؟! ولا شك فى أن هذا افتراء محض وكذب صراح ، فما كان مثل الجاحظ يتنزل إلى هذا الدرك من السخف ، أو يسف إلى هذا الحضيض من الهراء ! ولا أدرى كيف روى الشهرستانى هذه الفرية الجاهلة عن ابن الراوندى ، دون تزييفها وإبانة دغلها ، مع أن أبا الحسين الخياط[٢] قد استصفى فى كتابه « الانتصار » كل مطاعن ابن الراوندى فى المعتزلة ، وفى صدرهم الجاحظ ، وجاء فيه بما رماهم به من المساوىء والمثالب ، وردها عليه ، واحدة فى إثر واحدة ، بالحجج القاطعة والبراهين الدامغة ، ومع هذا لم يرد لهذه القولة المفتراة أى أثر فى تقولات ابن الراوندى على الجاحظ . كذلك قد روى الامام أبو الحسن الأشعرى جميع أقوال المعتزلة ، جليلها ودقيقها ، فى كتابه « مقالات الاسلاميين » بكل دقة وحرص ، ولم يرد لهذه الأكذوبة أى إشارة . وها هو ابن قتيبة وابن حزم والبغدادى ، وكلهم خصم للجاحظ ، لم ينسبوا إليه شيئاً من هذا الرأى الفائل . ولو أن أحدا منهم عثر للجاحظ على شىء من هذا ، ولو من طريق الإيماء والتعريض ، لملأ الدنيا تشنيعاً عليه ،

---

(١) هو تقى الدين احمد بن على بن عبد القادر المقريزى المؤرخ المصرى الشهير صاحب كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المعروف بخطط المقريزى ، وكان من المتفننين فى العلوم . ولى حسبة القاهرة زمناً . وكان مولده سنة ٧٦٩ هـ وتوفى سنة ٨٤٠ هـ

(٢) هو ابو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط صاحب كتاب « الانتصار » الذى يرد به على ابن الراندى . كان من أكابر المعتزلة وأعيان المتكلمين ، وكان من العلم والفضل وقوة الحجة على جانب عظيم ، وكان مع هذا فقيهاً محدثا كثير الحفظ . وكان يفضل على بن أبى طالب على جميع الصحابة توفى سنة ٣٠٠ هـ

وتحقيرا له ، وطعنا فيه . ألحق أنها فرية كاذبة لا يصح أن تصدر من عاقل ، لا ولا من مأفون .

وفى تعليق لأبى الحسين الخياط على مفتريات ابن الراوندى على الجاحظ فى قوله « محال أن يعدم الله الأجسام بعد وجودها » يقول ابن الراوندى: ومتى استحال أن يعدم الجسم بعد وجوده، إستحال أيضا وجوده بعد عدمه.

فقال الخياط : وهذا كذب على الجاحظ عظيم، وذلك أن قول الرجل إنما يعرف بحكاية أصحابه عنه أو بكتبه ، فهل وجد هذا القول فى كتاب من كتبه ؟ فان كتب عمرو الجاحظ معروفة مشهورة فى أيدى الناس ! أوهل حكاه عنه أحد من أصحابه ؟ فاذا كان الرجل ميتاً فكتبه وأصحابه تخبر بخلاف ماقرفه به هذا الماجن الكذاب . فقد تبين كذبه و بهته وجهله .
و بعد فمن قرأ كتاب عمرو الجاحظ فى الرد على المشبهة ، وكتابه فى الأخبار و إثبات النبوة ، وكتابه فى نظم القرآن ، علم أن له فى الاسلام غَنَاءً عظيما لم يكن الله عز وجل ليضيعه له.

قلت : ولا ضير على الجاحظ ، إن كان قد قال ببقاء المادة وعدم تلاشيها، فان هذا القول قد أصبح فى عصرنا هذا مذهباً معروفا، يسلم به ويدين بصحة أسسه ، الكثير من أكابر العلماء وفحول أهل البحث والنظر، فى أوربا وأمريكا وغيرهما من قارات الدنيا ، ولهم على صحته من الأدلة والبرهانات المبنية على البحث العلمى والاستقراء الطبيعى، ما لاسبيل إلى دفعه أو إضعافه . اللهم إلا إذا جاءنا الزمن ، وهو أبو العجب، من الغوامض العلمية التى تظهر آنا بعد آن ، بما لم يخطر على البال ، فينتصر المذهب الروحى على المذهب المادى .
غير أن المذهب المادى لا يزال من المشاهد أن له السيادة الصحيحة حتى الآن . فإذا سلمنا بأن الجاحظ كان قد ارتآى هذا الرأى واعتنق هذا

المذهب ،ولم يلصقه بهابن الراوندى إلصاقا ، كان له فضل السبق الى كشفه والقول به منذ أحدعشر قرنا .

وكان ابن الراوندى مايزال يرمى المعتزلة بالشُّنع ، ولايتورع فى الكذب عليهم ، ووضع المآثم والمآخذ على ألسنتهم . وكان قد رمى الجاحظ ببغض الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فرد عليه الخياط بقوله :

وأما رميك للجاحظ ببغض الرسول ، فهو دليل على أنك لا تعرف المحب من المبغض ، ولا الولى من العدو . لأنه لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة ، بلغ فى ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يُعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته ، غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه فى إثبات الرسالة ، وكتبه فى تصحيح مجىء الأخبار ، مشهورة . وهل يستدل على حب الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان به وتصديقه فيما جاء به ، بشىء أوكد مما يستدل به على حب الجاحظ الرسول وتصديقه إياه ؟ !

قلت : ومن أقوى الأدلة وأبرعها على أن الجاحظ كان أتقى من أن يرمى بما رماه به ابن الراوندى فى شأن الرسول ، أنه صحح النسب الشريف وأثبت أنه فوق كل نسب شرفا وطهراً ، وأظهر كذب النسابين وخطأهم ، فيما رويناه لك فى فصل مضى من هذا الكتاب

الفصل السادس عشر

فى

شأن الجاحظ مع ابن الزيات وابن أبى دؤاد

كان الجاحظ ذا حظوة عند رجال الدولة العباسية ، وكانوا جميعاً يقدرون فضله ، و يعجبون به ويكبرون شأنه ، ويجلون ما اختص به من المعارف الواسعة وما طبع عليه من لطف المعشر ، وجميل السمر ، وتدفق النوادر والفكاهات . ولم يكن واحد منهم إلا و يتمنى أن يكون الجاحظ إلى جانبه وفى جملته . غير أن الجاحظ كان هواه فى أشخاص دون آخرين . ولهذا آثر أن يفضل جانب ابن الزيات الوزير على جانب ابن أبى دؤاد القاضى . وقد كانت الدسائس تدب عقاربها ، والوشايات تعمل عملها ، بين الوزير والقاضى ، فلما ظهرت العداوة والبغضاء منهما ، واتسعت هوة الشنآن بينهما ، سُعى بابن الزيات حتى قبض عليه ، ففر الجاحظ ، فقيل له : لم هربت ؟ فقال : خِفت أن أكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور ؟!

يشير إلى التنور الذى صنعه ابن الزيات وجعل فى جوفه المسامير ليعذب به خصومه ، فعذب هو فيه ، فيما قيل ، حتى مات .

ثم عُثر على الجاحظ وجىء به إلى القاضى أحمد بن أبى دؤاد ، فدخل عليه مغلول العنق بسلسلة ، مقيد الرجلين ، فى قميص سَمَلٍ . فلما وقع نظره عليه قال : والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدناً للمساوى . وما فتَّنى باستصلاحى لك ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويتك

ورداءة دِخلتك، وسوء اختيارك، وغالب طبعك.

فقال الجاحظ: خفض عليك أيدك الله، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك، ولأن أسيء وتحسن أحسن فى الأحدوثة من أن أحسن وتسيء، ولأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجمل بك من الانتقام منى.

فقال له ابن أبى دؤاد: قبحك الله، والله ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام، وقد جعلت بيانك أمام قلبك ثم اضغنت فيه النفاق والكفر. ما تأويل هذه الآية «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى وَهِىَ ظَالِمَةٌ إن أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» ؟

قال الجاحظ: تلاوتها تأويلها، أعز الله القاضى!

فقال: جيئوا بحداد!

فقال: أعز الله القاضى، ليفك عنى أو ليزيدنى ؟!

فقال: بل ليفك عنك.

فجىء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يَعْنُف بساقه ويطيل أمره قليلا، فلطمه الجاحظ وقال: إعمل عمل شهر فى يوم، وعمل يوم فى ساعة، وعمل ساعة فى لحظة، فإن الضرر على ساقى، وليس بجذع ولا ساجة! فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه. وقال القاضي لمحمد بن منصور[1]

(١) هو محمد بن منصور بن زياد. وكان يلقب (فتى العسكر) وكان فى أول أمره كاتبا للبرامكة ثم تنقلت به الأحوال فى خدمة السلطان. قال أبو العيناء: إنه كان يلى قضاء فارس وخوزستان إلى أن صار من سراة الدولة وعظمائها. ولأبى يعقوب الخريمى فيه وفى آله مدائح ومراث حسان، ومدحه أشجع السلمى ورأى ازدحام الناس على بابه فقال:

على باب ابن منصور علامات من البذل
جماعات وحسب البا ب نبلا كثرة الأهل

وكان حاضراً : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ؟ ! ثم قال : يا غلام ، صر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى .

فنزع عنه الغُل والقيد ، وأدخل الحمام وحمل إليه تخت من الثياب وطويلة وخف ، فلبس ذلك . ثم جاءه فصدره فى المجلس ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان ؟ !

قلت : أنظر إلى هذه الأخلاق الراقية ، والنفوس الزاكية ، وإلى هذه القلوب الكبيرة ، والصدور الرحبة ! أحمد ابن أبى دؤاد — وهو من صدور الدولة ، وجباه الملة ، ورؤس الأمة — يعامل الجاحظ — وهو الذى مالأ عليه عدوه الألد ، وناصر خصمه الأشد — بهذه المعامله النبيلة ، وينزله منه هذه المنزلة الجليلة ؟ إن هذا لهو الخلق الكريم ، إن هذا لهو الفضل العظيم . وهل أكرم فى الجاحظ إلا علمه ؟ وهل آثر منه إلا فهمه ؟ وهل أجل إلا أدبه ؟ وهل أعظم إلا بيانه ولسنه ؟ !

ثم أدر طرفك فى أهل هذا الزمن ، فهل ترى من هاتيك الفضائل طرفا فى أمير أو وزير ؟ وهل تجد من تلك الشمائل أثرا فى عظيم أو كبير ؟ وهل أحسست منهم إلا نفوساً دنيئة ، وقلوباً وبيئة ، وصدورا يضطرب فيها الغل ، ويصطخب الحقد والضغن ؟ !

أَرَى زَمَناً نَوْكَاهُ أَكْرمُ أَهْلِهِ ... وَلَـكِنَّما يشقَى بِهِ كلُّ عاقلِ (١)
مَشَى فَوْقَهُ رِجْلاهُ وَالرَّأْسُ تحتهُ ... فَـكَبَّ الأعالِى بارتفاعِ الأسافلِ

(١) النوك ، جمع أنوك ، والأنوك : الأحمق الذى لاخير فيه

الفصل السابع عشر

فى

رأى الجاحظ فى العروض والشعر

تعلق الجاحظ بالشعر، وحاول التبريز فيه، والتفوق فى مناحيه، تبريزه فى النثر وتفوقه فيه، وارتقاءه إلى قمته، وقبضه على ناصيته. ولكن الطبيعة أشد ضناً من أن تبلغ بإنسان ذؤابة الكمال. ولذلك لم ينل من الشعر ما أمل، ولم يبلغ فيه ما قدر، فرجحت كفة ميزانه فى النثر، وشالت أختها فى الشعر. وكان يقول: طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يعرف إلا غريبه، فرجعت الى الأخفش فوجدته لا يحسن إلا إعرابه، فعطفت على أبى عبيدة فرأيته لا ينقل إلا فيما اتصل بالأخبار وتعلق بالأنساب والأيام؟ ولم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب[1] ومحمد بن عبد الملك الزيات.

---

(١) هو أبو على الحسن بن وهب بن سعيد الكاتب العالم الشاعر الأديب. وهو من ذلك البيت الذى تسلسل فى الكتابة للأمراء والوزراء والخلفاء من بنى أميه وبنى الغباس، وقد ظلت الوزارة فى هذا البيت أيام بنى العباس زمناً يتوارثونها كابرا عن كابر. وكان الحسن هذا يكتب أولا لمحمد بن عبد الملك الزيات، ثم ترقت به الحال إلى أن تولى ديوان الرسائل ببغداد، ثم تقلد البريد بالشام فى عهد المتوكل على الله العباسى. وله رسائل مدونه آية فى البلاغه، وشعر غاية فى الجودة، وكان مولده ببغداد سنة ١٨٦ هـ وتوفى فى حدود سنة ٢٤٧ هـ

وكان، وهو فى سبيل الطلب، مغرما بتعلم العروض ، مكبراً من شأنه. ولهذا كان يقول :

« ألعروض ميزان الشعر ومعياره ، و به يعرف الصحيح من السقيم ، والمعتل من السليم ، والقريض من الشعر ، و به يسلم من الأود والكسر »

فلما لم يبلغ فيه إر بته ، ولم ينل منه بغيته ، ولم يتهيأ له فيه مراده، قال :

« ألعروض علم مردود ، ومذهب مرفوض، وكلام مجهول ، يستكد العقول ، بمستفعل ومفعول ، من غير فائدة ولا محصول »

وهذا من غريب التصرف فى ضروب الكلام ، الذى اختص به الجاحظ وفاق فيه غيره من سائر كتاب العربية ، وناهيك برجل يضع رسالة يفاضل فيها بين المسك والرماد ؟!

وعلى ذكر العروض وقول الجاحظ فيه ، أروى هنا قولا غريباً عثرت به لأحد علماء مصر ، وهو محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى الملقب شمس الدين ، قال : إن الشعر اليونانى له وزن مخصوص ، ولليونان عروض لبحور الشعر ، والتفاعيل عندهم تسمى الأيدى والأرجل . قال : ولا يبعد أن يكون وصل الى الخليل بن أحمد شىء من ذلك فأعانه على إبراز العروض الى الوجود .؟!

قلت : إذا صح أن الخليل بن أحمد كان يعرف اللغة اليونانية ، وكان يعرفها معرفة جيدة ، كان لهذا القول مكانه فى الصدق والصواب ، ويكون لهذا التظنى شىء من الوجاهة والسداد ، ولكن ذلك لم يثبت ، ولم يتقدم هذا الشيخ بالقول به أحد ، ولم يُعرف عن الخليل أن له أى إلمام بأية لغة غير العربية

وللجاحظ رأى فى الشعر ، وهل فى الامكان ترجمته إلى اللغات الأخرى ؟ أما هو فيقول :

وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب ، والشعر لا يُستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حُول تقطع نظمه ، و بطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب منه ، وصار كالكلام المنثور . والكلام المنثور المبتدأ على ذلك،أحسن من المنثور المنقول عن موزون الشعر . وقد نُقلت كتب الهند ، وتُرجمت حكم اليونان ، وحُولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً ، و بعضها ما انتقص شيئاً . ولو حُولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن . ثم إنهم لو حولوها لم يجدوا فى معانيها شيئاً لم تذكره العجم فى كتبهم التى وضعت لمعاشهم وفِطَنهم وحِكمهم . وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن لسان إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها .

قلت : وهذا قول لاغبار عليه ، ورأى جدير بالنظر والاعتبار ، من كل مشتغل بهذا الفن ، أو متجه نحو هذه الفكرة . لأنه قول خبير ، ورأى عليم

الفصل الثامن عشر

فى

وصف مؤلفاته واحصائها

" قال المسعودى : كتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارىء ، وسآمة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة . . . وسائر كتبه فى نهايه الكمال . . . ولا يُعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه "

أقول : وقد اعتمدت فى ذكر مؤلفاته على ماذكره هو فى كتابه « الحيوان » وعلى ما أورده ياقوت فى كتابه « معجم الأدباء » وعلى ماعثرت به فى غيرها من الكتب والأسفار · وقد جهدت أن لا يقع فيها تكرار ، وإن كان النساخ الأقدمون قد جعلوا لبعض كتب الجاحظ عدة عناوين ، مما أجاز اللَّبس على كثير من الفارقين ، ومما يحول دون الاستقصاء الصحيح . كما أنه قد وُضع الكثير من الكتب معزوة إليه . غير أنه مما لا يصح أن يشك فيه ، أن هذا الثَّبَتَ أصح وأوفى وأوضح من غيره على صورة مطلقة . وقد رتبته على الحروف . واليك هو :

١

كتاب آل إبراهيم بن المُدَبِّر (١) فى المكاتبة

٢

كتاب آى القرآن

قال الجاحظ : جمعت فى هذا الكتاب آيات من القرآن يتعرف بها فرق مابين الإيجاز والحذف ، وما بين الزوائدوالفضول والاستعارات .

٣

رسالة فى إثم السكر

٤

وسالة إلى أبى النجم (٢) وجوابه

٥

كتاب إحالة القدرة على الظلم

٦

كتاب الإحتجاج لنظم القرآن

قال الباقِلَّانى : وقد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتابا لم يزدفيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى .

وهذا كلام فيه عهدة ! لأن الباقلانى يريد أن يعلن أنه هو وحده الذى استطاع أن يبز المتقدمين فى الاحتجاج لإعجاز القرآن ونظمه .

---

(١) آل المدبر: هم أحمد ومحمد وإبراهيم. وكلهم كاتب بليغ وشاعر مجيد. وما منهم إلا من ولى الولايات الجليلة ، وعمل للسلطان الأعمال النافعة ، فى عهد الخلفاء العباسيين من المعتصم إلى المعتضد. ولأحمد وإبراهيم أخبار حسان

(٢) هو أبو النجم هلال الأنبارى مولى بنى سليم ومن أهل بغداد. وكان من الكتاب المترسلين . وكان ولده صالح كاتباً ، وولده أحمد شاعرا .

٧

كتاب أُحدوثة العالم

٨

كتاب الأخبار

وقد ذكر له كتابان آخران ، هما « كتاب الأخبار وكيف تصح » وكتاب « تصحيح الأخبار » ولعل هذه الأسماء لمسمى واحد

٩

كتاب الأخطار والمراتب والصناعات

١٠

كتاب أخلاق الشُّطَّار

١١

كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البِطالة

ذكر هذا الكتاب فى كتاب التاج المنسوب إليه

١٢

كتاب أخلاق الملوك

١٣

كتاب الإخوان

١٤

كتاب الإستبداد والمشاورة فى الحرب

١٥

كتاب الإستطاعة وخلق الأفعال

وهو من الكتب التى وضعها فى تقرير مذهب الاعتزال

١٦

كتاب استطالة الفهم

ذكره القاضى شهاب الدين الخفاجى (١) فى كتابه « طراز المجالس » وقال : كتاب صنفه الجاحظ وقد جمع فيه نبذا من كلام الحكماء والشعراء

١٧

رسالة فى استنجاز الوعد

هذه الرسالة منشورة ضمن «مجموعة رسائل» المطبوعة بمصر سنة ١٣٢٤ وهى كذلك منشورة ضمن « الفصول المختارة» المطبوعة بهامش كتاب الكامل

١٨

كتاب الأسد والذئب

١٩

كتاب أصحاب الإلهام

٢٠

كتاب الأصنام

هو الكتاب الذى وضعه الجاحظ فى ذكر الأصنام فى الجاهلية وصحح فيه نسب النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ جد النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) هو الشيخ أحمد بن محمد بن عمر قاضى القضاة شهاب الدين الخفاجى المصرى، أحد أفراد العلماء وأفذاذ الأدباء، صاحب التصانيف البارعة فى العلم والأدب. ولى قضاء بلاد الروملى ثم قضاء سلانيك ثم ولى قضاء مصر. وعنه عزل ورحل إلى بلاد الروم ثم أعيد منفيا إلى مصر وبها عين قاضيا. وله من المؤلفات : شرح الشفاء ، وشرح درة الغواص ، وريحانة الألباء ، وشفاء الغليل ، وديوان الأدب ، وطراز المجالس. وله رسائل ومقامات وأشعار تنطق ببراعته وتفوقه على أهل دهره. توفى بمصر عن نيف وتسعين عاما سنة ١٠٦٩ هـ

٢١

كتاب أصول الفُتيا والأحكام

٢٢

الاعتزال و فضله

لعل هذا هو الكتاب بعينه الذى ذكر باسم « فضيلة المعتزلة » والذى رد عليه ابن الراوندى بكتاب أسماه « فضيحة المعتزلة »

٢٣

كتاب افتخار الشتاء والصيف

٢٤

كتاب أفعال الطبائع

٢٥

كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات

٢٦

كتاب الإمامة على مذهب الشيعة

ولست أدرى هل هذا الكتاب هو الرسالة المطبوعة بمصر سنة ١٣٢٤ ضمن « مجموعة رسائل » بعنوان « بيان مذاهب الشيعة »؟ أم هو غيرها !

٢٧

كتاب إمامة معاوية بن أبى سفيان (١)

---

(١) هو معاوية بن أبى سفيان. أسلم بعد أبيه عام فتح مكة سنة ٨ ،وولى الشام بعد أخيه يزيد لعمر وعثمان . ثم كانت بينه وبين على بن أبى طالب أحداث وخطوب ووقائع وحروب بدعوى المطالبة بدم عثمان، وظل الشام فى يده إلى أن تنازل له الحسن بن على عن حقه فى الخلافة فاستولى عليها واستقام له الأمر، ودبر الملك بما طبع عليه من حكمة وسياسة ودهاء وخديعة ومكر ، إلى أن مات بدمشق سنة ٨١ هـ عن ثمانين سنة

قال المسعودى : لم يرض (الجاحظ) بهذا الكتاب المترجم بكتاب « العثمانية » حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر فى إمامة المروانية وأقوال شيعتهم! ورأيته مترجما بكتاب « أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان » فى الانتصاف من على بن أبى طالب وشيعته الرافضة ، يذكر فيه رجال المروانية ويؤيد فيه إمامة بنى أمية وغيرهم

٢٨

كتاب إمامة وُلد العباس (١)

قال المسعودى : وقد صنف الجاحظ كتاب « إمامة ولد العباس » يحتج فيه لهذا المذهب ويذكر فعل أبى بكر (٢) فى فَدَكٍ (٣) وغيرها، وقصته

---

(١) هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإليه ينتهى نسب العباسيين. كان إليه فى الجاهلية سقاية الحاج وزمزم. ثم دفعهما النبى إليه عام الفتح . وكان يوم العقبة مع النبى فعقد له على الأنصار . مات فى خلافة عثمان وقد كف بصره عن ٨٩ سنة

(٢) هو أبو بكر الصديق الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم بويع له بالخلافة يوم سقيفة بنى ساعدة ، وقام بالبيعة له عمر بن الخطاب فقطع بذلك مادة الشر وحسم أسباب الخلاف بين المهاجرين والأنصار. ونهض أبو بكر بأعباء الخلافة خير نهوض، ونهد لحروب الردة فكان فيها من الموفقين . مات سنة ١٣ هـ

(٣) هى قرية بالحجاز قريبة من المدينة ، كانت من الأملاك الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم . وذلك أن النبى بعث، بعد منصرفه من خيبر، إلى أهل فدك محيصة بن مسعود يدعوهم إلى الاسلام فوجدهم فى خوف ووجل بعد سقوط خيبر فى يد المسلمين، فصالحه أهلها، وعلى رأسهم زعيمهم يوشع بن نون، على نصف الأرض بتربتها ، فقبل ذلك منهم وأمضاه رسول الله ، فكان خالصاً له دون سائر المسلمين، لأنه لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب. فلما انتقل

مع فاطمة رضى الله عنها ومطالبتها إياه بإرثها من أبيها صلى الله عليه وسلم ، واستشهادها ببعلها وابنيها وأم أيمن (١) وما جرى بينها و بين أبى بكر من المخاطبة ، وما كثر بينهما من المنازعة ، وما قالت وما قيل لها عن أبيها عليه الصلاة والسلام من أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء نَرِث ولا نُورث » . وما احتجت به عليه من قوله عز وجل « وَوَرِثَ سُليمان داودَ » على أن النبوة لا تورث فلم يبق إلا التوارث . وغير ذلك من الخطاب .

قال المسعودى : ولم يصنف الجاحظ هذا الكتاب ولا استقصى فيه الحِجاج للراوندية وهم شيعة ولد العباس، لأنه لم يكن مذهبه ولا كان يعتقده ، لكن فعل ذلك تماجنا وتقربا

قلت : ولعله هو المسمى بكتاب « العباسية » وقد وقفت على وصية للعباس ألقاها إلى على بن أبى طالب حال وفاته ، رواها الصولى عن الجاحظ ، وأحسب أنها منقولة من هذا الكتاب ، ولهذا آثرت إثباتها هنا لأنها من جيد ما يروى . قال الجاحظ : إن العباس بن عبد المطلب أوصى على بن أبى طالب فى علته التى مات فيها فقال :

إلى الرفيق الاعلى وقام بالأمر من بعده أبو بكر، طالبته فاطمة بحقها فى ميراث أبيها من فدك فلم يورثها . ولمتكلمى الشيعة والمعتزلة فى هذا الشأن مجادلات ومناظرات فى تخطئة أبى بكر وتصويبه، ليس هنا محل بسطها . غير أن عمر ابن الخطاب لما تولى الخلافة دفعها إلى بنى هاشم فكانت فى يد على والعباس، فلما ولى معاوية أقطعها مروان بن الحكم، ثم وهبها مروان لعبد العزيز وعبد الملك ابنيه، ثم جمعها عمر بن عبد العزيز إليه وردها على بنى هاشم ، ثم دفعها المأمون إلى بنى فاطمة

(١) هى جارية تسمى بركة كانت لأم رسول الله ، ورثها منها واعتقها وتزوجها رجل من الخزرج يسمى عبيد فولدت له أيمن بن عبيد، ثم تزوجها زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد

أى بُنىَّ ، إنى مشف على الظعن عن الدنيا إلى الله الذى فاقتى إلى عفوه وتجاوزه ، أكثر من حاجتى إلى ما أنصحك فيه وأشير عليك به . ولكن العِرق نَبُوض ، والرحم عروض . وإذا قضيتُ حق العمومة فلا أبالى بعد . إن هذا الرجل — يعنى عثمان — قد جاءنى مراراً بحديثك ، وناظرنى مُلاينا ومُخاشنا فى أمرك ، ولم أجد منه عليك إلا مثل ما أجد منك عليه ، ولا رأيت منه لك إلا مثل ما أرى منك له ، ولستَ تُؤْتَى من قِلة علم ، ولكن من قلة قبول . ومع هذا كله فالرأى الذى أُودعك به أن تُمسك عنه لسانك ويدك وهمزك وغمزك ، فإنه لا يبدؤك ما لم تبدؤه ، ولا يجيبك عما لم يبلغه ، وأنت المُتَجَنِّى وهو المتأنى ، وأنت العائب وهو الصامت .

فإن قلتَ : كيف هذا وقد جلس مجلسا أنا به أحق ؟ فقد قاربت . ولكن ذلك بما كسبت يداك ، ونكص عنه عَقِباك . لأنك بالأمس الأدنى هرولت إليهم تظن أنهم يُحَلُّون جيدك ، ويُختمون إصبعك ، ويَطئون عقبك ، ويرون الرشد بك ، ويقولون لابد لنا منك ، ولا مَعدِل لنا عنك ! وكان هذا من هفواتك الكبر ، وهَناتك التى ليس لك منها عذر . والآن ، بعد ما ثَلَلت عرشك ، ونبذت رأى عمك فى البيداء ، يتدهده فى السافياء .

خذ بأحزم ما يتوضح به وجهُ الأمر : لا تُشَارّ هذا الرجل ولا تُماره ، ولا يبلغنه عنك ما يُحنقه عليك . فإنه إن كاشفك أصاب أنصاراً ، وإن كاشفته لم تر إلا ضِرارا ، ولم تستلج إلا عثارا . واعرف مَن هو بالشام له ، ومَن ههنا حوله من يطيع أمره ، ويمتثل قوله . لا تغترر بناس يُطيفون بك ، ويَدَّعون الحنو عليك والحب لك ، فانهم بين مولى جاهل ، وصاحب متمن ، وجليس يرعى العين ويبتدر المحضر . ولو ظن الناس بك ما تظن

بنفسك لكان الأمر لك والزمام فى يدك . ولكن هذا حديث يوم مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فات ، ثم حَرُمَ الكلام فيه حين مات ، فعليك الآن بِالعُزُوفِ عن شىء عَرضك له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يتم ، وتَصديت له مرة بعد مرة فلم يستقم ، ومن ساور الدهر غُلب ، ومن حرص على ممنوع تَعِب . فعلى ذلك فقد أوصيت عبدَ الله بطاعتك ، و بعثته على مُتابعتك ، وأوجرته محبتك ، ووجدت عنده من ذلك أظنى به لك . لا توتر قوسَك إلا بعد الثقة بهـا ، و إذا أعجبتك فانظر إلى سِيتِهِا ، ثم لا تفوّقْ إلا بعد العلم ، ولا تغرق فى النزع إلا لتصيب الرَّمية . وانظر لا تَطرف يمينُك عَينك ، ولا تَجن شمالك شَينك ، ودعنى بآيات من آخر سورة الكهف . وقم إذا بدا لك !

٢٩

رسالة فى امتحان عقول الأولياء

بعث بها الجاحظ إلى أبى الفرج بن نجاح

٣٠

كتاب الأمثال

٣١

كتاب الأمصار

لعل هذا الكتاب هو بعينه الذى ذكره المسعودى باسم كتاب « البلدان »وقد ذكرناه لاحتمال المغايرة

٣٢

رسالة فى الأمل والمأمول

٣٣

كتاب أمهات الأولاد

٣٤

كتاب الأنس والسلوة

٣٥

كتاب الأوفاق والرياضات

٣٦

كتاب البخلاء

هذا الكتاب من أبدع ماخطته يد الجاحظ ، وهو خليق بأن يستخرج منه بحث طريف فى أصول التدبير المنزلى، وفى استثمار المال، والانتفاع بحقائر الاشياء . وهو مطبوع فى مصر سنة ١٣٢٣ هـ

٣٧

كتاب بصيرة غنام المرتد

٣٨

كتاب البلدان

قلنا إن هذا الكتاب قد يكون هو بعينه كتاب « الأمصار » المار ذكره، ولكنا ذكرناه لاحتمال المغايرة

٣٩

كتاب البيان والتبيين

وضع الجاحظ هذا الكتاب الجليل وقدمه إلى القاضى أحمد بن أبى دؤاد، أحد عظماء الدولة العباسية، وأجازه القاضى عليه بخمسة آلاف دينار . وزعم ياقوت أن الجاحظ وضع من هذا الكتاب نسختين كانت الثانية منهما أصح وأجود. وقد أجمع المتقدمون من أكابر العلماء، وأفاضل الأدباء، على أنه من أفضل ما وُضع فى الأدب. قال المسعودى: وللجاحظ كتب حسان ، منها كتاب « البيان والتبيين » وهو أشرفها، لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغرر

الأشعار، ومستحسن الأخبار، و بليغ الخطب، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به. وقال ابن خلدون (١): سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين. وهى: «أدب الكاتب لابن قتيبة» وكتاب «الكامل للمبرد» وكتاب «البيان والتبيين للجاحظ» وكتاب «النوادر لأبى على القالى» (٢) وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها.

وقد طبعت فى القسطنطينية سنة ١٣٠١ بمطبعة الجوائب مجموعة باسم «خمس رسائل» ضمنها كتاب «منتخبات البيان والتبيين» ولم يذكر الناشر اسم من انتخبه، غير أنه زعم أنه للجاحظ. ولم يُعرف عن الجاحظ أنه تعرض لشىء من كتبه بالانتخاب أو الاختيار أو التلخيص أو الاختصار. مع أن هذا المنتخب غير جيد ولا حسن. ولا هو خيرة ما فى البيان والتبيين

ولما كان أبى رحمه الله كثير الحث لى على قراءة كتاب البيان والتبيين وكان يوجب على استظهار ما يمكننى استظهاره من منثوره ومنظومه، فقد ولعت به منذ الصغر. وكنت كثير الاستياء من طبعاته التى ظهر بها. لهذا رأيت أن أضبط ما يستحق الضبط من عباراته، وأعلق عليه الحواشى والتعليقات، وأبين

---

(١) هو ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمى الفاسى المؤرخ الشهير. وهو أول من وضع قواعد علم الاجتماع والعمران من علماء العرب. ولد بمدينة فاس، وتولى هناك كثيرا من الأعمال السلطانية، ثم حضر إلى مصر وتولى قضاء المالكية فى البيبرسية. ومات فى رمضان سنة ٨٠٨ هـ

(٢) هو أبو على اسماعيل بن القاسم بن عيذون القالى نسبة إلى بلد بأرمينية تسمى قالى قلا. ولعلها هى المعروفة الآن بكليكية. كان من أكابر الأدباء وأفاضل اللغويين. وهو صاحب كتاب الأمالى والذيل والنوادر المشهور. ولد بديار بكر سنة ٢٨٨ هـ وتوفى بقرطبة سنة ٣٥٦ هـ

بقدر الحاجة ماغمض من معانيه . فلما تم لى ذلك طبعته فى سنة ١٩٢٦ — ١٩٢٧ فى ثلاثة أجزاء. ثم ها أنا ذا فى سبيل وضع شرح له أوفى و بيان أتم، وسأعيد طبعه قريباً إن شاء الله تعالى فى صورة أبدع وأجمل ، نسأل الله العون .

٤٠
رسالة فى بيان مذاهب الشيعة

هذه الرسالة مطبوعة ضمن « مجموعة رسائل » بمصر سنة ١٣٢٤ وقد قلنا فيما سلف إنها قد تكون كتاب « الامامة على مذهب الشيعة » . ولكنا ذكرناها هنا لاحتمال المغايرة

٤١
كتاب تحصين الأموال

٤٢
كتاب التربيع والتدوير

هذا الكتاب طرفة من طرف الجاحظ ، وضعه يتندر به على صاحبه أحمد بن عبد الوهاب ، و يصف ما هو عليه من دمامة الخَلق وقبح التركيب ، ودعواه أنه جميل الصورة معتدل الخلق حسن التركيب ، و يعاييه بمائة مسألة يطلب اليه الجواب عنها . وأكثر هذه المسائل من الخرافات والأساطير، ولكنها تملك على النفس مشاعرها لسمو العبارة ودقة المعنى . طبع هذا الكتاب مع رسالة « مناقب الترك » ورسالة « فخر السودان على البيضان » بلندن سنة ١٩٠٣ ثم طبع بمصر ضمن « مجموعة رسائل » سنة ١٣٢٤ هـ

٤٣
كتاب تصويب على فى تحكيم الحكمين

يظهر أنه لم يبق من هذا الكتاب إلا هذه القطعة التى عثرنا بها

بعد الجهد الجهيد ، وهى تعطى صورة من الطريقة التى تبعها الجاحظ فى الاعتذار لعلى فى قبوله التحكيم . قال الجاحظ : من عرفه (يعنى على) عرف أنه غيرملوم فى الانقياد معهم الى التحكيم ، فإنه مَلَّ من القتل وتجريد السيف ليلا ونهاراً حتى ملت الدماء من إراقته لها ، وملت الخيل من تَقَحُّم الأهوال بها ، وضجر من دوام تلك الخطوب الجليلة ، والأرزاء العظيمة ، واستلاب الأنفس ، وتطاير الأيدى والأرجل بين يديه ، وأكلت الحرب أصحابه وأعداءه ، وعطلت السواعد ، وخدرت الأيدى التى سلمت من وقائع السيوف بها ، ولو ان أهل الشام لم يستعفوا من الحرب ، ولم يستقيلوا من المقارعة والمصادمة ، لأدت الحال إلى قعود الفيلقين معاً ، ولزومهم الأرض ، وإلقائهم السلاح . فان الحال أفضت بعظمها وهولها إلى ما يعجز اللسان عن وصفه

٤٤

كتاب التفاح

٤٥

كتاب تفضيل صناعة الكلام

قال المسعودى : وهى الرسالة المعروفة بالهاشمية

٤٦

رسالة فى تفضيل النطق على الصمت

هذه الرسالة ضمن «مجموعة رسائل» طبعت بمصر سنة ١٣٢٤

٤٧

كتاب التفكر والاعتبار

٤٨

كتاب التمثيل

٤٩

كتاب جمهرة الملوك

٥٠

كتاب الجوابات

٥١

كتاب جوابات كتاب المعرفة

٥٢

كتاب الجوارى

٥٣

رسالة الحاسد والمحسود

مطبوعة ضمن «مجموعة رسائل» بمصر سنة ١٣٢٤ ﻫ

٥٤

كتاب حانوت عطار

٥٥

كتاب الحجات

ذكره القاضى شهاب الدين الخفاجي فى كتابه «طراز المجالس»

٥٦

كتاب الحجة فى تثبيت النبوة

٥٧

كتاب الحجر والنبوة

٥٨

كتاب الحزم والعزم

٥٩

كتاب حكاية قول أصناف الزيدية

٦٠

رسالة الحلبة

٦١

كتاب حيل اللصوص

زعم أبو منصور البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » ان الجاحظ علم بهذا الكتاب الفسقة وجوه السرقة . وهو قول خصم بعيد من الانصاف. ولو قدر لنا الاطلاع على هذا الكتاب لعرفنا مكان هذا القول من الحق أو الباطل

٦٢

كتاب حيل الْمُكَدِّيْنَ

ذكره أبو منصورى البغدادى فى كتابه

٦٣

كتاب الحيوان

وضع الجاحظ هذا الكتاب وقدمه إلى محمد بن عبد الملك الزيات الوزير، فاجازه عنه بخمسة الآف دينار . وهو من كتب الجاحظ الجيدة الحافلة بصنوف المعارف وضروب الآداب . وقد قال أبو منصور البغدادى وهو كثير النيل من أبى الجاحظ والافتراء على جمهور المعتزلة : وقد سلخ فيه معانى كتاب الحيوان لأرسطاليس وضم اليه ما ذكره المدائنى [١] من

---

(١) هو أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله بن أبى سيف المدائنى، مولى عبد شمس بن عبد مناف . كان من أكابر الاخباريين و أفاضل الرواة والمؤلفين

حكم العرب وأشعارها فى منافع الحيوان

قلت : بالرغم من هذا فالكتاب يعد من مفاخر الجاحظ ومحاسنه . وقد عرض له قوم بالاختصار والتلخيص، فاختصره عبد اللطيف البغدادى (١) فى كتاب سماه « اختصار كتاب الحيوان » ولخصه ابن سناء الملك الشاعر المصرى (٢) فى كتاب سماه « روح الحيوان » . وكتاب الحيوان طبع بمصر فى سبعة أجزاء سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧

٦٤

رسالة فى الخراج

بعث بها الجاحظ إلى أبى النجم

٦٥

كتاب خصومة الحول والعور

٦٦

كتاب خلق القرآن

وكان متكلما جدلا، أخذ علم الكلام عن معمر بن الأشعث . وكان منقطعا إلى إسحق بن إبراهيم الموصلى وفى منزله توفى سنة ٢٢٥ هـ عن ٩٣ سنة

(١) هو موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادى كان من أفاضل الأطباء واعيان العلماء مع إحاطة بعلوم الدين والنحو والفلسفة والتاريخ والمنطق . ولد ببغداد سنة ٥٥٧ وحضر مصر ووضع بها مؤلفا وصف فيه المجاعة الكبرى والقحط الجائح الذى كان بمصر فى عهده ثم عاد إلى بغداد وبها مات سنة ٦٢٩ هـ

(٢) هو السعيد أبو القاسم هبة الله بن الرشيد المعروف بابن سناء الملك الشاعر المصرى المعروف صاحب الموشحات البارعة . وكان من الأفاضل النبلاء . تولى ديوان الانشاء زمنا . وله كتاب « روح الحيوان » اختصر فيه كتاب الحيوان للجاحظ . ولد سنة ٥٥٠ هـ وتوفى سنة ٦٥٨ هـ

٦٧

كتاب الدلالة على أن الإمامة فرض

٦٨

كتاب ذكر ما بين الزيدية والرافضة

٦٩

رسالة فى ذم أخلاق الكتاب

عُثر على هذه الرسالة فى مكتبة نور الدين بك مصطفى ثم طبعت بالمطبعة السلفية ضمن «ثلاث رسائل للجاحظ» سنة ١٣٤٤ وهى منشورة أيضاً ضمن «الفصول المختارة» بهامش كتاب الكامل

٧٠

كتاب ذم الزنا

٧١

رسالة فى ذم النبيذ

٧٢

رسالة فى ذم الوراقة

٧٣

رسالة فى الرد على الجهمية

٧٤

رسالة فى الرد على القولية

٧٥

كتاب الرد على النصارى

اختار عبيد الله بن حسان من هذا الكتاب رسالة عثر عليها وضمنها كتابه «الفصول المختارة» المنشور بهامش الكامل . ثم طبعت بالمطبعة

السلفية ضمنها « ثلاث رسائل للجاحظ » سنة ١٣٤٤

٧٦

كتاب الرسائل الهاشميات

٧٧

كتاب الرد على من ألحد فى كتاب الله

٧٨

كتاب الرد على من زعم أن الانسان جزء لايتجزأ

٧٩

كتاب الرد على العثمانية

٨٠

كتاب الرد على المشبهة

٨١

كتاب الرد على اليهود

٨٢

كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب

وضع الجاحظ هذا الكتاب وقدمه إلى ابراهيم بن العباس الصولى رئيس ديوان الرسائل فى عهد المأمون، فأجازه عليه بخمسة آلاف دينار .

٨٣

كتاب السلطان وأخلاق أهله

٨٤

رسالة الشارب والمشروب

وهى رسالة منشورة ضمن « الفصول المختارة » بهامش الكامل

٨٥

كتاب الصُّرحاء وَالْهُجَنَاء

٨٦

كتاب صناعة الكلام

لعله الكتاب المسمى « تفضيل صناعة الكلام » المار ذكره

٨٧

كتاب الصوالجة

٨٨

رسالة فى طبقات المغنين

منها قطعة مطبوع ضمن « مجموعة رسائل » بمصر سنة ١٣٢٤

٨٩

كتاب الطفيليين

٩٠

كتاب العالم والجاهل

٩١

كتاب العباسية

لعله الكتاب المار باسم امامة ولد العباس

٩٢

كتاب العثمانية

قال المسعودى : وقد صنف (الجاحظ) كتابا استقصى فيه الحجاج عند نفسه ، وأيده بالبراهين وعضده بالأدلة فيما تصور من عقله ، ترجمه بكتاب « العثمانية » يحل فيه عند نفسه فضائل على عليه السلام ومناقبه ،

ويحتج فيه لغيره ، طلبا لأماتة الحق ومضادة لأهله : وقد نقض على الجاحظ كتابه هذا جماعة من متكلمى الشيعة كأبى عيسى الوراق [١] والحسن ابن موسى النخعى وغيرهما من الشيعة . وقد نقض على الجاحظ كتاب العثمانية أيضا رجل من شيوخ المعتزلة البغداديين ورؤسائهم وأهل الزهد والديانة منهم، ممن يذهب إلى تفضيل على والقول بامامة المفضول، وهو أبو جعفر محمد بن عبد الله الاسكافى . وكانت وفاته سنة ٢٤٠ هـ

قلت وقد عثرت على كتاب «العثمانية» للجاحظ وكتاب «نقض العثمانية» للأسكافى وهما عندى وسأنشرهما فى لواحق هذا الكتاب

٩٣

كتاب العرب والعجم

٩٤

كتاب العرب والموالى

٩٥

كتاب العرجان والبرصان

٩٦

رسالة فى العشق والنساء

هذه الرسالة مطبوعة ضمن «مجموعة رسائل» بمصر سنة ٣٢٤

٩٧

رسالة فى العفو والصفح

(١) هو محمد بن هرون أبو عيسى الوراق كان من المعتزلة، ثم ظهر عليه فيما زعموا ميل إلى الزندقة، فوشى به فطلبه السلطان فلما ظفر به حبسه حتى مات . وله شعر جيد فى نوعه. وكانت وفاته سنة ٢٤٠ هـ

٩٨

كتاب عناصر الآداب

٩٩

كتاب غش الصناعات

زعم أبو منصور البغدادى أن الجاحظ قد أفسد بهذا الكتاب على التجار سلعهم .

١٠٠

رسالة فى فخر السودان على البيضان

هذه الرسالة طبعت مع رسالة «مناقب الترك» و «التربيع والتدوير» بلندن سنة ١٩٠٣ ثم طبعت ضمن « مجموعة رسائل » سنة ١٣٢٤

١٠١

كتاب فخر عبد شمس ومخزوم

١٠٢

كتاب فخر هاشم وعبد شمس

عثرت على هذا الكتاب وهو عندى وسأنشره ضمن لواحق هذا الكتاب

١٠٣

رسالة فى فرط جهل الكندى [١]

---

(١) هو فيلسوف الاسلام أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندى البصرى البغدادى ينتهى نسبه إلى ملوك كندة . وهو أول من اشتهر فى الاسلام بالعلوم الفلسفية وما إليها ، وكان على مذهب افلاطون فى القول بحدوث العالم . وله رسائل ومؤلفات عدة فى علوم شتى . وكان بالرغم من تبحره فى المعارف وسعة دائرته فى العلوم مبخلا . وهو عند الجاحظ من أئمة البخلاء . والظاهر أنه توفى ببغداد سنة ٢٥٢ ه

١٠٤

كتاب فرق ما بين الجن والإنس

١٠٥

كتاب فرق ما بين الملائكة والجن

١٠٦

كتاب فرق ما بين النبي والمتنبي .

١٠٧

رسالة في فضل اتخاذ الكتب

١٠٨

كتاب فضل ما بين الرجال والنساء

١٠٩

كتاب فضل العلم

١١٠

كتاب فضل الفرس على الهِمْلَاجِ (١)

١١١

كتاب فضيلة المعتزلة

ذكر هذا الكتاب أبو الحسين الخياط في كتابه الانتصار . ولعله هو بعينه الكتاب المسمى « الاعتزال وفضله » المار ذكره . وقد رد عليه ابن الراوندي بكتاب « فضيحة المعتزلة »

---

(١) الهملاج : البرذون السهل القياد

١١٢

كتاب فضيلة الـكلام

أشار إليه ابن النديم [١]، وقال: لأبى بكر الرازى [٢] كتاب «مناقضة الجاحظ فى كتابه فى فضيلة الـكلام» وقال المسعودى : قال الجاحظ فى كتابه فى « تفضيل صنعة الـكلام » وهى الرسالة المعروفة « بالهاشمية » فأنت ترى أن لبعض كتبه عدة أسماء

١١٣

كتاب القحاب

ذ كره أبو منصور البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » وذ كر له كتابا آخر فى نوع آخر !

١١٤

كتاب القحطانية والعدنانية

١١٥

كتاب القضاة والولاة

١١٦

رسالة فى القلم

---

(١) هو أبو الفرج محمد بن اسحق النديم البغدادى . صاحب كتاب « الفهرست » وهو أول كتاب وضع فيما نسميه الآن « تاريخ أدب اللغة العربية » وضعه مؤلفه فى الربع الأخير من القرن الرابع للهجرة . توفى ابن النديم سنة ٣٧٨ ﻫ

(٢) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى الطبيب الفيلسوف الشهير توفى سنة ٣٢٠ ﻫ

١١٧

كتاب القواد

لعله هو الذى نشره القاضى شهاب الدين الخفاجى فى كتابه طراز المجالس باسم « القواد وأسباب الصناعات »

١١٨

رسالة فى القيان

عثر على هذه الرسالة فى مكتبة نور الدين بك مصطفى رحمه الله ثم طبعت بالمطبعة السلفية ضمن «ثلاث رسائل» للجاحظ سنة ١٣٤٤

١١٩

كتاب الكبر المستحسن والمستقبح

١٢٠

رسالة فى كتمان السر

١٢١

رسالة فى الكرم

بعث بها الجاحظ إلى أبى الفرج بن نجاح

١٢٢

كتاب الكلاب

ذكره أبو منصور الغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق »

١٢٣

رسالة فى الكيمياء

١٢٤

كتاب المخاطبات فى التوحيد

١٢٥

رساله فى مدح التجار وذم عمل السلطان

وهى مطبوعة ضمن « مجموعة رسائل » بمصر سنة ١٣٢٤

١٢٦

رسالة فى مدح الـكتاب

١٢٧

رسالة فى مدح النبيذ

١٢٨

رسالة فى مدح الوراقة

١٢٩

كتاب المزاح والجد

١٣٠

كتاب المسائل

١٣١

كتاب مسائل العثمانية

قال المسعودى : ثم صنف (الجاحظ) كتابا ترجمه بكتاب « مسائل العثمانية » يذكر فيه مافاته ونقصه عند نفسه من فضائل أمير المؤمنين على ومناقبه ،وقد نقضه عليه جماعة من متكلمى الشيعة . وقد مر ذكرهم فيمن نقض كتاب العثمانية

١٣٢

كتاب مسائل كتاب المعرفة

١٣٣

كتاب القرآن

١٣٤

كتاب المضاحك

ذكره أبو منصور البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق »

١٣٥

كتاب المعاد والمعاش

١٣٦

كتاب المعادن

١٣٧

كتاب معارضة الزيدية

١٣٨

كتاب المعرفة

١٣٩

كتاب المعلمين

١٤٠

كتاب المغنين والغناء والصنعة

١٤١

كتاب مفاخرة السودان والحمران

١٤٢

رسالة فى مفاخرة المسك والرماد

ذكرها الصلاح الصفدى[١] فى شرحه على لامية العجم وقال : إنها رسالة بديعة

(١) هو صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى . كاتب شاعر أديب مؤرخ متفنن له مؤلفات عدة وشروح كثيرة . ومن أفضل شروحه (شرح لامية العجم) توفى سنة ٧٦٤ هـ

١٤٣

كتاب الملح والطرف

١٤٤

كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية

١٤٥

رسالة فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة

وضع الجاحظ هذه الرسالة وقدمها إلى الفتح ابن خاقان وزير المتوكل. طبعت هى ورسالة « التربيع والتدوير » ورسالة فخر السودان على البيضان ، بليدن سنة ١٩٠٣ ثم عثر على نسخة منها ابراهيم بك المويلحى [١] بالاستانه ونشرها فى جريدته « مصباح الشرق » ثم نشرت بالطبع ضمن « مجموعة رسائل » بمصر سنة ١٣٢٤

---

(١) هو ابراهيم بك المويلحى الكاتب البليغ والصحفى الشهير ، كان فى أول أمره تاجراً كسائر أسرته الكريمة ، ثم عين عضوا فى مجلس الأحكام فى عهد الخديوى اسماعيل ثم أنشأ مطبعة واشتغل بالصحافة، وكان الخديوى اسماعيل يحبه ويعطف عليه ، فلما خلع وسير إلى إيطاليا دعاه إليه واتخذه سكرتيرا خاصاً ونديماً أثيرا ، فأصدر وهو فى أوربا جريدة الأنباء وجريدة أبو زيد . ثم ذهب إلى الاستانة وعين عضوا فى مجلس المعارف فى عهد السلطان عبد الحميد. ولما عاد الى مصر وضع كتابه « ما هنالك » ثم أنشأ جريدة « مصباح الشرق» وشاركه فى تحريرها ولده الكاتب المجيد محمد بك رحمه الله. ولد بمصر سنة ١٨٤٦ وتوفى سنة ١٩٠٦

١٤٦

رسالة فى من يسمى من الشعراء عمراً

١٤٧

رسالة فى موت أبى حرب الصفار البصرى

١٤٨

رسالة فى الميراث

١٤٩

كتاب الناشى والمتلاشى

١٥٠

كتاب النرد والشطرنج

١٥١

كتاب النصراني واليهودى

١٥٢

كتاب النعل

١٥٣

كتاب نقض الطب

وقد وضع أبو بكر الرازى كتاباً فى الرد عليه ونقضه ، وكذلك وضع ابن مندويه [١] رسالة فى نقضه. ذكر ذلك ابن أبى أصبعة

---

(١) هو أبو على أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه الاصفهانى كان من مشهورى الأطباء فى بلاد العجم وكتبه كلها رسائل. وهى كثيرة ، وكان مع هذا أديباً شاعرا حسن العبارة

١٥٤

كتاب نوادر الحسن

١٥٥

كتاب النواميس

ذكره أبو منصور البغدادى وقال عنه : وهو ذريعة للمحتالين يجتلبون به ودائع الناس وأموالهم

١٥٦

كتاب وجوب الإمامة

١٥٧

كتاب الوعد والوعيد

١٥٨

كتاب الوكلاء

وهو رسالة مطبوعة ضمن « مجموعة رسائل » بمصر سنة ١٣٢٤

١٥٩

رساله اليتيمة

الفصل التاسع عشر

فى

الكتب التى نسبت الى الجاحظ و ليست له

١

كتاب الابل

قال ياقوت : إنه من الكتب التى نسبت اليه قديماً

٢

كتاب التاج

أو أخلاق الملوك

هذا الكتاب نشره أحمد زكى باشا بالطبع سنة ١٣٣٢ (١٩١٤) وصنع له مقدمة طويلة حاول فيها نسبته إلى الجاحظ ، وجد فى لصقه به وتزييفه عليه، بما فى وسعه من حجة ، و بما استطاع تصيده من دليل و برهان ، غير أن الحق الذى لا مراء فيه يصرخ فى وجهه : إن الجاحظ منه براء . ونحن لا نتكلف التدليل على ذلك بأكثر من أن نعرض عليك مقارنة بين تقدمة هذا الكتاب وتقدمة أخرى مثلها لكتاب آخر له ، وكلتاهما مرفوعتان إلى رجل واحد ، لتعرف فرق ما بينهما ، وهل هما كما رفعتا لرجل واحد ، كانتا لكاتب واحد ؟ أم تراهما متنافرتين ، تنادى كل واحدة منهما بالبراءة من أختها ، وبأنه لا جامعة بينهما، ولا سبب يربط إحداهما بالأخرى ! !

كان الْفَتْحُ بنُ خاقان وزير المتوكل على الله العباسى ، أكبر رجل فى دار الخلافة ، وكان من عظماء الدولة وأصحاب المكانة والسلطان فيها ، وكان على جانب عظيم من الدهاء والسياسة والفضل ، وكان مقصود الجانب من أكابر العلماء ، وفحول الأدباء ، وأرباب القلم من كل فن ونوع ، وكان محباً للجاحظ ، مُعجباً بأدبه وفضله وسعة معارفه ، وكان الجاحظ يراه أهلا للإيثار ، ويعتده أثيراً بالاعتبار ، فوضع له رسالته المشهورة فى « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » ورفعها إليه بهذه المقدمة الجاحظية البارعة ، قال :

« وفقك الله لرشدك ، وأعان على شكرك ، وأصلحك وأصلح على يديك ، وجعلنا وإياك ممن يقول الحق ويعمل به ، ويؤثره ويحتمل ما فيه مما قد يصده عنه ، ولا يكون حظه منه الوصف له والمعرفة به ، دون الحث عليه ، والانقطاع إليه ، وكشف القناع عنه ، وإيصاله إلى أهله ، والصبر على المحافظة فى أن لا يصل إلى غيرهم ، والتثبت فى تحقيقه لديهم . فان الله تعالى لم يُعَلِّم الناس ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عاملين ، بل علمهم ليعملوا وَبَيَّنَ لهم ليتقوا . ولخوف الوقوع فى المضار ، والتورط فى المهالك ، طلب الناسُ التَّبَيُّن . ولحب السلامة من الهلكة والرغبة فى المنفعة احتملوا ثقل التعلم ، وتعجلوا مكروه المعاناة . ولقلة العاملين وكثرة الواصفين ، قال الأولون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين . وإنما كثرت الصفات وقلت الموصوفات ، لأن ثواب العمل مؤجل ، واحتمال ما فيه مُعجل .

وقد أعجبنى ما رأيت من شغفك بطاعة إمامك ، والمحاماة لتدبير خليفتك ، وإشفاقك من كل خلل دخل على مُلكه وإن دق ، ونال سلطانه وإن صغر . ومن كل أمر خالف هواه وإن خفى مكانه ، وجانب

رضاه وإن قل ضرره . ومن تخوفك أن يجد المتأوِّلُ إليه مُتَطَرَّقاً ، والعدو عليه متعلقاً . فان السلطان لا يخلو من متأول ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زارٍ ، ومن مُتعطل مُتصفح (١) ومن مُعجَب برأيه ذى خطل فى بيانه ، مولع بتهجين الصواب والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائدٌ لجميع الأمة ، ووكيل لسكان المملكة ، يضع نفسه فى موضع الرقباء ، وفى موضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يَعذر وإن كان مجاز العذر واضحاً ، ولا يقف فيما يكون للشك محتملا ، ولا يُصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنه لا يعرف مصادر الرأى من لم يشهد موارده ، ولا مُسْتَدْبَرِهِ من لم يعرف مستقبله . ومن محروم قد أضطغنه الحرمان . ومن لئيم قد أفسده الاحسان . ومن مستبطىء قد أخذ أضعاف حقه ، وهو لجهله بقدره ، ولضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذى بقى له أكثر ، وأن حقه أوجب . ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه ، لكان لذلك أهلا وله مستحقاً . قد غره الإملاء ، وأبطره دوامُ الكفاية ، وأفسده طول الفراغ .

وصاحب فتنة خامل فى الجماعة ، رئيس فى الفُرقة ، نَفَّاقٍ فى الهَرْج ، قد أقصاه عز السلطان ، وأقام صغوه ثِقاف الأدب ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مَغيظ لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشفى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمانى ، ولا يأنس إلا بكل مُرجف كذاب ، ومفتون مرتاب ، وخارص (٢) لا خير فيه ، وخالف لا غَنَاءَ عنده . يريد أن يُسَوَّى بالكُفاة

(١) المتصفح: المقلب لوجوه الاشياء عله يعثر على ما يوجب المؤاخذة والانتقاد
(٢) الخارص : الكذاب المختلق الأباطيل

ويُرفع فوق الحماة ، لأمر سلف له ، ولاحسان كان من غيره ، وليس ممن يَرُبُّ[١] قديماً بحديث ، ولا يحفِلُ بدروس[٢] شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحتسبين ، و بين الحفظ لأبناء المحسنين . وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام وثواب الكفاية ، من لايعرف طبقات الحق فى مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل فى منازله ؟!

ثم أعلمتنى بذلك أنك بنفسك بدأت فى تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك ، و إياها حطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه . ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والموازرة على الخير ، والمكانفة لأهل الحق . وقد استدللتُ بالذى أرى من شدة عنايتك وفرط اكتراثك وتفقدك لأخابير الأعداء ، و بحثك عن مناقب الأولياء . على أن ماظهر من نصحك أَمَمٌ[٣] فى جنب ما بطن من إخلاصك . فأمتع الله بك خليفته ، ومنحنا و إياك محبته ، وأعاذنا من قول الزور ، والتقرب بالباطل . إنه حميد مجيد ، فعال لما يريد »

هذه هى التقدمة التى رفع بها الجاحظ رسالته إلى الفتح بن خاقان ، وهذا هو الأسلوب الذى اختص به الجاحظ من بين كتاب العربية . فانظر كيف افتتح هذه التقدمة ، وكيف بدأها ، وكيف تنقل فى معانيها ، وأغراضها ، من الدعاء إلى الوصف ، ومن العبرة إلى الحكمة ، ومن ذكر الطبائع إلى نعت المطامع . ثم انظر كيف قسم صنوف الناس من المتبرمين بالسلطان ، وكيف علل تبرمهم ، وفصل أسباب تضجرهم ، حتى لم يكد يدع خاطرة فى هذا الباب ، ولا بادرة فى هذا المعنى ، إلا استوفى الابانة عنها

---

(١) يرب : يزيد ويصل

(٢) الدروس : المحو والابلاء

(٣) أمم : قريب ظاهر

بعبارات جزلة ، وألفاظ سهلة . وحتى كأنه يصف أخلاق أهل مصر فى هذا العصر ، بقلم القدرة الذى يحق الحق ويبطل الباطل . ثم انظر كيف ختم ذلك بالاعجاب به، و بشدة إخلاصه لامامه، وحمده إياه على ما يتخذ فى هذه السبيل من وسائل محمودة الأثر . ثم حثه على الاستمساك بعِصَمِ الولاء ، والاعتصام بحبل الوفاء . و بعد أن تتفهم هذه المعانى، وتزن هذه الأساليب، وتفقه هذه المناهج ، وتتشرب هذه الروح : إقرأ هذه التقدمة التى رفع بها مؤلف كتاب التاج كتابه إلى الفتح بن خاقان . والتى ألح ناشر هذا الكتاب فى نسبته إلى الجاحظ .

و إليك هذه التقدمة ، ليكون الحكم على بينة . قال :

« الحمد لله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ،وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير . أحمده على تتابع آلائه ، وتواتر نعمائه ، وترادف مننه . وأستهديه وأستوفقه لما يرضيه ويرضى فيه . وأشهد أن لا إله إلا الله الذى لا شبيه له ولا نظير ، الذى جل عن الأجزاء والتبعيض ، والتحديد والتمثيل ، والحركة والسكون ، والنُّقلة والزوال ، والتصرف من حال إلى حال . لا إلّه إلا هو الكبير المتعال . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وأمينه ونجيه ، إبتعثه على فترة من الرسالة ، وطُموس من الهداية ، ودُروس من شرائع الأنبياء والمرسلين « لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ » والعرب تئد أولادها، وتتسافك دماءها، وتتباوح أموالها، وتعبد اللاّتَ وَالعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ، فصدع بأمر ربه ؛ وجاهد فى سبيله ، ودعا إلى معالم دينه ، وجاء بما أعجز الجن والإنس أن يأتوا « بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً » فصلى الله عليه وعلى جميع المرسلين ، وخصه بصلاة من نوافله دون العالمين ، وعليه السلام ورحمة الله و بركاته .

أما بعد : فإن الذى حدانا على وضع كتابنا هذا معان : منها أن الله عز وجل لما خص الملوك بكرامته ، وأكرمهم بسلطانه ، ومكن لهم فى البلاد ونوَّلهُم أمر العباد ، أوجب على علمائهم تعظيمهم وتوقيرهم وتعزيزهم وتقريظهم ، كما أوجب عليهم طاعتهم والخضوع والخشوع لهم ، فقال فى محكم كتابه : « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » وقال عز وجل « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ » ومنها أن أكثر العامة و بعض الخاصة لما كانت تجهل الأقسام التى تجب لملوكها عليها — و إن كانت متمسكة بجملة الطاعة — حصرنا آدابها فى كتابنا هـذا لنجعلها قدوة لها و إماماً لتأدبها . وأيضاً فان لنا فى ذلك أجرين : أما أحدهما فلِمَا نبهنا عليه العامة من معرفة حق ملوكها . وأما الآخر فلِمَا يجب من حق الملوك علينا من تقويم كل مائل عنها ، ورد كل نافر إليها . ومنها أن سعادة العامة فى تبجيل الملوك وطاعتها ، كما قال أَرْدَشِيرُ ابْنُ بَابَكْ : سعادة الرعية فى طاعة الملوك ، وسعادة الملوك فى طاعة المالك . ومنها أن الملوك هم الأُسُّ ، والرعية هم البِنَاء ، وما لا أُسَّ له مهدوم . ومنها أنا ألفنا كتاباً قبل كتابنا هذا ، فيه أخلاق الفتيان وفضائل أهل البِطالة ، وكان غير ذلك أولى بنا وأحق فى مذهبنا ، وأَحْرَى أن نصرف عِنايتنا إلى ما يجب للملوك من ذكر أخلاقها وشيمها ، إذ فضلها الله على العالمين ، وجعل ذكرها فى الباقين ، إلى يوم الدين . ألا ترى حين ذكر الله تعالى الأمم السالفة والقرون الخالية ، لم يقصد من ذكر إلى وضيع ولا خامل ! بل قال تعالى حكاية عمن مضى منهم « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا » وقال تبارك اسمه « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ » وقال جلت عظمته « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ » وقال جل وعلا « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ

اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين » وقال تقدست أسماؤه « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » وقال تبارك وتعالى « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » وقال عز وجل ، وقد بعث موسى عليه السلام الى أعتى خلقه وأشدهم عنوداً وصدوفاً عن أمره « إذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » فليفهم الحكماء هذه الأعجوبة التى وصلت عن الله تبارك وتعالى فإن فيها حكمة عجيبة وموعظة بليغة ، وتنبيهاً لمن كان له قلب .

حدثنا أصحابنا عن شبابة عن ورقاء عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تبارك وتعالى « فقولا له قولا لينا » قال : كنياه . وإنما أمرهما بذلك لأن الملوك وان عصى أكثرها فمن حقها أن تدعى الى الله بأسهل القول ، وألين اللفظ ، وأحسن المخاطبة . فإذا كان هذا حكم الله فى العاصى من الملوك والذين ادعوا الربوبية وجحدوا الآيات وعاندوا الرسل ، فما ظنك بمن أطاع الله منها وحفظ شرائعه وفرائضه ، وقلد مقام أنبيائه ، وجعله الحجة بعد حجته ، وفرض طاعته حتى قرنها بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ! ؟ فرأينا اذ أخطأنا فى تقديمنا أخلاق أهل البطالة — وإن كان فيها بعض الآداب وما يحتاج إليه أهل الشرف من محاسن الأخلاق — أن نتلافى ما فرط منا بوضع كتاب فى أخلاق الملوك وخصائصها التى هى لها فى أنفسها ، وأن نخص بوضع كتابنا هذا الأمير الفتح بن خاقان مولى أمير المؤمنين : إذ كان بالحكمة مشغوفاً ، وعلى طلبها مثابراً ، وفيها وفى أهلها

راغباً ، ليبقى له ذكره، ويحيا به إسمه ، ما بقى الضياء والظلام ، وبالله التوفيق والإعانة »

فأى امرىء له مُسكة من عقل ، أو أثارة من ذوق ، أو بقية من أدب ، أو صُبابة من فضل ، يستطيع أن يقول: إن كاتب تلك التقدمة هو كاتب هذه ؟ وهل يشك لحظة فى أن الفرق بين أسلوب الأولى وأسلوب الثانية إلا كالفرق بين الصدق والكذب ، والنور والظلمة ، والحق والباطل ، والعلم والجهل؟ ألحق أن كتاب التاج ليس للجاحظ ، ومن حاول نسبته إليه فانما أراد التنكيل به والحط من قدره ، أو هو فى الواقع يجهل الجاحظ جهلا تاما كما لا يقوى على تذوق أسلوبه ، واستشعار مذهبه، وتفقه منهجه . وإذا كان لنا أن نسلم جدلا بأن الكتاب قد يكون وضع فى القرن الثالث الذى توفى الجاحظ فى منتصفه ، فلن نسلم قط بأن هذه التقدمة وضعت فى ذلك العهد أو رآها الفتح بن خاقان . والراجح عندنا أن رجلا من كتاب القرن الخامس وقع له كتاب عنوانه أخلاق الملوك ، ورآى فى ثَبَتِ كتب الجاحظ أن له كتابا بهذا الاسم وكتابا آخر باسم أخلاق الفتيان وأهل البطالة ، فوضع له هذه التقدمة المصطنعة ، لينفقه على الناس وتكون له الحظوة لدى القراء .

هذا رأينا فى نسبة هذا الكتاب إلى الجاحظ

٣

كتاب تنبيه الملوك والمكايد

إذا علمت أن هذا الكتاب مصدر بفاتحة يقول فيها « الحمد لله الذى افتتح بالحمد كتابا ، وفتح للعبد إذا وافا إليه بابا » لم تتردد لحظة فى أنه لغير الجاحظ ، وإنما نسبه من نسبه إليه جهلا وغباء . توجد منه نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت نمرة ٢٣٥٤

٤

كتاب الحنين إلى الأوطان

من قرأ هذا الكتاب وقرنه بشيء من كتب الجاحظ أو وازن بينه و بين طريقته فى التأليف ، لا يشك مطلقا فى أن الجاحظ منه براء،وأنه من تلفيقات الوراقين الذين يجمعون شتى العبارات إلى بعضها فى كتاب ثم ينسبونه إلى مؤلف مشهور ليلقى الرواج عند الناس . ومن العجب أن الشيخ طاهر الجزائرى رحمه الله، وهو الذى وقف على طبعه يخدع به ، ولا يفطن إلى أن نسبته إلى الجاحظ كذب وافتراء؟! . طبع بمطبعة المنار سنة ١٣٣٣ ه

٥

كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والآثار

عثر به الفاضل محمد راغب الطباخ الحلبى وطبعه منسوبا إلى الجاحظ سنة ١٩٢٨ ولعله للحارث بن أسد المحاسبى أحد أفاضل الزهاد

٦

كتاب سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف

الظاهر أن مدير مطبعة الجوائب . وكانت من خيرة المطابع بالأستانة ، قد عثر على هذا الكتاب فى إحدي المكاتب العامة باستانبول ، وطبعه عن نسخة مخطوطة فى سنة ٤٤١ ه . غير أنه لم يصف المخطوطة ولم يذكر اسم كاتبها ، ولم يلتفت إلى تحقيق نسبتها ، إلا انه على ما يظهر قد وجد بصدرها اسم الجاحظ ، فطبعها منسوبة إليه دون تكلف بحث هذه النسبة ووزنها . أما أنا فأقرر أن هذا الكتاب ليس للجاحظ وماعرفه قط فى حياته وإليك بيان ذلك :

جاء بالمقدمة بعد ديباجة لا عهد لأهل القرن الثالث بها :

« خرجت يوما وأنا فى خدمة « قوم الملك ونظام الدين أبى يعلى أحمد ابن طاهر » أطال الله فى المعالى لتهذيب المعانى بقاءه ، وحرس فى اقتفاء المكارم عن المكاره فناءه ، وحاط على الأفاضل باسداء الفواضل نعماءه ، وعطف على العلماء بحفظ أيامه وزمانه ، وجمّل الدنيا بعزة تمكينه فيها ورفعة مكانه » الخ

ولم تكد تُعرف هذه الألقاب أمثال : قوم الملك ونظام الدين ، وحجة الاسلام ، ونور الممالك ، وجمال السلطنة ، وبهاء الدولة ، إلا فى أيام الدولة السلجوقية .
ولست فى حاجة إلى إيراد تاريخ أبى يعلى أحمد بن طاهر ، فقد كفانا ماجاء فى الكتاب من شعر لابن المعتز ولابن الرومى ولغيرهما من الشعراء والكتاب الذين لم يُعرفوا إلا فى القرن الرابع أو فى أواخر القرن الثالث ، فما ورد فيه منسوبا إلى ابن المعتز قوله :

إشْرَبْ عَلَى طِيبِ الزَّمانِ فقدْ حَدَا ... بالصَّيْفِ مِنْ أيْلُولَ أسْرعُ حَادِ
وأشَمَّنَا باللَّيْلِ بَرْدَ نَسِيمِهِ ... فارْتاحَتِ الأرْوَاحُ فى الأجْسَادِ
وَافاكَ بالأنْدَاءِ إقْدَامَ الحيَا ... والأرْضُ لِلْأمْطَارِ فى اسْتِعْدَادِ
كَمْ فى ضَمَائِرِ تُرْبِهَا مِنْ رَوْضَةٍ ... بَسِيلِ مَاء أوْ قَرَارَةِ وَادِ
تَبْدُو إذَا جَادَ السَّحَابُ بِقَطْرِهِ ... وكأنَّمَا كانَا عَلَى مِيعَادِ

وقوله :

ألا تَرَى بَهجَاتِ الرَّوْضِ فى السَّحَرِ ... فَوْقَ النَّدَى واتِّسَاقَ الوَرْدِ فى الشَّجَرِ
إذَا السَّحَابُ سَقَاهَا فى الدُّجَى خَلَعَتْ
بَعْدَ السَّحَابِ عَلَيْهَا الشَّمْسُ فى البُكَرِ
والرَّوْضُ مِنْ زَاهِرٍ زَاهٍ بِنَضْرَتِهِ ... وَكَامِنٍ مِنْهُ فى الأغْصَانِ مُنْتَظِرِ

حَسْبى مِنَ الوَرْدِ تَوْرِيدُ الخدُودِ كما ... حَسْبى مَسَرَّةُ مَحْسُودٍ مِنَ الْبَشَرِ

ومما ورد فيه لابن الرومى قوله :

لَوْلاَ فَوَاكِهُ أَيْلُولٍ إِذَا اجْتَمَعَتْ ... مِنْ كُلِّ نوْعٍ وَرَقَّ الجوُّ وَالماءُ
إِذاً لمَّا حَفِلَتْ نفْسِى مَتى اشْتَمَلَتْ ... عَلىَّ هائِلَةُ الجالِيْنِ غَبْرَاءُ
يَاحَبَّذَا لَيْلُ أَيْلُولٍ إِذا بَرَدَتْ ... فِيهِ مَضَاجِعُنا والرِّيحُ سَجْوَاءُ
وجَمَّشَ القرُّ فيهِ الجِلْدَ واشْتَمَلَتْ ... مِنَ الضجيعَيْنِ أَحْشَاءٌ وأَحْنَاءُ
وأَسفرَ القَمرُ السَّارِى بِصَفْحَتِهِ ... وَرَيَّالَها مِنْ صَفاءِ الجوِّ لأَلاَءُ
يَاحَبَّذَا نَفْحَةً مِنْ رِيحِهِ سَحَرًا ... يَأْتِيكَ فِيهَا مِنَ الرَّيْحَانِ إِمْضَاءُ
بَلْ فيهِ ماشئْتَ مِنْ شَهْرٍ تَعَهَّدَهُ ... فى كلِّ يَوْمٍ يَدٌ للهِ بَيضَاءُ

وقوله :

أَصْبَحَتِ الدُّنْيا تَرُوقُ مَنْ نَظَرْ ... بِمَنْظَرٍ فيهِ جَلاَءٌ لِلْبَصَرْ
وَاهاً لَها مُصْطَنَعاً لقَدْ شَكَرْ ... أَثْنَتْ عَلَى اللهِ بآلاءِ المطَرْ
والأَرْضُ فى رَوضٍ كأَفْوَافِ الحِبَرْ ... تَبَرَّجَتْ بَعْدَ حَيَاءٍ وَخَفَرْ
تَبرُّجَ الأُنثى تَصَدَّتْ لِلذَّكَرْ

وأنت تعلم أن ابن المعتز وابن الرومى لم يدرك واحد منهما الجاحظ ولا رآه ، وعندى أن هذا الكتاب قد وضع فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس .والجاحظ منه براء

٧

كتاب المحاسن والأضداد

خُدعَ كثير من الناس بهذا الكتاب ونسبوه إلى الجاحظ ، بلا بحث ولا تحقيق ، وممن خُدع به قديما الشيخ محيي الدين بن العربى ، فقد رأيته

ينقل عنه فى كتابه « محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار » . والحقيقة أن الجاحظ يبرأ إلى الله منه وممن زيفه عليه . إذ هو كتاب غَث سقيم حُشى بكثير من الأكاذيب الممزوجة بالقليل من أشباه الحقائق . والظاهر أن أحد الوراقين فى القرن الرابع لفقه ولم يجد سبيلا إلى ترويجه إلا بأن ينسبه إلى الجاحظ .

ومن الأدلة على براءة الجاحظ منه أنى بينا أقلبه وقع نظرى فى صفحة ٣٨ من النسخة المطبوعة بمصر سنة ١٣٢٤ هـ على هذه الأبيات منسوبة إلى ابن المعتز ، قال : وقال ابن المعتز :

تَعلَّمْتُ فى السِّجنِ نسْجَ التِّكَكْ ... وكُنْتُ امرَأً قَبْلَ حَبسِى مَلِكْ
وقُيِّدْتُ بعدَ رُكُوبِ الجيادِ ... وَمَا ذاكَ إلَّا بِدَوْرِ الفَلَكْ
ألَمْ تُبْصِرِ الطَّيْرَ فى جَوِّهَا ... تَكادُ تُلَاصِقُ ذَاتَ الحُبُكْ
إذا أبصَرَتْهُ خُطُوبُ الزَّمَانِ ... أوْقَعنَهُ فى حِبَالِ الشَّرَكْ
فَهذَاكَ مِنْ حَالِقٍ قَد يُصَادُ ... ومِن قَعْرِ بَحرٍ يُصَادُ السَّمَكْ

قرأت هـذه الأبيات فعجبت كيف يروى الجاحظ لابن المعتز وقد مات الجاحظ قبل أن يبلغ ابن المعتز من العمر ست سنين ؟ فقد ولد ابن المعتز فى شعبان سنة ٢٤٩ ومات الجاحظ فى المحرم سنة ٢٥٥ فهل من المعقول أن يروى الجاحظ عنه وهو فى هذه السن ؟ وهل يتفق عرفا وعادة أن ابن ست سنين يقول شعرا ؟ على أن نظرة فى هذه الأبيات تكفى لنفيها عن ابن المعتز أيضا . لأنها من الضعف والسقم والاسفاف إلى حد كبير . فهى لا تتفق ونفس ابن المعتز ، ويعلو أسلوبه عنها . ولأن ابن المعتز لم يسجن فضلا عن يبقى فى السجن حتى يتعلم نسج التكك . وحقيقة ذلك أنه لما أقامه رجال الدولة خليفة لم يلبث فى دست الخلافة أكثر من يوم وليلة ثم ثار به رجال المقتدر وتمكنوا من خلعه فاختفى فى دار ابن الجصاص الجوهرى ثم أخذه

مؤنس الخادم، أحد قواد الدولة المشهورين، فقتله ثم سلمه إلى أهله فى كساء. فهل يظن أنه وهو مختف فى دار ابن الجصاص، والطلب مشتد عليه، والزعر والفزع متملكان فؤاده، يفرغ لتعلم نسج التكك؟! فضلا عن أن يقول الشعر فيها وفى تعلم نسجها؟ على أننى لم أعثر على هذه الأبيات فى ديونه.

وفى الصفحة ١١٦ رأيت واضع الكتاب يقول: وقال عبد الله بن المعتز «أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام» وسبيل هذا سبيل ماسلف.

وفى صفحة ١٣٥ يقول: حدثنا ثعلب عن الفتح بن خاقان. ولا يصح مطلقا أن يحدث الجاحظ عن ثعلب. وفى صفحة ١٤٢ يقول: ومما جاء فى الحُسن من الشعر قال عبد الله بن المعتز: أنشدنى أبو سهل اسماعيل بن على لأبى الصواعق:

وَمَرِيضِ طَرْفٍ لَيس يَصرِفُ طَرْفَهُ ... نحوَ المدَى إلَّا رَمَاهُ بِحَتْفِهِ
ظَبىٌ لهُ نَظَرٌ ضعيفٌ كلَّمَا ... قصَدَ القوِىَّ أتى عليهِ بضَعْفِهِ
قدقُلْتُ لمَّا مَرَّ يَخطِرُ مائِسًا ... والرِّدْفُ يجذبُ خَصرَهُ مِن خَلْفِهِ
يامَن يُسلِّمُ خَصرَهُ مِنْ رِدْفِهِ ... سَلِّم فؤَادَ مُحِبِّهِ مِنْ طَرْفِهِ

فقلت (يعنى ابن المعتز) فى هذا المعنى وعلى هذا الوزن:

وَحَيَاةِ مَنْ جَرَحَ الفُؤَادَ بِطرفِهِ ... لأُحَبِّرَنَّ قصائدِى فى وَصْفِهِ
قمرٌ بهِ قمرُ السَّماءِ مُتيَّمٌ ... كالغُصْنِ يَعجَبُ نِصفُهُ مِنْ نِصفِهِ
إِنِّى عَجِبْتُ لِخَصْرِهِ مِنْ ضَعْفِهِ ... مَاذَا تَحمَّلَ مِنْ ثَقَالَةِ رِدْفِهِ؟
هَذا وَمَا أَدْرِى بِأَيَّةِ فِتْنَةٍ ... جرَحَ الفُؤادَ بِلُطْفِهِ أم طَرْفِهِ؟
أمْ بِالدَّلَالِ أمِ الجَمَالِ أمِ الضِّيَا ... مِنْ وَجْهِهِ أمْ بِالقَفَا مِنْ خلفِهِ

ولم أعثر على هذه الأبيات فى ديوانه

وفى الصفحة ١٤٤ يقول : وقال آخر :

يا مِلاحَ الدَّلاَلِ وَالْإِغْتِنَاجِ ما أرَى الْقَلْبَ مِنْ هَوا كُنَّ نَاجِ
أنْتَ زَرْفَنْتَ فَوْقَ خَدَّيْكَ صُدْغاً مِنْ عَبِيرٍ عَلَى صَفَائِحِ عَاجِ
أشْرَقَتْ وَجْنَتَاكَ بِالنُّورِ حَتَّى أغْنَتَا الْخَلْقَ عَنْ ضِيَاءِ السِّرَاجِ
فَعَلَتْ مُقْلَتَاكَ بِالْقَلْبِ مِنِّى فَعْلَةَ الْقَرْمَطِىِّ بِالْحِجَّاجِ
يَا هِلاَلاً آنَسْتُ مِنْهُ بِضَوْءٍ جُنْحَ لَيْلٍ مِنَ الظَّلاَمِ الدَّاجِ

وقد لفت نظرى فى هذه الأبيات قوله « فعلة القرمطى بالحجاج » فإن هذه العبارة تشير الى وقعة حدثت بعد وفاة الجاحظ بأربعين سنة . وذلك أن ذِكْرَوَيهِ زعيم القرامطة هاجم الحجاج بجيوشه سنة ٢٩٤ وفتك بهم فتكا ذريعا . حتى قالوا إن عدة القتلى كان عشرين ألفا ؟ الخ . فكيف يتسنى للجاحظ أن يروى فى كتاب له شعراً تذكر فيه حادثة لم تقع إلا بعد وفاته بأربعين سنة ؟ هذا مالا يقول به عاقل !

والحق أن هذا الكتاب مدسوس على الجاحظ ، وأبو عثمان لا يعرفه

٨

كتاب الهدايا

قال ياقوت انه مما نسب الى الجاحظ قديما

الفصل العشرون

فى

ما اخترناه من طرفه ونوادره

للجاحظ أخبارٌ شائقةٌ ، وطرف فائقةٌ ، ونوادر طريفة ، وأحاديث لطيفة ، وكان مع جده وجلالة مقامه ، وسنى منزلته ، ومع مواقفه المشهورة فى الجدل والنظر ، ومع شدة مجالدته لخصومه وأعداء مذهبه بقوة لسانه ، ومتانة بيانه ، كان مع هذا كله ميالا الى الملح واللطائف ، والنكت والطرائف ، والتندر والعبث ، والسخرية والطَّنْز ، والترويح عن النفس بما لاغميزة فيه بالدين ، وإجمام الخاطر بما لامساس فيه بالمروءة ، لايبالى فى سبيل تصيد النكتة الحارة ، وفى تقييد الطرفة الشهية ، أن يرويها ولو كان فيها ما يتناول سمته ، ويغتمز حلى وقاره ، واقفا من ذلك عند حد الأثر القائل « أجموا هذه النفوس بشىء من الهزل لتستعين به على الجد » فمن ذلك ما حدث به عن نفسه قال :

١

ذُكرت للمتوكل لتأديب بعض وُلده ، فلما رآنى استبشع منظرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى . فخرجت من عنده ، فلقيت محمد بن ابراهيم وهو يريد الانصراف إلى مدينة السلام ، فعرض على الخروج معه والانحدار فى حَرّاقتِهِ — وكنا بسُرَّ مَنْ رَأى — فركبنا فى الحراقة فلما انتهينا الى فم القاطول نصب ستارة وأمر بالغناء . فاندفعت عوّادةٌ فغنت :

كلَّ يومٍ قطيعــةٌ وعتابُ   ينقضى دَهْرُنا ونحنُ غِضابُ

لَيْتَ شِعرى أنا خُصِصتُ بهذا دونَ ذا الخلْق أم كذا الأحبابُ!

وسكتت . فأمر الطّنبُورِيّة فغنت :

وَارحمتَا للعاشقِينَا مَا إن أرَى لهُمُ مُعينَا

كم يُهجَرُونَ وَيصرَمُون وَيقطَعون فَيصبرُونَا

فقالت لها العوادة : فيصنعون ماذا ؟ قالت: هكذا يصنعون ؟ وضربت بيدها إلى الستارة فهتكتها و برزت كأنها فلقة قمر فألقت نفسها فى الماء . وعلى رأس محمد غلام يضاهيها فى الجمال ، و بيده مِذبَّة فأتى الموضع ونظر إليها وهى تمر بين الماء وأنشد:

أنْتِ الَّتى غرَّقتِنى بعدَ القضَا لَو تعلَمِينا

وألقى نفسه فى أثرها . فأدار الملاح الحراقة فاذا بهما معتنقان ، ثم غاصا فلم يُريا . فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرهما ثم قال: ياعمرو ، لتحدثنى حديثا يسليني عن فعل هذين والا ألحقتك بهما !

قال : فحضرنى حديث يزيد بن عبد الملك(١) وقد قعد للمظالم وعرضت عليه القصص فمرت بها قصة فيها : إن رأى أمير المؤمنين أن يُخرج إلىّ جاريته فلانة حتى تُغنيني ثلاثة أصوات فعل . فاغتاظ يزيد من ذلك وأمر من يخرج إليه فيأتيه برأسه ، ثم أتبع الرسول رسولا آخر يأمره بأن يدخل إليه الرجل

---

(١) هو يزيد بن عبد الملك بن مروان أحد ملوك بنى أمية بالشام ولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وذلك فى يوم الجمعة ٢٤ رجب سنة ١٠١ ﻫ وكان يكنى أبا خالد وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، وكان صاحب لهو ولعب واستهتار ، على مايقولون ، وكانت له جاريتان تسمى إحداهما سلامة والأخرى حبابة ملكا عليه عقله ، واستأثرا بلبه ، وشاع الظلم والجور فى أيامه . توفى بأربد من أرض البلقاء من أعمال دمشق سنة ١٠٥ ﻫ

فأدخله . فلما وقف بين يديه قال : ما الذى حملك على ما صنعت ؟ قال : الثقةُ بحلمك ، والاتكالُ على عفوك . فأمره بالجلوس حتى لم يبق أحد من بنى أميـة إلا خرج ، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها ، فقال لها الفتى : غنى :

أفاطِمُ مهْلاً بَعْضَ هذا التدَّلُّلِ ... وإن كُنْتِ قد أزْمَعْتِ صَرْمِى فأَجملى

فغنته . فقال له يزيد : قل ؟ فقال : غنى :

تألَّقَ البرقُ نجدِياً فقُلْتُ له ... يا أيُّها البرقُ إنى عنكَ مشغولُ

فغنته . فقال له يزيد : قل ؟ فقال : يا مولاى ، تأمرلى برطل شراب ! فأمر له به . فما استتم شربه حتى وثب وصعد على أعلى قبة ليزيد فرمى نفسه على دماغه فمات ...؟!! فقال يزيد : إنا لله وإنا اليه راجعون ! أتُراه الأحمق الجاهل ظن أنى أُخرج إليه جاريتى وأردها إلى مِلكى ؟ خذوا بيدها واحملوها إلى أهله ، إن كان له أهل ، وإلا فبيعوها وتصدقوا عنه بثمنها . فانطلقوا بها فلما توسطت الدار نظرت إلى حفيرة فى وسط دار يزيد ، قد أعدت للمطر ، فجذبت نفسها من أيديهم وأنشدت :

مَن ماتَ عِشقاً فَلْيَمُتْ هكذا ... لا خيْرَ فى عِشق بِلا موْتِ

وألقت نفسها فى الحفيرة على دماغها فماتت ...؟!! قال : فسُرِّىَ عن محمد وأجزل صِلَتى .

قلت : وأنا أشك فى صدق هذه القصة من أولها إلى آخرها ، ولا أستثنى منها إلا خبر دعوة المتوكلِ الجاحظَ لتأديب بعض وُلده . وأما غير ذلك فإنى أراه من وضع الجاحظ وتلفيقاته ، ومن منتزعات خياله . على أنه قد ثبت ثبوتاً لا يقبل الشك أن الجاحظ كان له سهم نافذ فى وضع القصص

على أنواعها حتى النوع « التراجيدى » المؤثر ، ذلك الفن الذى هو من مفاخر كتاب أوربا فى هذا العصر

٢

وقال : أتيت أبا الربيعِ الغَنَوِىَّ ، وكان من أفصح الناس وأبلغهم ، ومعى رجل من بنى هاشم ، فقلت : أأبا الربيع ههنا ؟ فخرج إلىَّ وهو يقول : خرج إليك رجل كريم ، فلما رآى الهاشمىَّ استحيا من فخره بحضرته فقال : أكرمُ الناس رَدِيفاً ، وأشرفهم حَليفاً[١] . فتحدثنا مَلِيًّا فنهض الهاشمىُّ . فقلت :

يا أبا الربيع ، مَن خَيْرُ الخلق ؟

فقال : ألناسُ ، واللهِ

فقلت : ومن خيرُ الناس ؟

فقال : ألعربُ ، والله

فقلت : فمن خيرُ العرب؟

فقال : مُضَرُ ، والله

فقلت : فمن خيرُ مُضَر ؟

فقال : قَيْسٌ ، والله

فقلت : فمن خيرُ قيسٍ ؟

فقال : يَعْصُرُ ، والله

فقلت : فمن خير يعصر ؟

فقال : غَنِىٌّ ، والله

---

(١) يريد أن أبا مرثد الغنوى كان رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان حليف حمزة بن عبد المطلب

فقلت : فمن خير غَنِي ؟

فقال : المخاطب لك ، والله

فقلت : أفأنت خير الناس ؟

فقال : نعم ، إى والله

فقلت : أيسرك أن تحتك بنت يزيد بن المهلب ؟[١]

---

(١) هو أبو خالد يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى . أحد أمراء الدولة المروانية، وقائد من قوادها العظام ، شهد مع أبيه المهلب حروب الجبابرة من الخوارج فأبلى فيها بلاء حسنا ، وكان أبوه يعتمد عليه فى كبريات الوقائع ويقدمه ويؤثره لما كان معروفا به من القوة والشجاعة ومصارعة الأبطال وجودة التدبير ، وكان مع هذا جوادا سمحا كريما لا يرد سائلا ولا يحرم عافيا . وقد ولى خراسان بعد أبيه وسنه ثلاثون سنة ثم عزله عبد الملك بمشورة الحجاج لأنه كان له مبغضا، مع أن أخته كانت تحت الحجاج . وكان السبب فى بغض الحجاج له خرافة نبأه بها أحد المشعوذين إذ قال له : إن الذى يلى الأمر بعدك يسمى يزيدا . فلم ير أمامه من يليق بذلك إلا يزيد بن المهلب ، فكان ذلك داعيا إلى بغضه له وحبسه إياه وتعذيبه . ثم هرب يزيد من محبسه وذهب إلى الشام مستشفعا بسليمان بن عبد الملك فشفع له الى الوليد فعفا عنه وأمنه . ولما أفضت الخلافة إلى سليمان ولاه خراسان فافتتح جرجان ودهستان وغيرهما من البلاد التى لم تكن فتحت من قبل . ثم أقبل بغنائمه يريد سليمان فبلغه موته فمال إلى البصرة فخادعه عدى بن أرطاة حتى أوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز فحبسه فهرب من حبسه ، ثم جمع جموعا وخرج بها على يزيد بن عبد الملك، فسير إليه الجيوش بقيادة مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد ، وهما بطلا بنى أمية ، فقاتلاه بالعقر من أرض بابل . فمات يزيد بالمعركة مختنقا بغبارها سنة ١٠٢ هـ ٧٣٠ م

فقال : لا ، والله

فقلت : ولك ألف دينار ؟!!

فقال : لا ، والله

فقلت : فألفا دينار ؟ !!

فقال : لا ، والله

فقلت : ولك الجنة ؟!!

فأطرق برأسه ثم قال : على ألا تلد منى ؟ وأنشد :

تَأبَى لِأَعْصُرَ أَعْرَاقٌ مُهَذَّبَةٌ ... مِنْ أَنْ تُنَاسِبَ قَوْماً غَيْرَ أَكْفَاءِ
فَإِنْ يَكُنْ ذَاكَ حَتْماً لا مَرَدَّ لَهُ ... فَاذْكُرْ حُذَيْفَ فَإِنِّي غَيْرُ أَبَّاءِ (١)

٣

وقال : دعوت نجارا كان عندى لتعليق باب ثمين كريم ، فقلت له : إن إحكام تعليق الباب شديد ، ولا يُحسنه من مائة نجارٍ نجارٌ واحد ، وقد يُذكر بالحذق فى نجارة السقوف والقباب وهو لا يُكمل تعليق باب على تمام الإحكام ، والقبابُ عند العامة أصعب ، ولهذا أمثال : فمن ذلك أن الغلام والجارية يشويان الجَدْىَ والحَمَلَ وهما يُحكمان الشىَّ ، وهما لا يحكمان شىَّ جَنْبٍ ، ومن لا علم له يظن أن شىَّ البعض أهون من شى الجميع ؟!! فقال لى : قد أحسنت حين أعلمتنى أنك تبصر العمل ، فإن معرفتى بمعرفتك تمنعنى من التشقيق . فعلقه فأحكم تعليقه . ثم لم يكن عندى حَلْقَةٌ لوجه

(١) هو حذيفة بن بدر الفزارى . وإنما ذكره من بين الأشراف لأنه أمسهم به نسبا ، وذلك أن يعصر أو أعصر هو ابن سعد بن قيس . وهؤلاء بنو ريث بن غطفان بن سعد بن قيس

الباب إذا أردت إصْفاقَهُ ، فقلت له : أكره أن أُجلسك إلى أن يذهب الغلام الى السوق ويرجع ، ولكن اثقبْ لى موضعها ؟ فلما ثقبه وأخذ حقه وَلاَّنى ظهره للإنصراف والتفت إلىّ فقال : قد جَوَّدْتُ الثقبَ ولكن انظر أى نجار يدق فيه الرزة فإنه إن أخطأ بضربة واحدة شق الباب . فعلمت أنه يفهم صناعته فهماً تاماً

٤

وقال : قلت لِعُبَيْدٍ الكلابىّ : أيسرك أن تكون هجيناً[١] ولك ألف دينار ؟

فقال : لا أحب اللؤم بشىء

فقلت : إن أمير المؤمنين ابنُ أمَةٍ ؟

فقال : أخزى الله من أطاعه ؟!

فقلت : نبياَّ الله إسماعيل ومحمد ابنا أمَةٍ ؟

فقال : لا يقول هذا إلا قَدَرِىٌّ

فقلت : وما القدرى ؟

فقال : لا أدرى ، إلا إنه رجل سوء ؟!!

قلت : لعله يريد بأمير المؤمنين « المعتصم » فإن أمه جارية ، وكانت تسمى ماردة . ومن المعروف أن إسماعيل إنما جاء لابراهيم عليهما السلام من جاريته المصرية هاجر . ومحمد رسول الله من سلالة إسماعيل ، ومن هنا قال إن أمهما أمة

(١) ألهجين من أبوه عربى خالص وأمه أمة

٥

وأراد الجاحظ زيارة محمد بن عبدالملك الزيات فدخل عليه وقد افتصد فقال له : أدام الله صحتك ، ووصل غبطتك ، ولا سلبك نعمتك

فقال له ابن الزيات : ماذا أهديت إلينا يا أبا عثمان ؟

فقال : فكرت فى شىء أُهديه إليك، فإذا كل شىء عندك ، فلم أر أشرف ولا أطرف من كتاب سيبويه ، بخط الكسائى وعَرض الفرّاء . وقد اشتريته من ميراث الفرّاء .

فقال : والله ما أهديت إلىَّ شيئاً أحب منه !

٦

وقال : ما أخجلنى أحدٌ إلا امرأتان ، رأيت إحداهما فى العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها

فقلت لها : إنزلى كلى معنا ؟

فقالت : إصعد أنت حتى ترى الدنيا ! !

وأما الأخرى فإنها أتتنى وأنا على باب دارى فقالت : لى إليك حاجةٌ وأريد أن تمشى معى ؟ فقمت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودى وقالت له : مثل هذا ؟ ! ! وانصرفت . فسألتُ الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلىَّ بفص وأمرتنى أن أنقش لها عليه صورة شيطان ! فقلت لها : ياستى مارأيت الشيطان؟!! فأتت بك وقالت ما سمعتَ ؟ ! !

٧

وقال : سألنى بعضهم كتاباً بالوصية إلى بعض أصحابى ، فكتبتُ له رقعة وختمتها ، فلما خرج الرجل من عندى فضها فإذا فيها :

« كتابى إليك مع من لا أعرفه ، ولا أُوجب حقه ، فإن قضيت حاجته لم أحمدك ، و إن رددته لم أذمك »

فرجع الرجل إلى فقلت له : كأنك فضضت الورقة ؟

فقال : نعم !

فقلت : لا يَضيرك ما فيها فإنه علامة لى إذا أردت العناية بشخص ؟!!

فقال : قطع الله يديك ورجليك ولعنك !

فقلت : ما هذا ؟!!

فقال : هذا علامة لى إذا أردت أن أشكر شخصاً !

٨

وقال : كان رجل من أهل السواد[١] يتشيع ، وكان ظريفاً . فقال ابن عم له : بلغنى أنك تبغض عَلِيًّا ؟ ووالله لئن فعلتَ لتردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك !

فقال : والحوض فى يده يوم القيامة ؟

فقال : نعم

فقال : وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس فى الدنيا بالسيف ، وفى الآخرة بالعطش ؟!!

فقيل له : أتقول هذا مع تشيعك ودينك ؟!!

فقال : والله لا تركت النادرة ولو قتلتنى فى الدنيا ، وأدخلتنى النار فى الآخرة ...؟!

---

(١) أهل السواد هم فلاحوا أرض العراق وزراعها

٩

وقال : نزلت على صديق لى فلم آكل عنده لحما ، فعرّضْتُ له فقال : إنى لأكثر من اللحم منذ سمعت الحديث « إن اللّهَ يكرَهُ البَيْتَ اللّحِمَ » فقلت : يا أخى ، إنما أراد البيت الذى تؤكل فيه لحوم الناس بالغيبة ؟ ! . . فلم يؤخر حضور اللحم من ذلك اليوم !

قلت : وهذه إحدى معابث الجاحظ وتلاعبه بالكلام حتى يصرفه عن وجهه ، فإن الحديث متواتر على الصحة . ومهما يكن من شئ فهى من ألطف النكات

١٠

وقال : أتيت منزل صديق لى فطرقت الباب فخرجت إلىّ جارية سندية :

فقلت : قولى لسيدك : ألجاحظُ بالباب ؟

فقالت : أقول الجاحد بالباب ؟-- على لغتها !

فقلت : لا ، قولى له : أَلحدَقىُّ بالباب !

فقالت : أقول : ألحلقى بالباب ؟

فقلت : لا تقولى شيئاً .ورجعت !!

١١

وقال : رأيت أربعة أشياء لم أر مثلهن :

رأيت سائلا يسأل فى الحمام ، و يأخذ مواعيد مَن فيه إلى أن يخرجوا !

ورأيت معلماً يُعلم الصبيان القرآن ، والصبايا الغِناء !

ورأيت حجاماً بالكوفة يحجم بنسيئة إلى الرّجعةِ لشدة إيمانه بها ! (١)

(١) الرجعة : هى عقيدة قوم كانوا يقولون بأن الانسان بعد وفاته لا بد عائد إلى هذه الدار، طال الزمن أوقصر . وكان السيد الحميرى الشاعر

ورأيت حمالين يحملون جنازة فكلما أعيوا وضعوا عن رؤسهم إلى أن بلغوا شفير القبر !

١٢

وقال : كان يحضر إلىَّ رجلٌ فصيح من العجم . فقلت له : هذه الفصاحة ، وهذا البيان ، لو ادعيت فى قبيلة من العرب لكنت لا تُنازَع فيها ؟ فأجابنى إلى ذلك . فجعلت أحفظه نسبا حتى حفظه وهذَّهُ هذًّا . فقلت له : ألآن لا تَتِه علينا ؟ فقال : سبحان الله ! إن فعلت ذلك فأنا إذاً دَعىٌّ ؟ !!

١٣

وقال: جاءنى يوماً بعض الثقلاء فقال : سمعت أن لك ألف جواب مُسكت ، فعلمنى منها ؟

فقلت : نعم

فقال : إذا قال لى شخص : يا زوج القحبة ، يا ثقيل الروح ، أى شىء أقول له ؟

فقلت : قل له : صدقت ؟ ! !

١٤

وقال : وقفت أنا وأبو حرب على قاصٍ فأردت الولع به ، فقلت لمن حوله : إن هذا رجل صالح لا يحب الشهرة . فتفرقوا عنه .فنظر إلىَّ وقال: حسبك الله ؟ إذا لم يجد الصياد طيرا كيف يمد شبكته ؟ !

يقول بهذا القول، فجاءه رجل يسأله أن يقرضه مائة دينار على أن يردها إليه بعد الرجعة ، فقال له السيد : ومن يضمن لى أنك لن تعود حمارا ؟!!

١٥

وقال : مَرِض عَلِيٌّ بنُ عُبيدةَ الرَّيحانيُّ فدخلت عليه عائدا وقلت له : ماتشتهى يا أبا الحسن ؟ فقال : عُيون الرقباء ، وألسن الوُشاة ، وأكباد الحساد !

١٦

وقال : ماغلبنى أحدٌ قط إلا رجل وامرأة :

فأما الرجل فإنى كنت مجتازاً فى بعض الطريق فاذا برجل قصير بطين كبير الهامة طويل اللاحيةمُؤْتَزِرٍ بمئزر و بيده مشط يمشطها . فقلت فى نفسى : رجل قصير بطين أَلحى ! فاستهزريته ، فقلت : أيها الشيخ ، لقد قلت فيك شعراً ! فترك المشط من يده وقال : قل . فقلت :

كأنكَ صَعوَةٌ فى أصْلِ حُشٍّ ... أصابَ الحُشَّ طَشٌّ بعدَ رشٍّ[(١)]

فقال : إسمع جواب ما قلت . فقلت : هات ! فقال :

كأنَّكَ جُندبٌ فى ذَيلِ كبشٍ ... تدَلدَلَ هكذا والكبشُ يَمشِى[(٢)]

وأما المرأة فإنى كنت مجتازاً فى بعض الطريق فإذا أنا بامرأتين ، وكنت راكبا على حمارة،فضرطت الحمارة ، فقالت إحداهما للأخرى : وَىْ! حمارة الشيخ تضرط !! فغاظنى قولها فقلت لها : إنه ما حملتنى أنثى قط إلا ضرطت . فضربت بيدها على كتف الأخرى وقالت : كانت أم هذا منه تسعة أشهر فى جهد جهيد ؟ !!

١٧

وقال أبو بكر محمد بن إسحق : قال لى إبراهيم بن محمود، ونحن ببغداد:

---

(١) الصعوة : عصفورة صغيرة كثيرة الصفير . ألحش : بيت الخلاء . ألطش : المطر الكثير . الرش : المطر الخفيف

(٢) ألجندب : ألجرادة

ألا ندخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت : مالى وله ؟ فقال : إنك إذا انصرفت إلى خُراسان سألوك عنه ! فلو دخلت إليه وسمعت كلامه ؟ فدخلنا عليه فقدم لنا طبقا عليه رطب ، فتناولت منه ثلاث رطبات ثم أمسكت ، ومر فيه إبراهيم ، فأشرت إليه أن يمسك . فرمقنى الجاحظ وقال لى : دعه يافتى فقد كان عندى بعض إخوانى فقدمت إليه الرطب فامتنع فحلفت عليه فأبى إلا أن يبر قسمى بثلثمائة رطبة ! !

١٨

وقال ابن أبى الدَّيَّال المحدث : حضرتُ وليمةً حضرها الجاحظ ، وحَضَرَتْ صلاةُ العصر وما صلى الجاحظ ، فلما عزمنا على الإنصراف قال الجاحظ لرب المنزل : إنى ما صليت لمذهب أو لسبب أخبرك به ! فقيل له : ما أظن أن لك مذهباً فى الصلاة إلا تركها !

١٩

وقال أبو العيناء : كان الجاحظ يأكل مع محمد بن عبد الملك الزيات فجاؤا بفالوذجة (١) ، فتولع محمد بأبى عثمان الجاحظ وأمر أن يُجعل من جهته مارق من الجام ، فأسرع فى الأكل فتنظف ما بين يديه ، فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس ؟!! فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً ! !

٢٠

وقال يموت بن المزرَّع : سمعته — يعنى الجاحظ — يقول : رأيت رجلا يروح ويغدو فى حوائج الناس فقلت له : قد أتعبت بذلك بدنك وأخلقت ثيابك ، وأعجفت برذونك ، وقتلت غلامك ، فمالك راحةٌ ولاقرار

---

(١) الفالوذجة : هى الفالوذ ، وهى حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل . بالوذة

فلو أقتصدت بعض الاقتصاد ! ! فقال : سمعتُ تغريد الأطيار فما طربت طربى لنغمة شاكر أوليته معروفاً، أو سعيت له فى حاجة !

٢١

وقال الجاحظ : نسيت كنيتى ثلاثة أيام فسألت أهلى : بماذا أُكَنَّى ؟ فقالوا لى : أبو عثمان !

٢٢

ومن أطرف ما يروى فى هذا الباب ما تحدث به أبو على الحسن بن محمد الأنبارى الكاتب قال : مات عندنا بالأنبار فلان . وأسماه . وكان عظيم النعمة ، وافر المُرُوءة (١) كثير الثياب . وكان لكثرتها يجعل كل فن منها فى عدة صناديق . فكانت دراريعه الدَّبِيقيَّة (٢) مفردة ، والدراريع الديباج مفردة ، وكذلك القُمص ، والسراويلات ، والجباب ، والطيالس والعمائم . قال : وكان له بنو عم وأم وَلَدٍ (٣) قد تزوجها ، فلما مات أخرجت جميع آلاته وقُماشه وثيابه إلا اليسر ، من الدار ، فخبأته . وذهب عليها صناديق السراويلات فلم تُخرجها ، فجاء بنو العم فختموا على الخزائن ، فلما انقضت أيام المصيبة فتحوها فوجدوها أخلى من فؤاد أم موسى . فخاصموها

(١) المروءة : هى كمال الرجولية ، وهى آداب نفسية تحمل مراعاتها الانسان على التزام محاسن الأخلاق وجميل العادات ، والظهور أمام الناس بحسن السمت ونظافة الثياب وتخيرها حتى لا تنبو العين عن شىء منها .

(٢) الدبيقية نسبة إلى بلد مصرية كانت بين الفرما وتنيس ، وكانت مشهورة بصنع الثياب والعمائم من رقيق النسيج وتوشيتها بالذهب ، وقد تبلغ قيمة الذهب فى العمامة الواحدة خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل

(٣) أم الولد : هى الجارية التى كانت تتخذ للتسرى حتى إذا حملت أعتقت وعقد عليها

إلى قاضى البلد ، فلم تنقطع الخصومة . فدخلوا الحضرة [١] فتظلموا ، فأُشخصت وحملت إلى القاضى أبى جعفر بن البهلول — ووُقِّع إليه بالنظر فيما بينهم على طريق المظالم [٢] — فحضروا عنده وأخذ يسائلهم عن دعواهم ، وهى منكرة جميعها فقالوا له : أيها القاضى ، فلان أنت أعرف الناس بمروءته وثيابه وما كنت تشاهده له ، وكله كان فى يدها له ، وساعة مات ختمنا خزائنه ، وهى كانت فى الدار ، ولما فتحناها لم نجد له فيها إلا عدة صناديق فيها سراويلات ، وقطعاً يسيرة من ثيابه ! فأين مضى هذا ومن أخذه ؟ وما السبب فى عظم السراويلات وقلة الثياب ؟ ! قال : فأقبلت الجارية محتدة كأنها قد أعدت الجواب ، فقالت : أعز الله القاضى ، أما سمعت ما حكاه الجاحظ من أن رجلا كان يعشق الهواوين فجمع منها مائتى هاون ؟ ! هذا كان يعشق السراويلات ... ؟ ! قال : فضحك القاضى أبو جعفر وانفض المجلس من غير شىء فما استنصفوا منها بعد ذلك !

---

(١) الحضرة : هى عاصمة الملك ، ويراد بها هنا بغداد

(٢) كانت محاكم المظالم فى العهد القديم أشبه بالمحاكم المدنية الآن ، مع فارق كبير بين صفات من كان يتولى النظر فى تلك المظالم ، وبين من يتولى المحاكمات المدنية الآن .

الفصل الحادى والعشرون

فى

شذور من كلماته

ليس فى الإمكان حصر ما ذهب من كلمات الجاحظ مذهب الأمثال، ولا ماسار منها مسير الشمس ، فإن كتبه ورسائله قد حفلت بهذا النوع من الكلام ، وحشدت بهذا الضرب من القول الموجز والبيان المعجز ، وإذا فاتنا استقصاء ذلك فلن يفوتنا الإلماع إليه، و إيراد شذور منه، فمن ذلك قوله:

١

يجب للرجل أن يكون سخيا لا يبلغ التبذير ، وشجاعا لا يبلغ الْهَوَج ومحترسا لا يبلغ الجبن ،وماضيا لا يبلغ القِحَةَ ، وقوالا لايبلغ الْهَذَرَ ، وصموتا لايبلغ العَىَّ ، وحليما لا يبلغ الذل ، ومنتصراً لا يبلغ الظلم ، ووقوراً لا يبلغ البلادة ، ونافذاً لا يبلغ الطيش

٢

ليس جُهد البلاء مَدَّ الأعناق وانتظار وقع السيف ، لأن الوقت قصير، والحين مغمور . ولكن جهد البلاء أن تظهر الخلَّة ، وتطول المدة ، وتعجز الحيلة ، ثم لا تعدم صديقا مؤنبا ، وابن عم شامتا ، وجاراً حاسداً ، ووليا تحول عدوا ، وزوجة متخلفة ، وجارية مسبعة، وعبدا يحقوك، وولداً ينتهرك

٣

وقال مرة للسِّدْرِىِّ : إذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت قحبة ؟

فقال السدرى : وكيف ؟!!

قال : لأنها تأخذ الدراهم ، وتمتع بالناس والطيب ، وتختار على عينها من تريد ، والتوبة معروضة لها متى شاءت !

فقال السدرى : فكيف عقل العجوز ؟

قال : هى أحمق الناس وأقلهم عقلا

٤

كل عشق يُسمى حبا ، وليس كل حب يسمى عشقا . لأن العشق اسم لما فضل عن المحبة ، كما أن السَّرَفَ اسم لما جاوز الجود ، والبخل اسم لما قصر عن الاقتصاد ، والجبن اسم لما فضل عن شدة الاحتراس ، والهوج اسم لما فضل عن الشجاعة

٥

وقال : تسعة موجودة فى تسعة . ألخفةُ فى الصُّمِّ ، والْهَوَجُ فى الطوال ، والعُجب فى القِصار ، والنبل فى الرّبعة ، والملاحة فى الحُول ، والذكاء فى الخُرس ، والحفظ فى العُميان ، والثقل فى العور ، والنشاط فى العُرج !

٦

وقال : أربعة أشياء ممسوخة : أكل الرز البارد ، والنيء .. فى الماء ، والقُبل على النقاب ، والغِناء من وراء الستار !

٧

وقال : أجمع الناس على أربع : أنه ليس فى الدنيا أثقل من أعمى ، ولا أبغض من أعور ، ولا أخف روحا من أحول ، ولا أقود من أحدب

٨

وقال : إذا سمعتَ الرجلَ يقول : ما ترك الأولُ للآخر شيئا ! فاعلم أنه ما يريد أن يُفلح

٩

وقال : مَن ألَّفَ فقد استهدف ، فإن أحسن فقد استظْرف ؟ وإن أساء فقد استقذف

١٠

وقال أبو زيد البلخى : ما أحسنَ ماقال الجاحظ : عقل المنشىء مشغول ، وعقل المتصفح فارغ ؟!!

١١

وقال الجاحظ : من حفظ ماله فقد حفظ الأكرمَين : الدين ، والعرض

١٢

وقال : إحذر من تأمن ، فإنك حَذِرٌ ممن تخاف

١٣

وقال : إن تهيأ لك فى الشاعر أن تبره وترضيه ، وإلا فاقتله !!!

قلت : إن الجاحظ ، مِن أجل بغضه لبشار بن برد ومَن كان على نهجه من الشعراء الذين كانوا يهاجون المتكلمين ورجال المعتزلة ، يقول هذه القولة ويحرض بها من طرف خفى كلَّ ذى نفوذ وسلطان على اغتيال الشعراء !! وهل فى الإمكان إرضاء كل شاعر وقطع لسانه بالعطايا والهبات ، فى كل وقت وفى كل آن ؟! هذا ما لا يستطيعه إنسان ، كائناً من كان ! ولكنه كان لبقاً فى تحريضه ، لطيفا فى حثه وإيعازه . وقد أذكرتنى هذه الكلمةُ كلمةً أخرى قريبة الشبه منها سمعتها من الشيخ على يوسف (١) رحمه الله ، فى بعض حديث

(١) هو الكاتب البارع القدير ، والصحفى المصرى الماهر المقطوع النظير ، الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، ومفخرة الصحافة المصرية ،

كان لى معه وهى قوله : « صاحب الكاتب كحامل العقرب لايدرى متى تلدغه » فقلت له : ولم اختصصت الكاتب بهذا دون غيره ؟ فقال : لأن الكاتب الأديب أشد فطنة وأدق ذهنا وأسرع التفاتاً وأكثر تقديراً لأحوال الناس ومرامى أغراضهم، من سواه ، فهو إن أرضيته وقمت بمطالبه، رضى عنك وقال فيك خير ما يعلم ، و إن أغضبته وقصرت فى إبلاغه أمانيه ، ثار بك وقال فيك شر ما يعلم وما لايعلم . وما الكتاب فى هذا العصر إلا خلفاء الشعراء فى العصر الأول . فقلت له : إن الرضا عند الإحسان ، والسخط عند الإساءة، طبيعة فى الجبلة الانسانية ، وغريزة فى كل ما ذرأ الله من خلق، أما سمعت قول الشاعر :

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللِّسَانَ مُوَكَّلٌ ... بِمَدْحِ كِرَامٍ أَوْ بِذَمِّ لِئَامِ ؟ !

فقال : نعم . ولكن الشعراء والكتاب أشد إحساساً وأرق عاطفة وأنفذ نظراً وأكثر عرفانا بمقادير أنفسهم ، من كل من عداهم .

بل أحد مفاخر مصر فى عهدها القريب. ولد بقرية بلصفورة ، وتلقى علومه بها على الشيخ حسن الهوارى ، ثم حضر إلى القاهرة والتحق بالأزهر . وكان يقول الشعر يمدح به بعض الكبراء استدرارا لعوارفهم . ثم صبت نفسه إلى الكتابة فى الصحف، فشارك الشيخ أحمد ماضى فى تحرير جريدة الآداب ، وبعد قليل استقل بها . ثم أنشأ جريدة المؤيد، وفيها ظهرت براعته، وذاعت شهرته وانتشر صيته فى أقطار الأرض. وصار المؤيد بحق جريدة العالم الاسلامى . وما زالت تدفع به همته وتسمو به مواهبه إلى أن أصبح مخشى الجانب من السلاطين والأمراء، ومن فى طبقتهم ،فأهدوا إليه نياشين الفخار ،ومنحوه رتب الاعتبار . ثم صاهر بيت السادات العريق فى الحسب ، وصار شيخا للسادات الوفائية . وكان له فى المؤيد جولات قلم كانت تقيم السلطنة العثمانية وتقعدها ، وترضيها وتسخطها . وكان المؤيد مدرسة تخرج بها الكثير من فحول الكتاب وأكابر الأدباء الذين يقودون الحركة الفكرية ، ويقبضون على زمام النهضة القلمية، فى هذا العصر. توفى بالقاهرة سنة ١٣٣٣ هـ ١٩١٣ م

الفصل الثاني والعشرون

فى

نبذ من شعره

يندر فى البلغاء من تستوى له الإجادة فى الصناعتين فيجمع بين بلاغة النثر، وبراعة الشعر. وهما إذا اجتمعا لبليغ فقلما تساويا فى درجات البيان، وطبقات التبيان. ولاشك فى أن الجاحظ قد بلغ فى الكلام المنثور الذروة العليا فى طبقات الفصاحة، ومعارج الإبانة، ومراقى البلاغة، حتى صار إماماً فى أسلوبه، وحتى تقاصرت دون بلوغ غايته همم الكتاب الذين جاءوا من بعده. ومع هذا فقد كان فى شعره يتظالع وراء الطبقة الوسطى من الشعراء. وكان ربما استعان بشعر غيره بين يدى حاجته ولا يرى فى ذلك بأساً. وقد تظهر دخيلته فى هذه الاستعانة ولا يخشى قول أحد، لأن له من لسانه وقاية، ومن بيانه حماية. على أنه ليس فى إمكاننا أن نترك هذا الكتاب دون أن نثبت فيه ما عثرنا عليه من شعره، إن صحت رواية الرواة أن الشعر له:

١

روى الرواة أنه قال فى أبى الفرَجِ نجاحِ بنِ سلَمَةَ قصيدة يسأله فيها إطلاق رزقه. ولم يبق منها إلا قوله:

أَقامَ بِدَارِ الخَفضِ رَاضٍ بخَفْضِهِ
وذُوا الحزمِ يَسْرِى حَيْثُ لاَ أَحَدٌ يَسْرِى (١)

---

(١) يريد بدار الخفض: الاقامة على الفقر والرضا به. وأن الراضى بهذه الحالة غير حازم ولا بعيد الهمة، وأما الحازم فهو بعيد الهمة كثير النشاط.

يَظُنُّ الرِّضَا شيئاً يَسِيراً مُهَوَّناً ... ودُونَ الرِّضَا كأسٌ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ (١)
سَوَاءٌ عَلَى الأَيَّامِ صَاحِبُ حُنْكَةٍ ... وآخرُ كابٍ لا يَرِيشُ وَلاَ يَبْرِى (٢)
خَضَعْتُ لِبَعْضِ القَوْمِ أَرْجُو نَوَالَهُ ... وقد كُنْتُ لا أُعْطِى الدَّنِيَّةَ بالقَسْرِ (٣)
فلمَّا رَأَيْتُ القومَ يَبْذُلُ بِشْرَهُ ... وَيَجْعَلُ حُسْنَ البِشْرِ وَاقِيَةَ الوَفْرِ (٤)
رَجَعْتُ عَلَى ظَلْعِي وَرَاجَعْتُ مَنْزِلِى ... فَصِرْتُ حَلِيفاً لِلدِّرَاسَةِ وَالفِكْرِ (٥)

والحركة ، لا يرضيه الدون من العيش ، ولكنه ما يزال معنيا بعظائم الأمور. وهو بهذا يعارض قول الشاعر :

يُقِيمُ الرِّجَالُ الأَغْنِيَاءُ بِأَرْضِهِمْ ... وَتَرْمِى النَّوَى بِالمُقْتِرِينَ المَرَامِيَا

(١) يعنى مع هذا فان الرضا ليس بالشىء الهين اليسير

(٢) صاحب الحنكة :هو المجرب للأمور . والكابى : هو الغر الغمر المغفل . لا يريش ولا يبرى : هذا مثل عربى يضرب لمن لا خير فيه ولا غناء عنده

(٣) يريد أنه على شممه وإبائه قد دفعته الحاجة إلى قصد بعض الناس، وقد ظن فيه السماحة والكرم ، فخضع له ليستنزل سحائب جوده . مع أنه كان لا يتسامح مع نفسه فى أن يذل لأحد أو يذعن لدنية إلا إذا قهر عليها

(٤) يريد أنه لما رأى الناس الذين قصدهم فى حاجته ليس عندهم إلا حسن اللقاء والابتسام فى وجه قاصدهم وأنهم يجعلون ذلك وقاية لأموالهم. وهذا الصنف من الناس هو الذى عناه المتنبى بقوله :

جود الرجال من الأيدى وجودهم ... من اللسان فلا كانوا ولا الجود

(٥) يريد أنه لما رآهم على تلك الحال التى وصفها فى البيت السالف عاد على نفسه باللائمة ولزم منزله وانكب على الدرس والمطالعة والتفكير . ولا تحسبن أن الجاحظ كان فقيرا معدما؟ فقد كانت له موارد رزق غامرة، غير أنه على ما يظهر كان قد وقع فى ضيقة مالية اضطرته إلى قول ما قال ووصف ما وصف . أو أن هذا القول كان منه على طريق مجاراة الشعراء فى الاحتيال على الكرماء واختداع الأجواد

وَشَاوَرْتُ إخْوَانِى فَقَالَ عَلِيمُهُمْ ... عَلَيكَ الفَتَى المُرِّىَّ ذَا الخُلُقِ الغَمْرِ (١)
أُعِيذُكَ بالرَّحْمَنِ مِنْ قَوْلِ شَامِتٍ: ... أَبُو الفَرَجِ المَأْمُولِ يَزْهَدُ فى عَمْرِو (٢)
وَلَوْ كَانَ فِيهِ رَاغِباً لَرَأَيْتَهُ ... كَمَا كَانَ دَهْراً فى الرَّخَاءِ وفى اليُسْرِ (٣)
أَخَافُ عَلَيْكَ العَيْنَ مِنْ كُلِّ حَاسِدٍ ... وَذُو الوُدِّ مَنْخُوبُ الفُؤَادِ مِنَ الذُعْرِ (٤)
فَإِنْ تَرْعَ وُدِّى بالقَبُولِ فَأَهْلُهُ ... ولا يَعْرِفُ الأَقْدَارَ غَيْرُ ذَوِى القَدْرِ (٥)

٢

قالوا: وقال فى أحمدِ بنِ أبى دُؤاد:

وَعَوِيصٍ مِنَ الأُمُورِ بَهِيمٍ ... غَامِضِ الشَّخْصِ مُظْلِمٍ مَسْتُورِ (٦)
قَدْ تَسَنَّمْتَ مَا تَوَعَّرَ مِنْهُ ... بِلِسَانٍ يَزِينُهُ التَّحْبِيرُ، (٧)
مِثْلُ وَشْىِ البُرُودِ هَلْهَلَهُ النَّسْـــجُ وَعِنْدَ الحِجَاجِ دُرٌّ نَثِيرُ، (٨)
حَسَنُ الصَّمْتِ وَالمَقَاطِعِ إِمَّا ... نَصَتَ القَوْمُ وَالحَدِيثُ يَدُورُ، (٩)
ثُمَّ مِنْ بَعْدُ لَحْظَةً تُورِثُ اليُسْـــرَ وَعِرْضٌ مُهَذَّبٌ مَوْفُورُ، (١٠)

---

(١) الخلق الغمر: يعنى الخلق العظيم

(٢) عمرو: هو الجاحظ نفسه

(٣) وهذا البيت يحقق ما ظنناه من أنه كان يحاول خدعه

(٤) الفؤاد المنخوب: الواهى الضعيف

(٥) هذا هو بيت القصيد

(٦) العويص: الصعب. والبهيم: المظلم المستبهم الذى لا معارف له ولا أعلام.

(٧) تسنمت: ركبت. ما توعر: ما صعب واستعصى

(٨) يعنى بكلام هو لبلاغته وفصاحته وقوة ما فى معانيه من حجة وما فى ألفاظه من رقة، كأنه البرود الموشية الرقيقة النسج. الحجاج: الجدل والمناظرة.

(٩) نصتوا: تسمعوا

(١٠) ما أجل المعنى الذى تضمنه هذا البيت!! فهو يقول إنه لحظهم لحظة

٣

ومما كتبه إليه ، ولعلها من الأبيات الماضية :

لَا تَرَانِي وإِنْ تَطَاوَلْتُ عَمْدًا بَيْنَ صَفَّيْهِمُ وَأَنْتَ تَسِيرُ (١)
كُلُّهُمْ فاضِلٌ عَلَيَّ بمَالٍ وَلِسَانِي يَزِينُهُ التَّحْبِيرُ (٢)
فإِذَا ضَمَّنَا الحديثُ وَبَيْتٌ وكأنِّى على الجميعِ أميرُ (٣)
رُبَّ خَصْمٍ أَرَقَّ مِنْ كلِّ رُوحٍ وَلِفَرْطِ الذَّكَا يَكَادُ يَطِيرُ (٤)
فإِذَا رَامَ غَايَتِي فَهْوَ كابٍ وعلى البُعْدِ كَوْكَبٌ مبهُورُ (٥)

٤

وروى يموت بن المزرع أن الجاحظ قال يهجو الجماز . وتروى لعبد الصمد ابن المعذل :

نَسَبُ الجَمَّازِ مَقْصُو رٌ إِلَيْهِ مُنْتَهَاهْ
تَنْتَهِي الأَحْسَابُ بالنَّا سِ وَلَا يَعْدُو قَفَاهْ
يَتَنَاجَى مَنْ أَبُو الجَمَّا زِ فِيهِ كَاتِبَاهْ
لَيْسَ يَدْرِى مَنْ أَبُو الجَمَّازِ إِلَّا مَنْ يَرَاهْ

أزاحت عنهم العسر، وأحلت بهم اليسر ، دون أن يراق لهم ماء وجه، أو يثلم لهم عرض

(١) من هذا البيت يتضح أن الجاحظ قد جمع إلى دمامة الخلق قصر القامة

(٢) يريد أنهم أكثر منه مالا ولكنه أحلى منهم لسانا

(٣) يعنى أنه حينما يكون معهم فى بيت ويجرى بينهم الحديث سادهم وكأنه عليهم أمير بحسن بيانه وجميل افتنانه

(٤) يعنى أن خصمه مهما أوتى من خفة الروح ورقة سحر البيان ومن الذكاء الخارق كان كما وصفه فى البيت التالى

(٥) يعنى أن خصمه مع ما هو عليه من الصفات التى أبانها فى البيت الماضى لن يبلغ شأوه ولن يصل إلى غايته

٥

وروى له أبو العيناء هذه الأرجوزة فى الخضاب :

زُرتُ فتاةً مِن بَنى هِلاَلِ

فاستعجَلَتْ إلَىّ بالسُّؤالِ :

مالِى أراكَ قانِيَ السِّبالِ (١)

كأنما كَرَعْتَ فى جِريالِ (٢)

ما يبتغى مِثلُكَ مِن أمثالِى ؟!

تَنَحَّ قُدَّامِى وَمِن حِيالِى

٦

وقال فى فضل العلم والعلماء :

يَطِيبُ العَيْشُ أنْ تلقى حكيماً غذاهُ العِلْمُ والفَهمُ المُصِيبُ

فيكْشِفَ عَنكَ حيرَةَ كلِّ جَهلٍ وَفضلُ العِلمِ يَعرِفُهُ اللَّبِيبُ

سَقَامُ الحِرصِ لَيس لَهُ شِفَاءٌ وَدَاءُ الجهلِ لَيسَ لَهُ طَبِيبُ

٧

وفى رواية الخطيب البغدادى أن أبا العيناء قال : قال إبراهيم بن رباح : أتانى جماعة من الشعراء فأنشدني كل واحد منهم ، وكل يدعى أنه مدحنى بهذه الأبيات :

بَدَا حِينَ أثرَى بإخوانِهِ فَفَلَّلَ عَنهُم شَباةَ العَدَمْ (٣)

---

(١) قانى السبال : مصبوغ الشاربين باللون الأحمر

(٢) يريد أن حمرة شاربيه كمن شرب خمرا أو عب فيه فأثر لون الخمر فى شاربيه

(٣) فلل شباة العدم : أذهب عنهم حدة الفقر

وذَكَّرَهُ الحزمُ صرفَ الزَّمَا ... نِ فبادرَ قبلَ انتقالِ النِّعَمْ (١)
فتًى خصَّهُ اللهُ بالمكرُمَا ... تِ فمازجَ منهُ الحيا بالكرَمْ
إذا نِعمةٌ قصُرَتْ عن يَدٍ ... تناوَلَها بجزيلِ الهِمَمْ
ولا يَنْكُتُ الأرضَ عِندَ السُّؤا ... لِ ليقطعَ زُوَّارَهُ عن نعَمْ

قال: وكان اللاحقىُّ منهم، وأحسبها له. ثم آخر من جاءنى الجاحظ وأنا والى الأهواز، فأعطيته عليها، ثم كنت عند ابنِ أبى دؤاد فدخل إلينا الجاحظ فالتفت إلىَّ ابنُ أبى دؤاد فقال: يا أبا إسحق، قد امتُدِحت بأشعار كثيرة ماسمعت بشىء وقع فى قلبى وقبلته نفسى مثل أبيات مدحنى بها أبو عثمان ؟! ثم أنشدنيها بحضرته «بدا حين أثرى بإخوانه» فقلت: وجد أيدك الله مقالا ! ؟ . . . قال: وعجبت من عمرو وسكوته، ولم أذكر من ذلك شيئاً . . . !

٨

وقال فى إبراهيم بن رباح:

وعهدِى بهِ وَاللهُ يُصْلِحُ أمرَهُ ... رَحيبُ مجالِ الرَّأيِ مُنبلِجُ الصَّدْرِ
فلا جعلَ اللهُ الوِلايةَ سُبَّةً ... عليهِ فإنِّى بالوِلايةِ ذو خُبْرِ
فقد جَهَدُوهُ بالسُّؤالِ وقد أبَى ... بهِ المجدُ إلَّا أن يَلِجّ ويَستشرِي (٢)

٩

وقال فى الخضاب:

إنْ حالَ لونُ الرَّأسِ عَنْ حالهِ ... ففى خِضابِ الرَّأسِ مُستمتَعْ (٣)

---

(١) فى رواية: وذكره الدهر. وما أثبتناه أفضل
(٢) يلج ويستشرى: يبالغ فى شأنه فى الكرم
(٣) فى رواية. ففى خضاب المرء

هَبْ مَنْ لهُ شَيْبٌ لهُ حِيْلةٌ فَمَا الَّذِي يَحْتَالهُ الأَصْلَعُ(١)

١٠

وروى أبو الحسن البرمكى له :

وكَانَ لَنا أَصْدِقاءُ مَضَوْا تَفَانَوْا جَمِيعاً وَما خَلَّدُوا
تَسَاقَوْا جَمِيعاً كُؤُسَ المَنُو نِ فَمَاتَ الصَّدِيقُ وَمَاتَ العَدُو

١١

ومما زوى له وهو مريض :

لَئِنْ قُدِّمَتْ قَبْلِى رِجَالٌ فَطَالَمَا مَشَيْتُ عَلَى رِسْلِى فَكُنْتُ المُقَدَّمَا
وَلَكِنَّ هَذا الدَّهْرَ تَأْتِى صُرُوفُهُ فَتُبْرِمُ مَنْقُوضاً وتَنْقُضُ مُبْرَمَا

---

(١) وفى رواية :

هب أن من شاب له حيلة فما الذى تحنى له الأصلع

والذى أثبتناه أجود

الفصل الثالث والعشرون

فى

هجو الشعراء له

ليس بدعاً أن يوجد فى قالة الشعر من يعرض للجاحظ بالهجو ، ومع هذا فلم يهجه منهم إلا من لاخطر له ولا شأن من الشعراء . أما ذوو الأخطار منهم وأصحاب الأقدار فيهم ، فقد عرفوا منزلته ، وأدركوا مكانته ، وصارت الأمنية الكبرى التى يصبوا إليها الشاعر منهم هى أن يذكره الجاحظ فى بعض كتبه ، ولو من طريق النقد والملاحظة ، أو التندر والمفاكهة ، فإنه يضمن بذلك أن يتردد ذكره فى الآفاق ، ويبلغ صيته السبع الطباق .

١

يروى أن صديقه أبا كريمة البصرى قال يعاتبه ويقرعه :

لَمْ يَظْلِمِ اللهُ عَمْرًا حِينَ صَيَّرَهُ ... مِنْ كُلِّ شيءٍ سِوَى آدابِهِ عارِي

بَتَّتْ حِبالَ وِصالِي كَفُّهُ قُطِعَتْ ... لَمَّا اسْتَعَنْتُ بِهِ فى بَعْضِ أَوْطَارِي

فَكُنْتُ فى طَلَبى مِنْ عِنْدِهِ فَرَجًا ... كالمُسْتَغِيثِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بالنَّارِ

إِنِّي أُعِيذُكَ وَالمُعْتَاذُ مُحْتَرِسٌ ... مِنْ شُؤْمِ عَمْرٍو بعزِّ الخالق البَارِي

فإِنْ فَعَلْتَ فَحَظٌّ قَدْ ظَفِرْتَ بِهِ ... وإِنْ أَبَيْتَ فقدْ أَعْلَنْتُ أَسرارِي

٢

وقال بعض خصوم المعتزلة يهجوه :

لَوْ يُمْسَخُ الخِنزِيرُ مَسْخًا ثانِيًا ... مَا كانَ إلاَّ دُونَ قُبْحِ الجاحِظِ

رَجُلٌ يَنُوبُ عَنِ الجحيمِ بنفسِهِ وَهْوَ القَذَى فى كلِّ طَرْفٍ لَاحِظِ

٣

وقال الجماز فى رده عليه :

يافتى نَفْسُهُ إلى الكفرِ باللهِ تائقَهْ
لكَ فى الفضلِ والتَّزَهُّدِ والنُّسْكِ سابِقَه

٤

وقال فيه :

قالَ عمرٌو مُفاخِرًا: نحنُ قومٌ مِنَ العَرَبْ
قُلْتُ: فى طاعةٍ لربِّكَ أَبْلَيْتَ ذا النَّسَبْ

الفصل الرابع والعشرون

فى

مرضه وما قيل فى سببه . وموته

كان ابتداء مرض الجاحظ فى أواخر عهد الخليفة جعفر المتوكل على الله العباسى، أى فى سنة ٢٤٧ هـ . والظاهر أنه لم ينقطع عن الكتابة والتأليف طوال مدة مرضه ، مما يدل على أنه كان على جانب عظيم من قوة البنية ، وشدة الأسر، ومتانة الأعصاب ، وحضور الذهب ، وقوة العقل . ولا عبرة بما وصف به نفسه، أو بما وصفه به غيره، من شدة وقع المرض عليه . فمن البديهى أن ذلك قد كان فى أول وقع الاصابة به ، أو فى أواخر أيامه واقتراب أجله وتدانى ساعته . ومع هذا فمن الثابت أنه لم يمت حتى وقعت عليه أجلاد الكتب فقطعت أنفاسه . وقد ظل مفلوجا ثمانية أعوام مُجَرَّمَةٍ . من سنة ٢٤٧ إلى سنة ٢٥٥ وإليك ماقيل فى ذلك :

١

نقل ابن أبى أصيبعة[١] من خط ابن بطلان[٢] الطبيب: أن أبا عثمان

(١) هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجى، عرف بابن أبى أصيبعة، أحد أفاضل العلماء فى القرن السابع. وقد ألف كتابه « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » برسم خزانة أمين الدولة ابن غزال وزير الملك الصالح بن الملك العادل صاحب دمشق. توفى بصرخد سنة ٦٦٨ هـ

(٢) هو أبو الحسن المختار بن عبدوس . وقيل عبدون . المعروف بابن بطلان . طبيب ماهر ، ومنطقى فاضل ، وكاتب بارع . نشأ ببغداد نصرانيا . ثم رحل إلى الجزيرة والموصل وديار بكر ، وأقام بحلب زمنا، وكان له فيها

الجاحظ ويوحنا بن ماسويه [1] اجتمعا — فى ظن ابن بطلان — على مائدة إسماعيل بن بلبل [2] (قلت: الصواب أنهما اجتمعا على مائدة أحمد بن أبى دؤاد) وكان فى جملة ماقدم مَضِيرَةٌ بعد سمك، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما، فقال له أبو عثمان: أيها الشيخ، لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاد له، فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له، وإن كانا من طبع واحد فلنحسب أنا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا؟ فقال يوحنا: والله مالى خبرة بالكلام، ولكن كل يا أباعثمان وانظر ما يكون فى غد. فأكل أبو عثمان، نصرة لدعواه، فقلج فى ليلته! فقال: هذه والله نتيجة القياس المحال.

شأن، ثم وفد على مصر ولقى بها ابن رضوان الطبيب المصرى وجرت بينهما مناظرات ومجادلات. وله من الكتب «دعوة الأطباء» وهو كتاب ظريف. ورحلته مدون منها الشىء الكثير فى بطون الكتب. توفى بدير اتخذه لنفسه بانطاكية بعد أن ترهب زمنا سنة ٤٤٤ هـ

(١) هو أبو زكريا يوحنا بن ماسويه. طبيب سريانى، خدم الرشيد بطبه وتولى له ترجمة كتب الطب القديمة، وظل فى خدمة الخلفاء العباسيين إلى أيام المتوكل. وكان ذا جاه عظيم، وقدر جليل. وكان له مجلس يحضره العلماء والتلاميذ للبحث والنظر. وكان به ضيق صدر وحدة تخرج به إلى النكتة النادرة والملاحة المضحكة. وكان سلمويه يصفه بالفضول ويحذر من الاعتماد على ما يصفه من الأدوية. ومن عجيب كلامه قوله لابن حمدون النديم، وقد عبث به: لو كان مكان ما فيك من الجهل عقل وقسم على مائة خنفساء لكانت كل واحدة منهن أعقل من أرسطوطاليس؟. توفى ببغداد سنة ٢٤٣ هـ

(٢) هو أبو الصقر إسماعيل بن بلبل أحد وزراء المعتمد الذين جمع لهم السيف والقلم. وكان يسمى الوزير الشكور. وكان كريما متجملا ينتسب إلى بنى شيبان، وكان يغمز فى نسبه. وقد مدحه الشعراء مثل البحترى وابن الرومى ثم هجاه ابن الرومى فأفحش. قبض عليه المعتمد وعلى أسبابه وحبس إلى أن مات فى محبسه سنة ٢٧٨ هـ

٢

وقال أبو مَعاذ عَبْدَانُ الخُوَيُّ المتطبب : دخلنا بسر من رآى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فلج، فلما أخذنا مجالسنا أتى رسول المتوكل فيه . فقال: وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ؟ ثم أقبل علينا فقال : ماتقولون فى رجل له شِقان : أحدهما لو غرز بالمِسَالّ ما أحس ، والآخر يمر به الذباب فَيَغُوثُ . وأ كثرما أشكوه الثمانون . ثم أنشدنا أبياتا من قصيدة عَوفِ بنِ مُحَلِّمِ الخُزَاعِيِّ[١] قال أبو معاذ : وكان سبب هذه القصيدة أن عوفا دخل على عبدِ الله بن طاهر[٢] فسلم عليه عبدُ الله فلم يسمع ، فأُعلم ذلك . فزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة ارتجالا — فأنشده :

يا ابْنَ الذى دَانَ لهُ المَشْرِقَانِ طرًّا وقدْ دَانَ لهُ المَغْرِبَانِ[٣]

---

(١) هو أبو محلم عوف بن محلم الخزاعى . أحد أفراد الأدباء الرواة الفهماء ، وكان شاعرا بليغا ونديما ظريفا ، وكان عارفا بالنوادر والأخبار وأيام الناس . اختصه طاهر بن الحسين بمنادمته ومسامرته ، ثم اصطفاه عبد الله بن طاهر لنفسه وطالت صحبته له ، وكان لا يكاد يفارقه فى سفر ولا حضر . وله فيه شعر جيد ونوادر حسنة . مات سنة ٢٢٠ هـ

(٢) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر ، كان أميرا جليلا عالى الهمة ذا شهامه وصرامة وإقدام ، وكان سيداً نبيلا سخيا كريما . ولاه الخليفة المأمون فيما ولاه من الأعمال الديار المصرية . وللشعراء فيه مدائح وله إليهم منائح . وكان مع هذا شاعرا مجيدا وكاتبا بليغا وأديبا بارعا . وله حروب ومشاهد كان الظفر فيها دائما فى جانبه . ومايسمى بمصر بالعبدلاوى ، وهو البطيخ الأصفر ، إنما ينسب إليه ، لأنه ، على ما قيل ، هو الذى جاء به من خراسان وزرعه بمصر ، وكان يستطيبه فى إبانه . وكان واسطة عقد الأسرة الطاهرية التى كان العباسيون يكلون إلى أفرادها القيام بعظائم الأمور وكبار المهام فى الدولة . توفى بمروسنة ٢٣٠ هـ

(٣) دان : خضع وأتمر بأمره . ويروى بدل الشطر الثانى (وأكثر الأمر به المغربان)

إنَّ الثمَّانينَ — وَبُلِّغتها — قدأَحْوَجَتْ سَمْعى إلى تَرجُمان (١)
وَبَدَّلَتْنِى بالشَّطَاطِ انحِنَاً وكُنْتُ كالصَّعْدَةِ تحتَ السِّنان (٢)
وَبَدَّلَتْنى مِنْ زَماعِ الفتى وهِمَّتي هَمَّ الجَبانِ الهِدَان (٣)
وقارَبَتْ مِنِّى خُطًا لم تكُنْ مُقارَباتٍ وَثنَتْ مِن عِنَان (٤)
وأَنْشأَتْ بيني وبينَ الورَى عَنانةً مِن غيرِ نَسْجِ العَنان (٥)
ولَمْ تدَعْ فِيَّ لِمُستمتِعٍ إلاَّ لِسانى وبحَسبي لِسَان (٦)
أدْعُو بهِ اللهَ وأُثنى بهِ عَلى الأَمِيرِ المُصعَبيِّ الهِجَان (٧)
قَدْ هِمتُ بالأوطَانِ وَجْداً بها وَبِالمَغانى أيْنَ مِنِّى المَغان (٨)

---

(١) بلغتها : بلغت إليها، يعنى سن الثمانين . وهو دعاء محبوب

(٢) الشطاط : اعتدال القد مع الطول والاستقامة . الصعدة : قناة الرمح المستوية الطول بلا تثقيف

(٣) الزماع : بادرة الفتوة والنشاط والمضاء فى الامر . الهدان : الأحمق الثقيل

(٤) يعنى أن طول السنين قاربت خطوه وثنت عنانه أى أخذت من حدته

(٥) العنانة : السحابة . يشير إلى أن بصره قد ضعف ونزل الماء بعينيه حتى أصبح لا يكاد يرى الأشياء إلا وكأنه ينظر من وراء سحابة

(٦) يعنى أن فصاحته وبيانه هما اللذان أبقاهما له الدهر دون سائر مزاياه ، وحسب من نادمه بهما من متعة

(٧) المصعبى : المنسوب الى مصعب . لأنه عبد الله بن طاهر بن الحسين ابن مصعب بن زريق . الهجان : الرجل الكريم الحسيب . ويروى (صنع الأمير المستثير الهجان)

(٨) المغانى : الديار . ويروى : وهمت بالأوطان وجدابها ، والغوانى أين منى الغوان)

فقرِّباني بأبي أنتُمَا مِنْ وَطَنِي قبلَ اصفِرَارِ البَنَان (١)
وقبلَ منعَاىَ إلى نِسْوَةٍ أوْطانُهَا حرّانَ والرَّقتَان (٢)
سَقَى قُصُورَ الشَّاذِيَاخِ الحيَا مِنْ بعْدِ عهْدِي وَقُصُورَ المَبَان (٣)
فكَمْ وكَمْ مِنْ دَعْوَةٍ لِي بهَا أَنْ تتخَطَّاهَا صُرُوفُ الزَّمَان (٤)

قلت : الاجماع على أنه لم يبرح البصرة منذ مرض ، ولهذا فانى أجد فى رواية أبى معاذ ضعفا . . !

٣

وفى خبر يموت بن المزرع أن المتوكل ، فى السنة التى قُتل فيها ، وجه إلى الجاحظ أن يُحمل إليه من البصرة ، وقد سأله الفتح بن خاقان ذلك ، فوجده لا فضل فيه ، فقال لمن أراد حمله : ما يصنع بامرىء ليس بطائل ، ذى شق مائل ، ولعاب سائل ، وفرج بائل ، وعقل زائل ، ولون حائل ؟

٤

قال يموت : ودخل إلى خالى أناسٌ من البصرة من أصدقائه فى العلة التى مات فيها ، فسألوه عن حاله فقال :

---

(١) قبل اصفرار البنان : يعنى قبل أن يدركنى الموت . لأن البنان لاتصفر إلا بالموت

(٢) قبل منعاى : قبل أن أنعى إليهم ويبلغهم خبر موتى . حران : مدينة عظيمة كانت حاضرة ديار مضر فتحت فى عهد عمر بن الخطاب على يد الفاتح العظيم عياض بن غنم . ومنها الحرانيون الصابئون الذى كان لهم شأن فى الطب والفلسفة والعلوم على عهد الدولة العباسية . الرقتان ، مثنى الرقة : وهى بلدة قريبة من حران . ولعلها كانت منازل عوف بن ملحم

(٣) قصور الشاذياخ : هى قصور كانت لعبد الله بن طاهر فى قرية الشاذياخ من أرباض نيسابور . الحيا : المطر . ولعل قصور المبان كانت أيضا لآل طاهر بن الحسين

(٤) صروف الزمان : مصائبه وجوائحه

عَلِيلٌ مِنْ مَكانينِ   مِنَ الأَسْقامِ وَالدَّيْنِ

ثم قال : أنا فى هذه العلة المتناقضة التى يُتخوف من بعضها التلف ، وأعظمها نيف وتسعون سنة — يعنى عمره . قال : وكان يُطلى نصفه الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته، والنصف الآخر لو قرض بالمقاريض ماشعر به من خدره و برده .

٥

وقال بعض البرامكة العمال : كنت تقلدت السند فأقمت بهاماشاء الله، ثم اتصل بى أنى صُرفت عنها ، وكنت قد كسبت بها ثلاثين ألف دينار، فخشيت أن يَفجأنى الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فيه ، فصنعته عشرة آلاف إهليلجة ، ولم يلبث الصارف أن أتى ، فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة ،فخبرت أن الجاحظ بها وأنه عليل بالفالج ، فأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه فأفضيت إلى باب دار لطيف فقرعته ، فخرجت إلىّ جارية صفراء فقالت : من أنت ؟ فقلت : رجل غريب وأحب أن أسر بالنظر إلى الشيخ . فبلغته الخادم ما قلت ، فسمعته يقول : قولى له : وما تصنع بشق مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل ؟ فقلت للجارية : لا بد من الوصول إليه ! فلما بلغته قال : هذا رجل قد اجتاز بالبصرة وسمع علتى فقال أحب أن أراه قبل موته فأقول قد رأيت الجاحظ . ثم أذن لى فدخلت وسلمت عليه ، فرد ردا جميلا وقال : مَن تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له . فقال : رحم الله تعالى أسلافك وآباءك السُّمحاء والأجواد ، فلقد كانت أزمانهم رياض الأزمنة ، ولقد انجبر بهم خلق كثير ، فسَقْياً لهم ورَعْياً . فدعوت له وقلت: أسألك أن تنشدنى شيئاً من شعرك؟ فأنشد نى:

لئن قُدِّمتْ قبلى رجالٌ فطالَما   مَشَيْتُ على رسلى فكُنتُ المُقدَّما
ولكنَّ هَذا الدَّهْرَ تأتي صرُوفُهُ   فتُبرِمُ منقُوضًا وتنقُضُ مُبرَما

ثم نهضت فلما قاربت الدِّهليز قال : يا فتى ، أرأيت مفلوجا ينفعه الإهليلج ؟ فقلت : لا ! قال :فإن الإهليلج الذى معك ينفعنى، فابعث إلىَّ منه . فقلت : نعم .! وخرجت متعجبا من وقوفه على خبرى مع كتمانى له ، و بعثت إليه مائة إهليلجة .

قلت : إذا صحت هذه الرواية فقد يظهر أن الجاحظ تسقط خبر الإهليلج من فلتات لسان البرمكى دون أن يشعر ، أو أنه يعلم أن العمال هكذا يصنعون فى أموالهم خوفا من المصادرات ، و إلا فالجاحظ من أبعد الناس عن ادعاء علم الغيب أو الشعوذة .

٦

وشكا يوما لطبيب علته فقال : قد اصطلحت الأضداد على جسدى، إن أكلت باردا أخذ برجلى ، و إن أكلت حارا أخذ برأسى !!

٧

وقال أبو العباس المبرد : عُدت الجاحظ فسمعته يقول : أنا من جانبى الأيسر مفلوج فلو قُرِض بالمقاريض ما علمت،ومن جانبى الأيمن مُنقَرِس(١) فلو مر بى الذباب لألمت ، و بى حصاة لا ينسرح لى البول معها ، وأشد ما على ستٌ وتسعون — يعنى عمره .

٨

وقال أبو طاهر : صرت إلى الجاحظ ومعى جماعة ، وقد أسن واعتل فى آخر عمره ، وهو فى منظرة له ، وعنده ابن خاقان جاره ، فقرعنا الباب فلم يفتح لنا وأشرف من المنظرة وقال : ألا إنى قد حَوْقَلْتُ وَحَمَاتُ رُمَيْحَ

(١) منقرس : مصاب بالنقرس، وهو داء المفاصل، ويسمى بالعربية:الرثية

أبى سعد ، وسقت الغنم (١) فما تصنعون بى ؟!! سلموا سلام الوداع ؟ فسلمنا وانصرفنا .

وما زال فى علته هذه إلى أن وقعت عليه مجلدات العلم فقضت عليه. رحمه الله. وذلك فى نهاية سنة ٢٥٥ هـ و ٨٦٨ م

ولما مات وصل نعيه إلى قصر الخلافة فى بغداد فأسف الخليفة المعتز بالله (٢) عليه أشد الأسف ،وقال ليزيد بن محمد المهلبى (٣) : يا يزيد ، ورد الخبر بموت الجاحظ ؟ ؟ ! فقال: لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام النعماء . .!!

ورثاه أبو شراعة القيسى (٤) بقوله :

---

(١) حوقلت: استمددت القوة من الله تعالى وأكثرت من قول لا حول ولا قوة إلا بالله . لتتابع المرض . رميح أبى سعد: هو رجل من العرب أسن وحنت ظهره السنون فكان يستعين بالعصا . فقيل لكل من شاخ : أخذ رميح أبى سعد . سقت الغنم : كناية عن الانحناء هرما ، لأن سائق الغنم يكثر من طأطأة رأسه وتقويس ظهره

(٢) هو أبو عبد الله المعتز بن المتوكل على الله الخليفة العباسى ولد سنة ٢٣١ وتولى الخلافة سنة ٢٥٢ وخلعه الأتراك سنة ٢٥٥ هـ ومات فى هذه السنة . وله أحداث وغير مع أخيه المستعين وغيره

(٣) هو أبو خالد يزيد بن محمد المهلبى : كان أديبا شاعرا متفننا . وكان من أحاسن ندماء الملوك والخلفاء . . نادم المنتصر وهو ولى عهد . ثم نادم المتوكل ومن بعده إلى المعتز. وكان ذا حظوة لديهم وإيثار . وقعت بينه وبين عبد الصمد بن المعذل مشاذة ومهاجاة .وكان حسن السمر حلو الحديث صاحب أخبار غزير الرواية بارع النادرة . وكان له مجلس يسر من رأى يحضره أفاضل الادباء واكابر الشعراء.

(٤) هو أبو شراعة أحمد بن محمد بن شراعة القيسى البكرى البصرى. شاعر من شعراء الدولة العباسية جيد الشعر جزله. وكان على تبديه فى طبعه ولفظه

فى الْعِلْمِ لِلْعُلَمَاءِ إِنْ يتفَهَّمُوهُ مَوَاعِظُ
وإذا نَسِيتَ وَقَدْ جَمَعْتَ علاَ عليْكَ الْحَافِظُ
وَلَقَدْ رَأَيْتُ الظَّرْفَ دَهْراً مَا حوَاهُ اللاَّفِظُ
حَتَّى أقَامَ طَرِيقَهُ عمْرُو بْنُ بَحْرٍ الجاحِظُ
ثُمَّ انْقَضَى أمَدٌ بِهِ وهُوَ الرَّئِيسُ الفائظُ (١)

فصيحاً بليغا صاحب رسائل وخطب، وكانت به لوثه وهوج مع سخاء وكرم. وكان يجود بما ملكت يده وما وسعته قدرته حتى ما كان يليق شيئا. وكان صديقا لابراهيم بن المدبر لا يكاد يفارقه فى سائر أحواله ولا يمنعه حاجة يسأله إياها. ولا يشفع لأحد فى شىء الا شفعه. وله معه ومع غيره من الكتاب والولاة أخبار وأحاديث ونوادر حسان. مات فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة

(١) الفائظ : المائت. يقال : فاظ فلان، أى مات

الفصل الخامس والعشرون

فى

خصائص الجاحظ ومميزاته

١

كان الكُتَّابُ ، إلى ماقبل ظهور الجاحظ ، يتمايزون متقاربين ، فى ضروب من العلوم ، وصنوف من الآداب ، وألوان من المعارف ؛ فكان كل واحد منهم يصرف همته ووَكْدَهُ ، ويبذُل قوته وجُهدَه ، فى الاختصاص بالضرب الواحد أو الضربين من أنواع العلوم ، أو يقف نفسه على الصنف أو الصنفين من طرائق الآداب ، أو يتجه نحو الشُّعبة وما يماثلها من ألوان المعارف. كأن يعد نفسه لأن يكون كاتبا فى ديوان الخراج ، أو مترسلا فى ديوان الإنشاء ، أو يقوم بحجابة بعض الأمراء ، أو يكون فى أسباب أحد الوزراء. على أن يمازج هذه المؤهلات التى أعد نفسه بها، شىء مما يدور حول عمله أو يتصل به من المعارف العامة . وكان إذا سمت همة أحدهم به إلى التطلع إلى شىء من العلوم والتوسع فى بعض الفهوم ، مما يكون كالشِّيَةِ والحلية إلى جانب صناعته التى اتسم بها ، فلا يكاد يعدو فى ذلك حد الشَّدْوِ، وتناول الأطراف ، دون التعمق والتحقق والنفوذ . اللهم إلا القليل منهم ممن كانوا يتسامون إلى الوزارة ، ويتطلعون إلى الصدارة ، أو مَن يرون الزيادة فى العرفان زيادة فى القدر والجاه ، وفى استتمام آلة التجمل والتثقف سببا إلى الكمال . وكانت المادة التى يكوِّنون بها معارفهم ، ويَرُبُّون بها معلوماتهم ، لاتكاد تخرج عن حد الحفظ لكتاب الله الكريم ، وما ثبت لديهم من أحاديث الرسول ، صلوات الله عليه ، واستظهار الجيد من كلام الخلفاء الراشدين

وخطبهم الجامعة ، ولا سيما خطب الإمام على ورسائله البليغة وكلماته البارعة . مضافا إلى ذلك القطعة الصالحة من الشعر الجاهلى ، وكلام الأعراب فى بواديهم ، والإلمام بفطنهم ومقاولاتهم فى نواديهم . بعد أن يكونوا أحكموا أبواب النحو والصرف ، وعرفوا أساليب اللغة واشتقاق ألفاظها وإجادة التعبير بها . أما إذا أضاف أحدهم إلى ذلك كله شيئاً من العلوم والآداب التى استُحْدِثَتْ فى المعارف العربية : كالمنطق والفلسفة، ووقف على حركات الفلك وأصول الهندسة ، وعلم من الطب ووظائف الأعضاء كفايته ، وشدا من الموسيقى وضوابط النغم غايته ، عُدغُرة شادخة فى جبين أهل الصناعة، وصار إماماً يُرجع إليه فى عظائم الأمور ، ويُعتمد عليه فى تصريف جلائل الشؤون . أما الحساب والجبر وما إليهما فكان لابد منهما لكاتب الخراج وعامل الصدقات ، وصاحب ديوان الضياع والنفقات ، وللقائم على المظالم والمؤامرات

٢

فلما ظهر الجاحظ واستحكمت له مواهبه ، لم تقف به همته عند إحدى تلك الغايات التى بلغ إليها أكابر الكتاب ممن تقدمه أو عاصره . فلم يشأ أن يتخصص كما تخصصوا ، ولم يُرد أن يتميز بالأنواع التى بها تميزوا ، بل حمل نفسه على أن يبزهم جميعا ، وأن يجعلهم يشتدون وراء خطوه إذ يمشى على مهل . فشاء أن يكون صدره دائرة معارف تحيط بأكثر ما عرف من علوم الانسانية وآدابها حتى عهده . وأنت إذا رَدَّدْتَ نظرك فى ثَبَتِ ما خلَّف من مصنفات ؛ أخذك الدَّهَشُ ، وتملكك العجب؟! لأنك تراه لم يكد يترك علما معروفا فى زمنه لم يضع فيه مؤلفا . ولم يدع فنا لم يكتب فيه مصنفا ، وقد يكون هذا المصنف أو ذاك المؤلف ، رسالة موجزة ، وقد يكون سفرا متعدد المصاحف والأجزاء . على أنك إذا قرأت له كتابا، أو تصفحت له رسالة . فيما أجرى فيه قلمه من شُعب العرفان، حسبت أنه الواضع لهذا العلم أو ذاك

الفن الذى تردد نظرك فيه ، وخرجت منه مملوء النفس قوى اليقين بأنه قد لايحسن سواه . وقد يلمزه بعضهم بأنه كان كثير الاستطرادات ، كبير التهافت على الاستشهادات ، يحشد بها كتبه ، ويفخم بها أسفاره ، ولولا هذا لكانت أقل مما هى عليه . ! وليس الحال كذلك ، ولا الأمر على ماذهب إليه ذلك اللامز ، ولكن هذا الحال، إن دل على شىء ، فإنما يدل على سعة اطلاع الجاحظ ، وعلى تبحره فى معارفه، وعلى حفول صدره بشتى المسائل والمعلومات على أن هذا النوع من مؤلفاته الكبار إنما وضعه ليكون مدرسة للطالبين ، ومَعْلَمَةً للدارسين . وهل كان العالم الاسلامى، بسائر أقطاره ونواحيه، إلا جامعة يُلقى فيها الجاحظ دروسه وثقافاته على طلابها بواسطة مؤلفاته !! ولهذا ما كان يَطْلُعُ له كتابٌ ، على أى بلد فى أى صقع ، إلا بادر العلماء إلى نَسخه ومُناقلته ، وعقد المجالس لتفهمه ومدارسته. وإلا تقدم الملوك والأمراء إلى تزيين محافلهم بالنظر فيه ، وترديد عباراته ومعانيه ، وتجميل خزائنهم بحفظه والتحفى به . ولقد حاول كثير من العلماء وأهل الأدب تلخيص بعض كتب الجاحظ وتجريدها مما بها من الاستطرادات، ومما حوت من الاستشهادات ، فكانت تذهب منها تلك الروح التى يحسها القارىء متلألئة من تحت كل كلمة، وفى خلال كل فقرة ، وكانت تتلاشى تلك اللطيفة الجاحظية الساحرة التى يستشعرها الناظر المتصفح متجلية متوثبة فى اطراد المعانى وتسلسل الأفكار. فمنهم من كان يعدل عن التلخيص غيرة على هذه اللطيفة ، واستبقاء لتلك الروح . ومنهم من كان يمضى فى تلخيصه ، فيخرج وإذا بالملخَّص فى يده جثة هامدة.

٣

وهل وقفت عبقرية الجاحظ عند حد إتقان المعارف العامة والثقافات الشائعة على تنوعها حتى عهده ؟ كلا، فما كانت همته تعرف شيئا من الحدود فى العرفان؟! من أجل هذا عرَضَ لكثير من المسائل التى لم يفكر فيها أحد

غيره ، وفتح للناس أبواباً كثيرة فى أمور شتى لم يكن من تقدمه من العلماء والكتاب وأهل الأدب يحسبونها مما يدخل فى صنوف الآداب . فكان من بين كتاب العربية أول من بحث فى طبائع الأشياء كالحيوان والنبات والمعادن ، وأقام أركان بحثه واستقرائه على المشاهدة والتجربة والاختبار . ورحل فى سبيل تحقيقه العلمى والطبيعى إلى كثير من الأقاليم والأقطار . وهذه الطريقة هى مفخرة علماء أوربا وأمريكا وانجلترا فى هذا العصر . وهو أول من كتب رسالة مِلؤها السخرية والاستخفاف ، وحشوها الجد الممزوج بالهزل ، وسداها الافتنان فى الأسئلة المبهتة ، ولحمتها التعجيز فى المحن المسكتة ، كرسالته إلى صديقه أحمد بن عبد الوهاب الثقفى التى دعاها « التربيع والتدوير » فهى بكر فى شأنها ، فريدة فى بابها . وقد حذا الكتاب من بعده حذوه فيها ، وترسموا خطاه فى أغراضها ومعانيها : فوضع أبو بكر الخوارزمىّ الكاتب رسالته إلى أبى الحسن البديهى ، ووضع أبو الحسين أحمد بن فارس على ضوئها أصول فن المقامات ، وعنه أخذه أبو الفضل بديع الزمان الهمذانىّ ، ثم توسع فيه أبو القاسم الحريرى وذهب فيه كل مذهب ، كما أنشأ ابن زَيدون بعض رسائله على هذا النهج . ودرج الكتاب من بعدهم فى هذا الباب .

٤

وهو أول من شَفّ له الحجاب فرأى فى مخالقات العامة وعاداتهم ، وفى تقاليدهم ومعاملاتهم ، وفى أحاديثهم وأسمارهم ، فنا يستروح الخاصة به ، ويرى العِلْيَةُ فيه جِماما من كدهم فى جدهم ، كما رأى فيما تصالحوا عليه من التعبير عن خوالج نفوسهم ، وما تنبض به قلوبهم من الأمانى والآمال ، ما يصح تقييده والتفكه به ، والاعتبار بوجوه العبرة فيه ، والاستفادة مما

قد يفيد من نواحيه . وهو أول من استباح لنفسه التندر بالأصدقاء والإخوان ، تارة بالتلميح وذكر الصفات ، وأخرى بالتصريح وإبانة السمات . فقيد عليهم أنفاسهم ، وخلد غرائب أطوارهم وعجائب تصرفاتهم ، وشواذ أغراضهم ، وعرض لأخذهم بأغلاطهم وفلتات ألسنتهم ومساوى أعمالهم . وقد يجابه من شاء منهم بالنقد واللذع والتجريح ، غير عابىء بعتبهم ، ولا معتد بلائمتهم . وماذا كان يبلغ منه هذا العتب ، أو يصيبه من هذا اللوم ؟ إن ما أوتيه من قوة الحجة ، وما اختص به من براعة البيان وعزة البرهان وشدة اللسن كفيل برد عادية العادى وسطوة المتهجم . وهو أول من وضع كتابا فى فكرة من الفكر أو فى رأى من الآراء ثم نقضه بكتاب آخر . توسعاً منه فى البلاغة ، وتفننا فى البراعة . أو رجوعا إلى مظنة الحقيقة التى قد يكون استبهم عليه سبيلها فى أول الأمر ، وإيثاراً للصواب . ولم يكن هذا النوع من المؤلفات التى يراجع نفسه فيها ، يعدو صنف الآراء والنحل والأهواء . وهو أول من ألف فى الأمور المتناقضة ، وأقام سوق الجدل بين الأشياء والحالات المتعارضة ، وابتدع من المعانى مالا يُظن أن يَحتمل إلا المعنى الواحد ، فقد قالوا إنه صنع رسالة فى «مفاخرة المسك والرَّماد» وأنت تسائل نفسك : ماذا عسى أن يكون فى الرماد من معانى الافتخار ، حتى يدل بها على المسك ، وينافره ببيناتها وشواهدها ؟ ! وهو أول من وضع الكتب والرسائل فى المعانى والأغراض الغريبة عن متناول أفكار الكتاب . كقوله فى طبائع « البخلاء » وفى « حيل اللصوص » وفى أحوال « المُكَدِّيْنَ » وفى أصحاب العاهات الْخَلْقية : كالحُول والعُور ، والعُرجان ، والبُرصان ، وكذلك فى ذوى العاهات الخُلُقِية : كالسكيرين ، والزناة ، والطفيليين ، والقحاب ، وفتيان السوء .

٥

وقد عَزُبَ الرأى عن بعضهم حينما اطلع للجاحظ على بعض هذه الكتب فغمزه فى دينه، ورماه فى اعتقاده ويقينه، وظنه رجلا متساهلا فى حقوق الله قِبَلَه، متسامحاً فى أوامر ربه ونواهيه، وربما أجراه بعض خصومه مُجرى الزنادقة وأهل الإلحاد، حتى تقولوا عليه أقاويل فيما لم يخطر له ببال ولا ورد منه فى خاطر. وكيف يصدق فيه قول هؤلاء الخصوم الذين لا يريدون وجه الله فى خصومتهم، وهو أول من وضع كتابا أقام فيه الحجة التى لا تدفع، والبرهان الذي لا يرد، على أن نظم القرآن معجز؟! حتى صار هو بوضعه هذا الكتاب إماما فى أمر الدين وفى صحة العقيدة، وحتى قال بعض الأفاضل: إن الدليل على إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به ... !! والحق الذى لا امراء فيه هو أن الجاحظ كان قوى الايمان، ولكن إيمان الراسخين فى العلم، الثابتين فى الفهم. وكان شديد الاعتقاد، ولكن اعتقاد الخاصة من العارفين. فما كان يرى فى السلف مايراه غيره من التقديس، ولا يعتقد فيهم ما يعتقده العامة وأشباه العامة من العصمة والتنزيه. فليس عنده، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، من الصحابة والتابعين ومن تلاهم، مَن تجب له العصمة من الخطأ والزلل، أو مَن بَعُدَ به طبعه عن مواطن الخطل، وما هم، فى الحق والواقع، إلا من أبناء آدم، ركب فى طبائعهم ما ركب فى طبائع أبناء هذا الشيخ كافة، من المطامع والشهوات. فجائز عليهم كل مايجوز على الناس جميعا من نوازع الشر، وفواعل الخير، ودوافع الفضل، وعوامل النقص. وكل ماتعتلج به النفس البشرية من مطالب هذه الحياة.

٦

ومن أخص مميزات الجاحظ وأقوى سماته، تلك الشخصية التى تراها

بارزة فى كل ما أجرى به قلمه ونضحت به قريحته . فاذا تناولت له أى كتاب أو أية رسالة ، وأخذت فى القراءة والمذاكرة والتصفح ، لا تلبث أن ترى هذه الشخصية القوية مطلة عليك من خلال السطور ، ومن بين حروف الكلمات . فلا تزال معها فى سمر مطرب ، وحديث معجب ، حتى تضع الكتاب من يدك . ومن مزاياه فى أسلوبه الذى تفرد به ، ذلك الطابع الخاص الذى استأثر بكل كلمة من كلماته ، وشاع فى كل جملة من جمله وعباراته ، وذلك أنه يبسط لك العبارة ويرقق من حواشيها حتى لتظن أنه قد أسف بها ، وأنه هبط عن مستوى البلغاء فى تحبيرها ، فاذا تأملتها فضل تأمل ، ثم حاولت احتذاءه فيها ، رأيته منك فى ذؤابة الثريا وفى مناط العَيُّوق . وهذه ميزة قد اختص بها من بين جميع الكتاب ، حتى إنه صار بها رأس مذهب فى الأدب ، كما هو رأس مذهب فى العقائد . فيقال فى الأساليب العربية ، إذا كانت قد بلغت أعلى طبقات البلاغة ، وأسمى منازل البيان ، وكانت واضحة المعانى ، سهلة الألفاظ ، نقية الكلمات : هذه عبارة جاحظية . ويقال فى الرسالة جمعت حُر الكلام إلى التبسط فى المعانى ، وكانت كثيرة الافتنان ، آخذة فيها الموضوعات بعضها بذوائب بعض ، يتنقل فيها القارىء من فن إلى فن ، ومن لون إلى لون ، ومن معنى مولد إلى معنى مبتكر : هذا أدب جاحظى . وله فى هذا المذهب أنصار وأتباع ، وتلاميذ وأشياع ، ظهر منهم رجال كانوا فى أعصارهم أئمة البلاغة وزعماء الفصاحة ، وفحول البيان . وكان منهم الأمراء والوزراء ، والسادة والكبراء ، والساسة والرؤساء . وما من كاتب منذ عهد الجاحظ إلى الآن إلا وللجاحظ فى عنقه مِنةٌ معقودةٌ ، أو يد مبسوطةٌ ، أو نعمة سابغة . ولقد صدق القاضى الفاضل فى قوله : « مامنا معاشر الكتاب إلا مَن دخل مِن كتب الجاحظ الحاره ، وشن عليها الغاره ، وخرج وعلى كتفه منها كاره »

٧

أما خصائصه النفسية ووجهات نظره فى الحياة ، فقد كان على ما ظهر منه ميالا بطبعه إلى التحلل من القيود التى تقف بأمثاله ونظرائه من معاصريه عند مقتضيات التقاليد وموجبات العادات . فهو لم يشأ اتخاذ زوجة تشاركه بأساء الحياة وضراءها ، بل انصرف إلى اتخاذ الجوارى والفتيات يتسرى منهن بما تطيب بها نفسه ، ويصبو إليها حسه ، يمسكها ما استقام أمرها معه ثم هو فى حل من أن يتركها فى خدمته وقضاء إربته ، أو إذا شاء دفع بها إلى السوق وجاء بغيرها والسوق بهن زاخرة ، والأموال لديه حاضرة . وقد كان عقيما ، فلم يعرف أنه ولد له ولد ، أو أعقب ذرية مدى حياته الطويلة .

ولست على رأى القائلين بأن العباقرة من أصحاب الدعوات العامة أو الخاصة وزعماء الأمم وعظماء الناس من القادة والرؤساء ، والفلاسفة والحكماء ، وأكابر أهل الأدب وفحول العلماء — ممن صرفوا جهودهم الجبارة وتفوقوا على من عداهم فى القيام على ما اختصوا به ووقفوا قواهم ومواهبهم عليه من جلائل الأعمال وعظائم الأمور فى الحياة العاملة أو المفكرة — قلما ولدوا الأولاد أو أعقبوا الذرية . وإن جاء أحد من هؤلاء بأولاد أو أعقب له أخلافاً فقلما جاءوا صالحين للحياة .

ويذهب أصحاب هذا الرأى فى تأييد رأيهم إلى ضرب الأمثال والاستشهاد بأسماء بعض هؤلاء العظماء ، حتى ليكادون يجعلون العُقم طباعاً فى هذا النوع الممتاز من الناس . ولكنى أحسب أن العقم لم تختص به طائفة من الناس دون غيرها ، رَقَتْ هذه الطائفة أو دنت ، سمت على سائر الطوائف الانسانية أو حبت معها فى مدارج الحياة . ولا هو طبيعة فى طبقة منهم عارض فى سواها . وما هو إلا أمر شائع فيهم على السواء . وأنت إذا لمسته فى العلية

والحامة ، وجدته ظاهر الأثر فى السفلة والعامه ، مقيساً بنسبه ومقاديره . والأصل فى الإنسان أن يكون ولوداً ، ما استوى خلقه وحسن تقويمه وتم تركيبه . وما العُقم إلا عارض يحدثه النقص فى تركيب بعض الأعضاء وعدم انتظامها فى تأدية وظائفها .

وقد يكون هذا النقص حاصلا فى الخلق والتكوين . وقد يأتى حادثاً لسبب من الأسباب الظاهرة أو الباطنة . والناس فى هذا سواسية لا يمتاز منهم فيه عظيم على حقير ، ولا يختص به كبير دون صغير . والقائلون باختصاص العباقرة به من بين الناس كافة ، حينما رأو العقم ظاهراً فيهم ، ظنوه وقفا عليهم وحسبوه من دلائل بطولتهم ، ومن علامات نبوغهم ، ومن آيات ظهور العبقرية فى مواهبهم ، مع أنه لا صلة هناك بين العُقم و بين السمو فى معارج الكمال البشرى . وما الأمر فى واقعه إلا أن العظماء من ذوى المواهب والأخطار فى كل أمة وفى كل جيل ما هم إلا أفراد ظاهرون ، وشرذمة قليلون .

وما مثل العظماء فى أممهم وأجيالهم إلا كالمنارة فى وسط المحيط الخِضَمِّ تترامى أشعتها اللامعة إلى الآماد فتجذب إليها أنظار السفار من كل صوب لتكون لهم أماناً من غوائل الأقدار ، وما تكاد تقع العيون على أضوائها أو تطلع هى على الحائرين بلألائها حتى تشيع منها فى النفوس شائعة الطمأنينة والأمن والسلام ، ولا تلبث أخيلة التفكير أن تتجه نحو عدخيوط النور المسترسلة من ذؤابتها بمختلف الألوان الآخذة بمعاقد الأبصار . فاذا افتقدوها فى ليلة دامسة ، وقد أصابها شىء من العطب الذى لا يَسْلَم عليه شىء فى الوجود ، دفعهم مافى صدورهم لها من إعجاب و إجلال ، إلى التظنى بأن هذا الضرب من المعاطب قلما أصاب إلا نوع المنار ، وأنه من علائم ما فيها من رفعة وهداية وازدهار . ومع هذا فماذا يكون قدر هذه المشكاة إذا هى قيست بما يكتنفها من

أمواج كالجبال ، وأثباج كالهضاب ؟ ! لاشك أنها فى جانب ذلك كله لاتكاد تعد شيئاً مذكوراً . على هذا ترى العظيم فى أمته وكل حالة من حالاته الطبيعية أو العارضة تعلن عن نفسها حتى لتوهم بعض ذوى التفكير أنها خاصة به و بكل عظيم مثله ، وانها علامة عظمتهم وامتيازهم على الناس ، وذلك بخلاف ما إذا بدت تلك الحالات فى عوام الناس وأغمارهم ، فهى على كثرتها فيهم وارتفاع نسبتها بينهم ، لا يكاد يُعْنَى بها ، ولا يعمل حساب لشأنها ، ولا يلتفت إلى ما تحدث فيهم من آثار .

من أجل ذلك لا أرى مانعاً من القول بأن الجاحظ لم يلد لنقص كان به كما يعرو هذا النقص العُقَماءَ من الناس كافة ، وذلك بالرغم مما كان معروفا به من قوة البِنية وتماسك الخلق وشدة المُنَّة ، حتى ان الفالج حينما وقع به لم يحل بينه و بين التفكير والكتابة والتأليف . . ! ! على أننى لم أقف له على رأى فى علة إعراضه عن التزوج واكتفائه بالتسرى . وهل كان يوجب الزواج أو كان يذهب إلى الامتناع عنه ! غير أن حالته التى درج عليها طوال أيام حياته تُبِينُ عن أنه كان يؤثر التسرى و يرى فيه متعة ، كما يُخال أنه كان يرى فى الزواج ربقة .

٨

وكان الجاحظ يرى الاستمتاع بملاذ الحياة وأطايبها ، و يطمع فى أن ينال منها ما يمكن أن تصبو إليه أوسع النفوس البشرية أملا وغاية ، على أن يكون ذلك فى حدود التعقل والاتزان ، مع التحفظ والتستر والابتعاد عن مواطن الشبه ، حتى لا تُهمز المروءة ولا تُغمز الكرامة . ولهذا لم يَرِد ولم يُرو أن أحداً من خصومه استطاع أن ينال من سمعته أو يطعن فيه بما يحط من قدره

وكرامته . وقد كان خصومه من قوة اللَّسَن وشدة اللَّدَد واضطغان الحفيظة على أقوى جانب وأعظم منعة . فما قيل عنه أنه قارف إثما أو ارتكب جرما أو اجترح ذنبا . ولقد كان يعجب بأبى نواس (١) ويرى فيه قدوة فى تناول متع العيش ، وفى مباشرة أسباب العبث والمجون ، إلا أنه كان يأخذ فى أسمحها ، ويترك له أسمجها ، ويتقلب من أفضلها فى أعطاف النعم .

والحق أن عصر الجاحظ كان عصر الاستمتاع بكل ماتعتلج به النفس الانسانية من أمانى وآمال ، ومن خير وشر ، ومن نقص وفضل ، ومن علم وجهل ، ومن استقامة واستهتار ، ومن نسك وفتك ، ومن تقية واسترسال ،

---

(١) من أطرف ما يروى أن الجاحظ كان يقول : لا أعرف شعراً يفضل قول أبى نواس :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ... بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان جنى ويابس
حبست بها صحبى فجددت عهدهم ... وإنى على أمثال تلك لحابس
ولم أدر من هم غير ماشهدت به ... بشرقى ساباط الديار البسابس
أقمنا بها يوما ويوما وثالثا ... ويوما له يوم الترحل خامس
تدار علينا الراح فى عسجدية ... حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها ... مهى تدريها بالقسى الفوارس
فللخمر مازرت عليه جيوبها ... وللماء مادارت عليه القلانس

قال الجاحظ : فأنشدتها أبا شعيب القلال فقال : يا أبا عثمان ، لو نقر هذا الشعر لطن . قلت : ويلك ما تفارق الجوار والخزف حيث كنت ! !

قال الجاحظ : وقد أخذ أبو نواس قوله :

ولم أدر من هم غير ماشهدت به ... بشرقى ساباط الديار البسابس

من أبى خراش الهذلى :

ولم أدر من ألقى عليه قميصه ... سوى أنه قد سل عن ماجد محض

ومن إيمان و إلحاد ، ومن خطل وسداد . فكانت بغداد فى ذلك الدهر ، أشبه بلندن و باريس ونيو يورك و برلين وروما مجتمعين فى هذا العصر ، فيها نزعات العقول ، ومراح الأرواح ، ومراد العيون ، وشهوات النفوس ، وخلجات القلوب . غير أن الجاحظ كان يتناول شهوات نفسه ، ونزعات عقله ، ولذائذ قلبه ، فى تعقل وتلطف واتزان .

٩

وكانت بالجاحظ أنانية ، فكان يرى نفسه حقيقا بأن يستأثر بكل ما فى الحياة من مُتع وجاه عريض ، ولا يرى غيره أحق بشىء منها ، فما لجأ إليه ذو حاجة إلا جعل لسانه حائلا دون قضائها ، ولا استعان به مستعين إلا كوى قلبه بجمر الخذلان . حتى لقد هُجى من خاصة أصدقائه على هذه الحالة شر هجاء . ولا أدرى كيف كان كذلك وهو الذى ملأ كتبه بذكر الأجواد والسمحاء ؟ وهلا كانت له قدوة حسنة بأحمد بن أبى داود ومكارمه التى غمرت كل رائح وغاد ؟ والتى روى هو منها ما يجعله فوق أنداده ممن حضر و باد ؟! الظاهر أن تتبعه حركات البخلاء واستطلاعه طبائعهم ، واستقصاءه أعمالهم وأقوالهم قد أثر فيه ذلك الأثر . والنفوس بفطرتها نزاعة إلى النقائص ، سريعة إلى اكتساب الرذائل .

١٠

وكان على ما يظهر ميالا إلى المصانعة والمداراة ، فكان يرى إرضاء العامة وأشباه العامة بما لا كلفة عليه فيه ؟ وإلا فما هذه الأحاديث التى ملأ بها كتبه ، والتى لا يمكن أن يظن ظان أن مثل عقل الجاحظ فى قوة تركيبه وصحة تكوينه يتقبلها على أنها سليمة من الشوائب بعيدة من الأكدار ؟ أنا لا أرى لذلك

من تعليل إلا إنه ربما كان يرمى بروايتها وحشد كتبه بها إلى مصانعة العامة وترضيتهم عنه . لعله كان يقصد بروايتها الى جانب أبحاثه الفائقة فى العلوم والمذاهب والآداب ، أن تكون وسيلة الى جذب النفوس الى هذه الأبحاث والاستفادة منها فى ظلها وتحت كنفها . وكلا الرأيين جائز ومقبول حتى يقوم الدليل على صحة أحدهما ونفى الآخر .

هذا ما ارتأينا من خصائص الجاحظ ، وهى بلا شك شذور من مزاياه . أما الالمام بما له من صفات ، أو استيعاب ماله من مناقب وسمات، فأمر فوق متناول الأيدى والأقلام .

وقفـــة

يقول حسن بن أحمد بن محمد السندوبى، بعد حمد الله على توفيقه وشكره على عنايته التى شملنا بها منذ قدر لنا الوجود فى هذه الدنيا : الى هنا أمسك من عنان القلم الذى جرى بنا فى هذا المشوار ، من التحدث فى أدب الجاحظ ، والى هنا نقف به بعد أن جرينا به فى هذا المضمار ، من الكلام فى شؤون الجاحظ . وقد كنا وعدنا فى مقدمة الكتاب أن نثبت فى نهايته فصلا قائما برأسه يحوى ما وقع اختيارنا عليه من رسائله ومقالاته وآرائه ومروياته . وإن نذيله بما عثرنا عليه من آثاره التى لم يسبق لها عهد بالنشر والذيوع بالطبع . غير أننى رأيت أن أفرد هذا كله فى سفر خاص باسم .

رسائل الجاحظ

أجعله ملحقا بهذا الكتاب ومتمماله . لأنى رأيت أن فصلا واحدا يفرد له فى هذا الكتاب لا يكفى لاستيعاب ذلك كله . والله الموفق إلى الصواب

حسن السندوبى

القاهرة فى { ١ ربيع الثانى سنة ١٣٥٠
أول سبتمبر سنة ١٩٣١ }

المصادر والمراجع

كتاب الحيوان	الجاحظ	طبع مصر
كتاب البيان والتبيين	« بشرحنا عليه	« « سنة ١٩٢٦ـ١٩٢٧
كتاب البخلاء	«	« «
مجموعة رسائل	«	« «
ثلاث رسائل	«	« «
تأويل مختلف الحديث	ابن قتيبة	« «
مروج الذهب	المسعودى	« «
الاغانى	أبو الفرج الاصبهانى	« «
الأمالى	أبو على القالى	« «
الامالى	السيد المرتضى	« «
الامالى	الزجاجى	« «
إعجاز القران	الباقلانى	« «
الملل والنحل	الشهرستانى	« «
الفرق بين الفرق	البغدادى	« «
الانساب	السمعانى	« لندن
الانتصار	الخياط	« مصر
سرح العيون	ابن نباتة المصرى	« «
معجم الادباء	ياقوت	« «
وفيات الاعيان	ابن خلكان	« «
فوات الوفيات	الصلاح بن شاكر الكتبى	« «
شرح لامية العجم	الصلاح الصفدى	« «
طبقات الاطباء	ابن أبى أصيبعة	« «
زهر الآداب	الحصرى	« «
أخبار الحكماء	القفطى	« «

بغية الوعاه	السيوطى	طبع مصر
حسن المحاضرة	»	» »
دائرة المعارف البريطانيـة جزء ١٥ نمرة ١٢٦ الطبعة ١١		سنة ١٩١١
معاهد التنصيص	عبد الرحيم العباسى	طبع مصر
المعارف	ابن قتيبة	» »
طبقات الشعراء	ابن سلام	» »
النوادر	أبو زيد	» بيروت
تاريخ بغداد	الخطيب البغدادى	» مصر
الموشح	المرزبانى	» »
الفهرست	ابن النديم	» أوروبا
طبقات اللغويين والنحاه	أبو بكر محمد الحسن الزبيدى	نسخة فتوغرافية بدار الكتب
الفخرى	ابن طباطبا	» مصر
تاريخ مختصر الدول	ابن العبرى	» بيروت
المختصر فى أخبار البشر	أبو الفدا	» مصر
الفصل فى الملل والاهواء والنحل	ابن حزم	» »
تاريخ سنى ملوك الارض	حمزه بن الحسن الاصبهانى	» برلين
المستطرف	شهاب الدين احمد الابشيهى	» مصر
طبقات الشافعية	ابن السبكى	» »
خبيئة الاكوان	محمد صديق حسن خان بهادر	» الاستانة
سوسنة سليمان	نوفل نعمة الله نوفل	» بيروت
البده والتاريخ	منسوب لابى زيد البلخى أو لمطهر بن طاهر المقدس	» باريس
شرح نهج البلاغة	ابن أبى الحديد	» مصر
كتاب الوزراء والكتاب	لابى عبد الله الجهشيارى	» فينا سنة ١٩٢٦
الروض الأنف	السهيلى	» مصر
الألفاظ الفارسية المعربة	أدى شير	» بيروت

شفاء الغليل	الشهاب الخفاجى	طبع مصر
التاج	منسوب للجاحظ.	« «
المحاسن والأضداد	« « «	« «
رغبة الآمل من كتاب الكامل	السيد بن على المرصفى	« مصر
كتاب الخراج	لابى يوسف القاضى	« «
تيسير الوصول	ابن الديبع الشيبانى	« «
المواعظ والاعتبار	تقى الدين المقريزى	« «
معجم البلدان	ياقوت	« «
مجلة المقتبس	كرد على	« دمشق
نزهة الالبا. فى طبقات الادبا	ابن الانبارى	« مصر
شرح المفضليات	للمؤلف حسن السندبى	« «
الجواهر المضية في طبقات الحنفية	أبو الوفاء القرشى المصرى	طبع الهند
مقاتل الطالبين	لابى الفرج الاصبهانى	« طهران
فتوح البلدان	للبلاذرى	« مصر
الفصول المختارة	لعبيد الله بن حسان	« «
الحنين إلى الأوطان .	منسوب للجاحظ.	طبع مصر
سلوة الحريف	« «	« الأستانة
ألاصابة	لابن حجر	« مصر
الأحكام السلطانية	للماوردى	« «
تاريخ الأمم الاسلامية	الخضرى	« «
خزانة الأدب	البغدادى	« «

وهذا بخلاف مطالعات شتى فى دواوين التاريخ وأسفار الأخبار وكتب الادب ذهب عن الذاكرة عدها وإحصاؤها

فهارس

كتاب أدب الجاحظ

صنعها المؤلف

الفهرس الأول

فى أعلام الرجال والنساء

الفهرس الثانى

فى أسماء الكتب والأسفار

الفهرس الثالث

فى الشعوب والاجناس والدول والفرق والأشياء

الفهرس الرابع

فى البلدان والأماكن والبقاع

الفهرس الخامس

فى التراجم والتعليقات والحواشى

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الفهرس السادس

فى فصول الكتاب ومواده

صفحة

تصحيح

ص	س	خطأ	صواب
١١	٦	الجاحط	الجاحظ
١١	١٩	يموت بن الزرع	يموت بن المزرع
١٣	٦	فالولى	فالمولى
١٧	٢٢	النطام	النظام
٢٣	١٧	(يعنى مذهب الاعتزالا)	(يعنى مذهب الاعتزال)
٢٧	٦	بتوحيه	بتوجيه
٣٣	٢٢	زيد بن المهلب	يزيد بن المهلب
٣٩	٧	إلا قرأه واستظهره	إلا قرأه واستظهر ماراقه منه
٤٥	١٧	مائلا	ماثلا
٨٠	١٢	اللعات	اللغات
٨١	٤	أن الجاحظ.	إن الجاحظ.
٨١	٥	إلا قرأه واستظهره	إلا قرأه واستظهر ماراقه منه
٩٣	٢١	وكان عهده كله حروب	وكان عهده كله فى حروب
١١٦	١٣	كثير من الفارقين	كثير من العارفين
١١٧	١٠	وسالة	رسالة
١٢١	٧	كتاب إمامةُ	كتاب إمامةِ
١٢٩	١٥	كتاب الحجات	كتاب الحجاب
١٣٠	١٩	من أبى الجاحظ.	من أبى عثمان الجاحظ.
١٣٩	٤	القواد وأسباب الصناعات	القواد وأرباب الصناعات
١٤٠	٢٣	كتاب القرآن	كتاب مسائل القرآن
١٩١	٢١	عوف بن ملحم	عوف بن محلم
١٩٤	٧	الخبز	الخبر
١٩٩	٩	أحمد بن عبد الوهاب الثقفى	أحمد بن عبد الوهاب البجلى
٢٠٢	٥	وضرائها	وضراءها
٢٠٧	١٢	أبى داود	أبى دؤاد